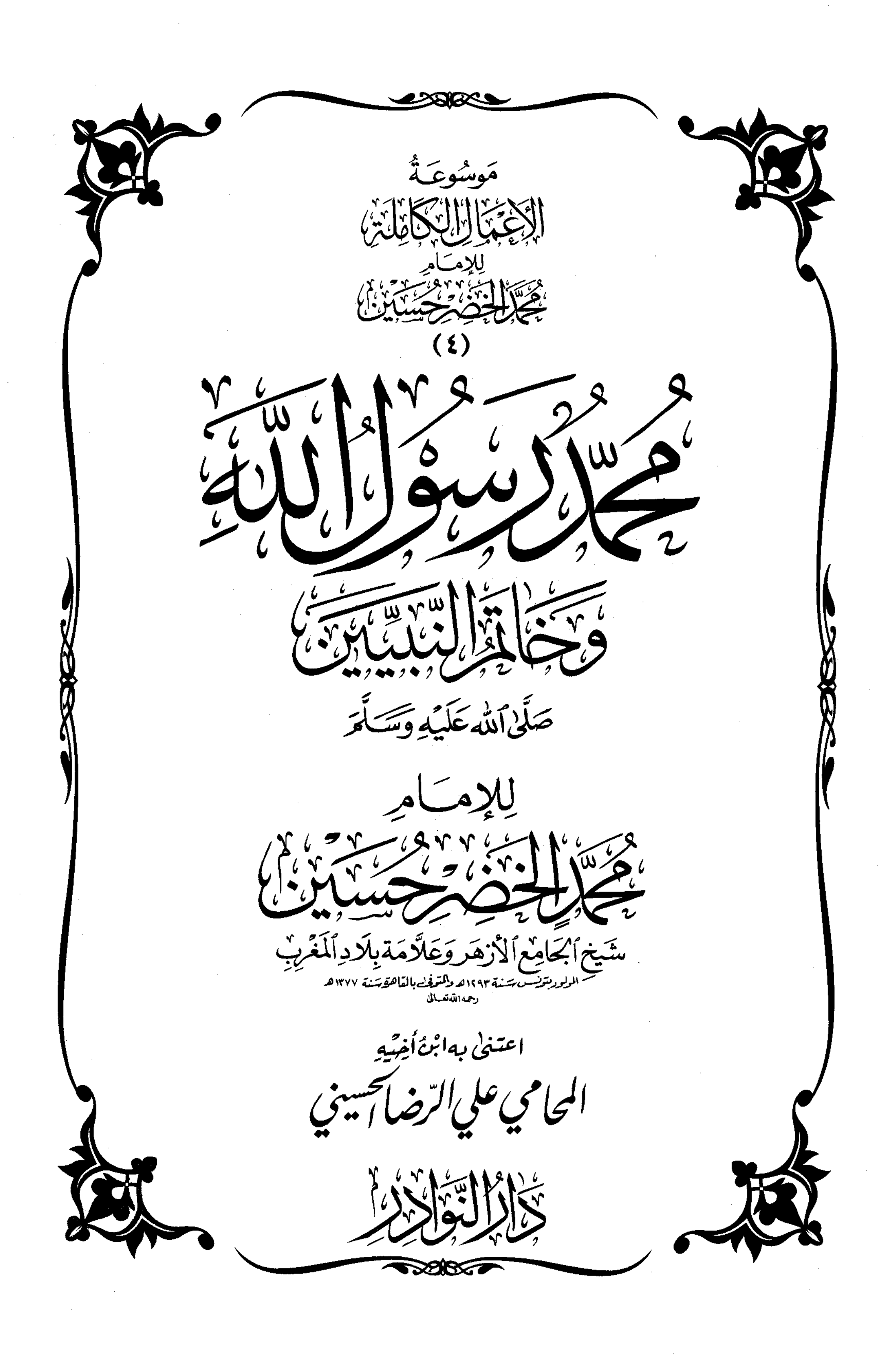


موسوعة

الأعمال الكاملة

للإمام

محمد الخضر حسين

(٤)

محمد رسول الله وخاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم

للإمام

محمد الخضر حسين

شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب

المولود بتونس سنة ١٢٩٣ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ

رحمه الله تعالى

اعتنى به ابن أخيه

المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر

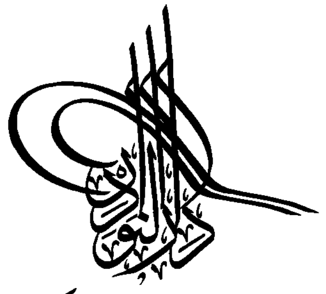




الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك : ٤ - ٠٥ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN

9789933418054



سورية - لبنان - الكويت

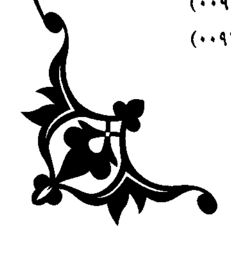
مؤسسة دار النوادر م.ف - سورية * شركة دار النوادر اللبنانية ش.م.م - لبنان * شركة دار النوادر الكويتية - ذ.م.م - الكويت

سورية - دمشق - ص. ب : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

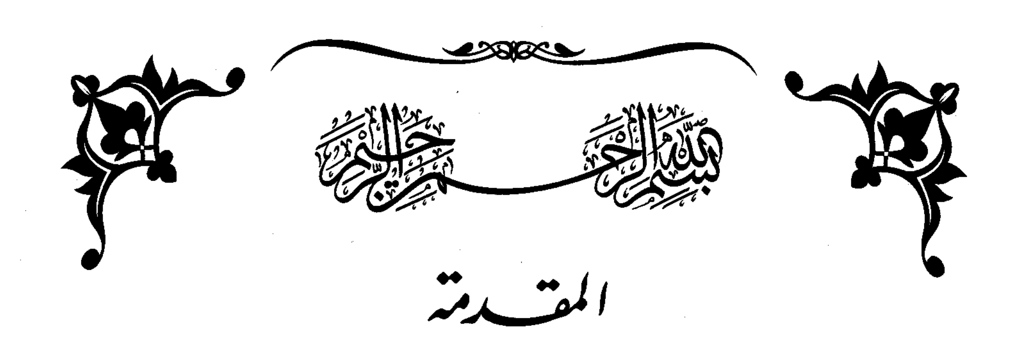
لبنان - بيروت - ص. ب : ٥١٨٠/١٤ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أسسها سنة : ٢٠٠٦م
نور الدين طالب
المدير العام والرئيس التنفيذي







المقدمة

كانت مشيئة الله تعالى في خلقه أن يُبعثَ محمدٌ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً إلى الناس كافة هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الحق بإذنه وسراجاً منيراً، ومبعوثاً لنشر مكارم الأخلاق، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهو المثل الأعلى في الشرف والحسب وكمال الخلق والسيرة القويمة، ولن تجد فضيلة إلا كانت من صفاته.

يقول الإمام محمد الخضر حسين: «طالعْ كتب التاريخ، عربية وغير عربية، وأمعن النظر في أحوال عظماء الرجال من مبدأ الخليقة إلى هذا اليوم، فإنك لا تستطيع أن تضع يدك على اسم رجل من أولئك العظماء، وتقص علينا سيرته ومزاياه وأعماله الجليلة حديثاً يضاهي أو يداني ما نحدثك به عن هذا الرسول العظيم».

مقالات وبحوث ومحاضرات في السيرة النبوية الكريمة، كتبها أو ألقاها الإمام في مناسبات ذكرى المولد النبوي الشريف، أو الهجرة النبوية المباركة. جمعتها وأعددتها في هذا الكتاب تحت عنوان «محمد رسول الله وخاتم النبيين». وهي إحدى الرسائل التي تضمنها الكتاب.

ولن يحيط مجموع الكتاب بالسيرة النبوية الزاخرة التي تحتاج إلى

مجلدات، وإنما تناول جوانب من السيرة الشريفة في مقالات عن رفقه، وحكمته في السياسة، وسيرته في الخليقة، وصبره ومتانة عزمه، وبلاغته، وشجاعته، ورجاحة عقله، وحكمة رأيه، وآداب خطبه، وهجرته، وإبادته للأصنام، ودعوته، وقضائه على المزاعم الباطلة، وعظمته، وغيرها من البحوث العلمية الفائقة.

وعندما يكتب الإمام في السيرة النبوية، فإن الإخلاص رائده، والعلم القويم منهاجه.

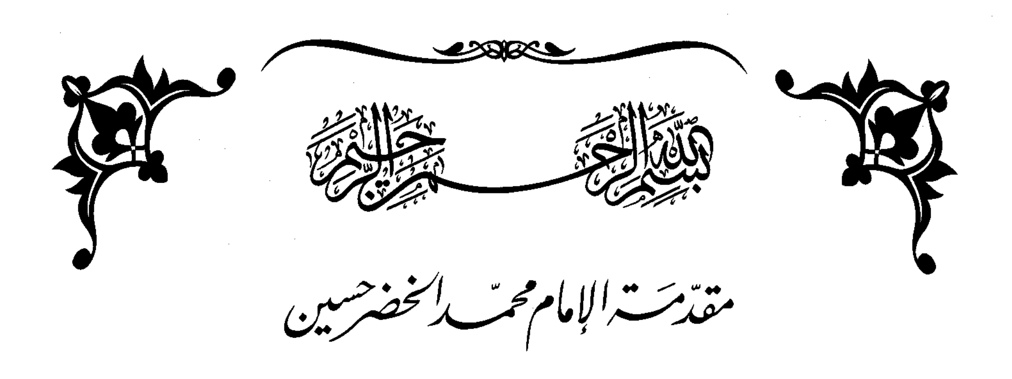
إن كتابة الإمام في السيرة النبوية، والدفاع عنها، ورد سهام المغرضين، وتفنيد مزاعم المبطلين والزائغين عن الحق بالحجة والبرهان، دليل على إيمان راسخ في القلب، وعلم واسع في العقل، ويقين صادق عند صاحبه أوقف حياته المليئة بجلائل الأعمال لهذه الدعوة الخالدة.

أشرت في الهامش عند مطلع كل بحث إلى المصدر الذي نقلت عنه.

والله نسأل الهداية والتوفيق في خدمة رسالة الإسلام، والحمد لله رب العالمين.

علي الرّضا الحسيني

❑ ❑ ❑



مقدمة الإمام محمد الخضر حسين

الحمد لله الذي أمتعنا بنعمة الإسلام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة لجميع الأنام، وعلى آله النبلاء الكرام، وأصحابه الهداة الأعلام، وكل من دعا إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة إلى يوم القيام.

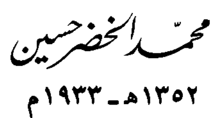
أما بعد:

فقد كَثُرَ ما وقع في أيدينا من صحف يضعها أولئك الذين سمّوا أنفسهم: «المبشرين»، ويتعرضون فيها لدين الإسلام بكلمات خبيثات، يبتغون بها إخراج أبنائنا وبناتنا من نور الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟!.

ما أراه في تلك الصحف من زور وبهتان، ثم ما أذاعته الصحف السيّارة في العهد القريب من قصص محاولة تلك الطائفة لتنصير بعض الفتيان أو الفتيات، قد دعياني إلى تحرير رسالة في سيرة رسول الإسلام ﷺ، ودلائل نبوته السنية. وغير خفيّ على من يقدّر هذا الرسول الأعظم قدره: أن ليس في طوق كاتب ـ ولو ألقت إليه البلاغة أعنَّتها ـ تقصّي المعاني التي في هذه السيرة العظيمة، أو تساق في دلائل هذه النبوة المباركة، إنما القصد من تأليف هذه الرسالة: أن أصوغ من تلك السيرة النبوية، ودلائل النبوة المحمدية فصولاً وجيزة، ثم أعرضها عليك في صفحات يمكنك أن تأتي عليها في زمن قليل.

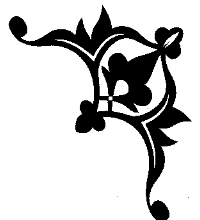
خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأمتعه بنعمة العقل، وهي من أجلِّ ما ينعم به الخالق الحكيم. أمتعه بنعمة العقل؛ ليهتدي به إلى الحياة الطيبة، وما الحياة الطيبة إلا أن تعرف النفوس مُنشئها ومصيرها حق اليقين. تعرف منشئها؛ لتقوم بما يستحقه من التعظيم والإجلال، وتعرف مصيرها؛ لتعدّ له ما تستطيع من صالح الأعمال. ولكن المشاهدات الصائبة، والتجارب الصادقة، والأخبار المتواترة، دلت على أن للعقول حدوداً لا تتعداها، ونظرات قد تنحرف عن قصد السبيل، فتخطئ مرماها، فاقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بالخليقة: أن يرشد العقول إلى حقائق لا تصل إليها بنفسها، ويريها قصد السبيل؛ حتى لا تزيغ نظراتها، فبعث الرسل ـ عليهم السلام ـ مؤيدين بالآيات البينات، داعين إلى سبيل الحق بأبلغ الحِكَم وأحسن العظات.

ومازال الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يُبعثون إلى الأقوام الطاغية، فيحاجّونهم، ويعظونهم، ويبشرونهم وينذرون، يهتدي بهديهم أولو الألباب، ويكفر بهم من حقت عليه كلمة العذاب، حتى جاء الزمن الذي خصه الله تعالى بأن يكون مطلع هداية عامة، وشريعة خالدة، ذلك هو الزمن الذي بُعث فيه أفضل الخليقة سيدنا محمد العربي القرشي ﷺ.



١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م

□ □ □

أديان العرب قبل الإسلام[1]

قصَّ الله تعالى علينا في القرآن المجيد: أن العرب كانوا يتخبطون في ضلالة الشرك، ويتخذون من دون الله آلهة، فيبعث إليهم أنبياء ليهدوهم السبيل، ويدعوهم إلى العقائد السليمة، والأخلاق الكريمة.

*** بعثة هود ـ عليه السلام ـ:**

أقدم قوم من العرب قصَّ الله علينا أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل إليهم رسولاً: قوم عاد، وكانت منازلهم بالأحقاف، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾[الأحقاف: ٢١]. والأحقاف: جمع حِقْفٍ، وهو الرمل المستطيل فيه اعوجاج وانحناء. فالآية ظاهرة في أن منازلهم كانت ببلاد فيها رمال كثيرة. وذكر ابن قتيبة أنهم كانوا ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل: بالدوّ، والدّهناء، وعالج، ووَبَار، وعُمان، إلى حَضْرَموت.

وهذا لا يخالف ما جاء في سورة الفجر من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» الأجزاء التالية: الجزء التاسع من المجلد الحادي عشر، ربيع الأول سنة ١٣٥٨ ـ أبريل ١٩٣٩ ـ والجزء الثاني عشر من المجلد الحادي عشر، جمادى الثانية ١٣٥٨ ـ يولية ١٩٣٩ ـ والجزء الأول من المجلد الثاني عشر، رجب ١٣٥٨. والجزء الثالث من المجلد الثاني عشر، رمضان ١٣٥٨هـ.

فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ[1] ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾[الفجر: ٧ ـ ٨]؛ لصحة أن تُحمل العماد على عماد الأخبية. ثم إن نزولهم بالأحقاف لا يمنع من أن تكون لهم مبانٍ ضخمة. والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيما قصَّه الله تعالى علينا من مواعظ هود ـ عليه السلام ـ إذ قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩][2].

وكان هؤلاء القوم يعبدون آلهة غير الله، ولم يصرح القرآن الكريم بما كانوا يتوجهون إليه بالعبادة على وجه التعيين، ويروى أنهم كانوا يعبدون الأصنام[3]. وجَمْعُ الآلهة في قولـه: ﴿بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾[هود: ٥٣]، وجَمْعُ الأسماء في قوله: ﴿أَتُجَـٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ﴾[الأعراف: ٧١] يدل على أن عاداً كانت تعبد آلهة متعددة.

ويقال: إن عاداً أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، والقرآن الكريم إنما يدلّ على أن بعثة هود كانت بعد بعثة نوح ـ عليه السلام ـ، قال تعالى فيما يقصه من قول هود لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[الأعراف: ٦٩]؛ أي: خلفاء من بعدهم؛ لتعتبروا بما كان من عاقبتهم، وتشكروا الله على ما أعطاكم من قوة، ووهبه لكم من نعمة.

---

(١) هو إرم بن سام الذي هو أحد جدود عاد، فإرم بدل من عاد؛ لأن أولئك القوم يطلق عليهم اسم جدهم عاد، واسم جدهم إرم.

(٢) الريع: الجبل، أو المكان المرتفع، والآية: القصر، والمصانع: ما كان من نحو الحصون ومجاري المياه.

(٣) قال المسعودي في «مروج الذهب»: كانوا يعبدون ثلاثة أصنام، وهي: صمود، وصداء، والهباء، وقال المسعودي أيضاً: إن عاداً كان يعبد القمر.

بعث الله هوداً ـ عليه السلام ـ إلى هؤلاء القوم، فدعاهم إلى نبذ عبادة غير الله، وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ﴾[الأعراف: ٦٥]. وذكر في وعده لهم على إجابة دعوته أن لهم قبل خير الآخرة خير الدنيا، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[هود: ٥٢]. وهذا ما يناسب دعوة القوم الذين غرقت قلوبهم في الحرص على الدنيا: أن يبشروا بأن الاستقامة على هدى الله أعظم وسائل السعادة في هذه الحياة.

وتوعَّدهم بعقوبة الدنيا والآخرة إذا هُم تمادَوا في غيِّهم، فقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود: ٢٦]. وقال: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[هود: ٥٧].

ولم يكن من قومه إلا أن كذَّبوه، وتنقَّصوه، وجحدوا ما جاء به من الآيات، وأصروا على ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة غير الله، فقالوا فيما قصه الله تعالى من إجابتهم لهود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[الأعراف: ٦٦]، وقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأعراف: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[هود: ٥٩].

ووقف هود ـ عليه السلام ـ موقف من لا يهاب أهل الباطل، ولا يبالي بهم، ولا بما هم فيه من قوة وطغيان، ولا بما طبعوا عليه من الحرص على إذاية الداعين إلى الحق، والمبادرة إلى البطش بهم، فقال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى

تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٤ _ ٥٦].

وكذلك يجب أن يكون دعاة الإصلاح في كل حين: يزدرون أهل الضلال، ويواجهونهم بكل ما ملكوا من حجةٍ وحكمة.

دعا هود ـ عليه السلام ـ قومه إلى الحق، ودلَّهم على سبيل الخير، فاستحبوا الكفر على الإيمان إلا قليلاً منهم، وكان عذابهم أن أرسل الله عليهم ريحاً شديدة الصوت: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[الحاقة: ٦ _ ٧].

أباد الله أولئك الجاحدين، ولم يبق منهم أحد، قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[الحاقة: ٨]. وقال: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٧٢]، وقال: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[الأحقاف: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[النجم: ٥٠ _ ٥١]. ونجى هوداً والذين آمنوا معه. قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[الأعراف: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[هود: ٥٨].

* **بعثة صالح ـ عليه السلام ـ لثمود:**

بُعث صالح إلى قوم من العرب يقال لهم: «ثمود». وثمود: قبيلة من العرب العاربة كانوا يسكنون الحِجْر: بين الحجاز والشام. وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحِجْر في غزوة تبوك، أمرهم ألا يشربوا من بئرها، وألا يسقوا منها. وفي «صحيح البخاري» أيضاً:

أن النبي ﷺ لما مر بالحِجْر، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين؛ أن يصيبكم الله مثل ما أصابهم»، ثم تقنع بردائه وهو على الرحل، وأسرع السير حتى أجاز الوادي.

وكان هؤلاء القوم يعبدون غير الله: يروى أنهم كانوا يعبدون الشمس، وفي «مروج الذهب» للمسعودي، وغيره: أنهم كانوا يعبدون الأوثان. والقرآن الكريم لم يتعرض لما كانوا يعبدون على وجه التعيين، وإنما دلَّ على أنهم كانوا يعبدون غير الله، ومن أدلة هذا: قولهم فيما قصه الله عنهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[هود: ٦٢].

*** دعوة صالح لثمود:**

دعا صالح ـ عليه السلام ـ قومه إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[الأعراف: ٧٣]، وذكرهم بما وهب الله لهم من النِعم، وحذرهم من إطاعة المفسدين، قال تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٧٤]. وقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾[هود: ٦١]؛ أي: ابتدأ خلقكم منها، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١]؛ أي: جعلكم عمّارها، أو طلب منكم أن تعمروها، ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[هود: ٦١]: أقلعوا عما أنتم عليه؛ فإنه يقبل منكم، ويتجاوز عنكم، ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾[هود: ٦١] برحمته ﴿مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١] لسائليه. وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

وكان من قومه أن أعرضوا عن الدعوة، وجحدوا بما جاء به من الآية

البيّنة، وقال فيما قصه الله عنهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾[هود: ٦٢]: كنا نرجو قبل هذه المقالة والدعوة أن يكون عقلك كاملاً، ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[هود: ٦٢]. وردَّ عليهم صالح في رفق ولطف، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[هود: ٦٣].

*** آية نبوته:**

دعا صالح ـ عليه السلام ـ قومه إلى الحق، فاقترحوا عليه أن يأتيهم بآية تدل على صدق دعوته، قال الله تعالى فيما يقصه عنهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الشعراء: ١٥٤]، فكان له في الناقة التي آتاه الله آية ظاهرة، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء: ٥٩]؛ أي: آية بيّنة، وقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾[الأعراف: ٧٣].

أما وجه المعجزة فيها، فلم يصرح به القرآن الكريم إلا ما جاء من قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[القمر: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الشعراء: ١٥٥]. وروى أحمد، والحاكم عن جابر، قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحِجْر، قال: «لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح، وكانت الناقة ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، وكانت تشرب ماءهم يوماً، ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله منْ تحت أديم السماء منهم»[1].

---

(١) هذا الحديث قال فيه ابن كثير هو على شرط مسلم.

ودلَّ القرآن الكريم أن من قوم صالح من قبلوا دعوته، وآمنوا بما جاء به، يؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

واتفق رأي ثمود بعدُ على عقر الناقة، وكان صالح ينذرهم أن يتعرضوا لها: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٧٣]، فعقروها، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف: ٧٧]، فقال لهم صالح ـ عليه السلام ـ ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[هود: ٦٥]. ولما أمسوا، هموا بقتله كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾[النمل: ٤٨ ـ ٤٩]؛ أي: لنكبسنه في داره مع أهله ليلاً، ونقتله، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[النمل: ٤٩].

ولما انتهت الأيام الثلاثة، جاءتهم صيحة من فوقهم، ورجفة شديدة من تحتهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾[الشمس: ١٤][1]. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[فصلت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا

---

(١) أطبق عليهم العذاب، كما يقال: دمدم عليه القبر؛ أي: أطبقه عليه، وقيل: الدمدمة: إهلاك في استئصال.

عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ[1] ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾[القمر: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[الأعراف: ٧٨].

* **بعثة إسماعيل ـ عليه السلام ـ للعرب:**

بُعث إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أرض بابل، ودعا قومه إلى الدين الحنيف، فلم يجيبوا دعوته، فهاجر، وورد الشام ومعه زوجته سارة[2]. وأتى مصر، وحاول أحد الجبارين الاعتداء على سارة، وخلصها الله منه، وأخدمها «هاجر». ثم رجع الخليل ـ عليه السلام ـ إلى أرض المقدس، ووهبته سارة أمتها هاجر؛ رجاء أن يرزقه الله منها ولداً، فدخل عليها إبراهيم، فحملت منه، وولدت منه إسماعيل ـ عليه السلام ـ، وحصلت لسارة غيرة من هاجر، وطلبت من الخليل أن يغيِّب وجهها عنها، فذهب بها الخليل حتى وضعها حيث مكة اليوم.

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس: ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، إلى أن أكرمها الله بنبع زمزم.

ومر بها رفقة من جرهم، فنزلوا هنالك، وشب إسماعيل، وتعلم منهم العربية، فلما أدرك، زوجوه امرأة منهم.

---

(١) كالهشيم اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء.

(٢) قيل: ابنة ملك حران، فارقت دين قومها، فتزوجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ، والمشهور أنها ابنة عمه «هاران»، وأما من زعم أنها ابنة أخيه «هاران»، وادعى أن نكاح بنت الأخ كان إذ ذاك جائزاً، فزعم باطل لا يستند إلى دليل، ولا ما يشبه الدليل.

وعاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى مكة، وبنى بها البيت الحرام، يعينه على ذلك ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ، وبعث الله إسماعيل بشريعة إبراهيم إلى جرهم والعماليق. وذكر بعضهم أنه أرسل إلى جرهم والعماليق وقبائل من اليمن في زمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ[١].

وإذا أرسل إسماعيل بشريعة إبراهيم؛ فإن إبراهيم كان يدعو إلى التوحيد الخالص، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب؛ كما يدعو سائر الأنبياء، ومن شريعته: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، قال الله تعالى في قصة إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾[مريم: ٥٥]. ومن شريعته: حج البيت: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾[الحج: ٢٧]. ومنها: الاختتان، كما ورد في الصحيح.

*** بعثة شعيب ـ عليه السلام ـ إلى مَدْيَن:**

من العرب الذين كانوا يعبدون غير الله: مدين، وكانت منازلهم تجاور أرض معان بأطراف الشام، ومما عرفوا به من الفساد في الأرض: أنهم كانوا يبخسون المكيال والميزان؛ أي: يأخذون لأنفسهم بالزائد، ويدفعون لغيرهم بالناقص.

فبعث الله إليهم شعيباً ـ عليه السلام ـ داعياً إلى التوحيد والإصلاح، وبعثته كانت بعد بعثة إبراهيم ـ عليه السلام ـ يدل على هذا: قوله لقومه كما جاء في الآية: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٩]، وقال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[العنكبوت: ٢٦]. والقرآن الكريم يسمي من

---

(١) «السيرة الحلبية».

أرسل إليهم شعيب بمدين تارة، وبأصحاب الأيكة[1] مرة أخرى، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[الأعراف: ٨٥]، وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٧]. وقد اختلف أهل العلم في بيان هذا، فقال قوم: إن شعيباً أرسل إلى أمتين: مدين، وهم الذين عُذبوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة، وهم الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة[2]. وقال آخرون: إن شعيباً أرسل إلى أمة واحدة تسمى: مدين، وهم أنفسهم أصحاب الأيكة، وهذا هو المختار.

قال ابن كثير في «تاريخه»: ومن المفسرين من قال: إن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين، وقوله ضعيف، لم يوافقوا عليه، وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما: أن الله تعالى قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ولم يقل: أخوهم كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[الأعراف: ٨٥].

ثانيهما: أنه ذكر أنه عذب أصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة، وذكر في مدين أنه عذبهم بالرجفة والصيحة.

والجواب عن الأول: أنه تعالى لم يقل: أخاهم بعد ذكر الأيكة؛ لأن ذكره غير مناسب بعد وصفهم بعبادة الأيكة، ولما نسبهم إلى العبيد، ساغ ذكر الأخوة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥] وقال:

---

(١) سموا أصحاب الأيكة؛ لأنهم كانوا يسكنون أيكة؛ أي: غيضة تنبت ناعم الشجر، وقيل: الأيكة: اسم للبلد الذي كانوا يسكنونه. والأظهر ما قاله ابن كثير من أنهم كانوا يعبدون أيكة.

(٢) يعزى هذا إلى السدي، وعكرمة.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[الأعراف: ٧٣].

والجواب عن الثاني: أنه جمع عليهم الثلاثة أنواع من العذاب: الصيحة، والرجفة، وعذاب الظلة[1].

دعا شعيب ـ عليه السلام ـ قومه إلى نبذ ما كانوا يعبدون من دون الله، والإقلاع عن الفساد، ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾[هود: ٨٧]، وأتاهم بآية بينة على صدق رسالته، أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى فيما يقصه من قول شعيب: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الأعراف: ٨٥]، والآية ما يجريه على الرسول من المعجزة. وسلك في دعايتهم كل طريق حكيم من التبشير؛ كقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: ٩٠].

أو الإنذار؛ كقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٩][2].

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[هود: ٨٤].

ولم ينتفع القوم بالآيات والمواعظ، فأصروا على كفرهم وفجورهم،

---

(١) لم يبين القرآن الكريم حقيقة هذا العذاب، والذي يذكره الرواة: أن الله تعالى بعث عليهم ريحاً حارة شديدة، فأخذت بأنفاسهم، وبعث عليهم سحابة، فأظلتهم من الشمس، وهي الظلة، حتى إذا اجتمعوا تحتها، أسقطها الله عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم الصيحة من فوقهم.

(٢) قوم لوط لم يكونوا ببعيد من قوم شعيب، لا في الزمان، ولا في المكان، ولا في الصفات والأفعال القبيحة.

وقالوا فيما قصه الله عنهم: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[هود: ٩١].

ولما أيس شعيب من إيمانهم، استنصر الله تعالى في مجازاتهم بما يستحقون، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[الأعراف: ٨٩]، فاستجاب الله له فيهم، وجمع عليهم أنواعاً من العقاب، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[هود: ٩٤].

ونجى الله شعيباً والذين معه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[هود: ٩٤].

*** الشرك في بلاد العرب:**

انتشر في بلاد العرب الدين الحنيف الذي تلقوه من إسماعيل ـ عليه السلام ـ، وما زالوا على ذلك حتى مرت عليهم أحقاب، وفعلت فيهم الأهواء فعلتها، ووجدت الآراء الباطلة في نفوسهم مواضع، فابتعدوا عن سبيل الرشد، وذهبوا في أودية الضلال فرقاً، حتى أصبحت الجزيرة كمعرض للملل الضالّة، والآراء الفاسدة، فيجد الباحث في تاريخهم أصنافاً كثيرة من مظاهر الشرك كانت قائمة في الجزيرة؛ من نحو: عبادة الأصنام، والأنصاب[(١)]،

---

(١) قال ابن الكلبي في كتاب «الأصنام»: إن المصنوع من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان: صنم، وإذا كان من حجر، فهو وثن. وذهب آخرون إلى أن الصنم والوثن مترادفان. فقال: ما يعبدون من الحجر على غير صورة، فهو نصب، وما يكون تمثالاً، فهو صنم ووثن. وحكى صاحب «المصباح» قولاً بأن الأنصاب هي الأصنام، فقال: النصب: حجر نُصب وعبد من دون الله. قيل: هي الأصنام، وقيل: غيرها؛ فإن الأصنام مصورة، والأنصاب بخلافها.

والأشجار، والملائكة، والجن، والحيوان، ومن دين الصابئة وعبادة الكواكب، ومن المجوسية والبرهمية.

*** عبادتهم الأصنام:**

سبب ضلال العرب في عبادة الأصنام بعد تمسكهم بملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ: أن أولاد إسماعيل لما ملؤوا مكة، وانتشروا في البلاد لطلب الرزق، كان الظاعن منهم يحمل معه حجراً من حجارة الحرم، وحيثما نزل، وضعه، وطاف به طوافه بالكعبة، ثم انجرَّ بهم ذلك إلى المبالغة في تعظيم تلك الأحجار، فعبدوها، وعادوا إلى ما كانت عليه الأمم الضالة من قبلهم.

ثم ظهر عَمرو بن لُحي الخزاعي أيام تغلبت خُزاعة على مكة، ونفت منها جرهم، وكان قد تولى سدانة البيت، فدعا إلى عبادة الأوثان. وسبب ضلال عمرو هذا فيما يروى: أنه دخل البلقاء من أرض الشام[1]، فرأى قوماً يعبدون الأصنام، ويقولون: هذه أرباب نتخذها، نستنصر بها فننصر، ونستسقي بها فنسقى، وكل من سألها يعطى، فرجع إلى مكة ومعه صنم منهم، فنصبه على الكعبة، ودعا القوم إلى عبادته، ففعلوا.

تفشت في العرب عبادة الأصنام، فأقاموا في جوف الكعبة تماثيل، وكان أعظمها في زعمهم: «هبل».

ووضعوا حول الكعبة نحو ستين وثلاث مئة صنم (على عدد أيام السنة)، ومن الأصنام التي وضعوها حول الكعبة: إساف، وكان على الصفا، ونائلة، وكانت على المروة. واتخذ أهل كل دار من مكة صنماً يعبدونه من

---

(١) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قبتها عمان.

التماثيل القائمة في الكعبة، والأنصاب الموضوعة حولها.

وللعرب أصنام في غير مكة يبالغون في تعظيمها، منها: «اللات»[١]، وهو صنم لثقيف، «ومناة»[٢]: صنم كان منصوباً على ساحل البحر بقديد (الجبل الذي بين مكة والمدينة)، وكانت العرب جميعاً تعظمه، وتذبح حوله، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج، «وفلس»[٣]: صنم لطيء، و«نهم»[٤]: صنم لمزينة، و«ذو الخلصة»: صنم لخثعم ودوس وبجيلة، و«الأقيصر»: كان بمشارف الشام للخم وجذام، وغطفان، و«ذو الكفين»: صنم لدوس، و«ذو الشرى»: صنم لبني الحارث بن يشكر، و«رضا»: صنم لربيعة، و«عميانس»: صنم لخولان، و«سعير»: صنم لعنزة.

ومن أصنامهم: «ود» كان في قبيلة كلب، و«سواع»، وكان في قبيلة هذيل، و«يغوث»، وكان في قبيلة مراد، و«يعوق»، وكان في قبيلة همدان، و«نسر»، وكان في حمير.

وقد ذكر القرآن المجيد هذه الأصنام الخمسة في قصة نوح ـ عليه السلام ـ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح: ٢٣].

روي عن ابن عباس: أن هذه الأصنام كانت لقوم نوح ـ عليه السلام ـ،

---

(١) بالتاء المشددة، وقرأ بها ابن عباس وعكرمة وجماعة؛ تسمية للصنم بوصف الذي كان يلتُّ عنده السويق.

(٢) «الأصنام» لابن الكلبي.

(٣) ضبطه صاحب «القاموس» بكسر الفاء وسكون اللام.

(٤) بضم النون وسكون الهاء.

ثم انتقلت إلى العرب من بعدهم.

ومن المحتمل القريب أن تكون أسماء هذه الأصنام بقيت تذكر إلى ما بعد نوح، ثم اتخذ العرب أصناماً، وسموها بهذه الأسماء.

ومن هذه الأصنام: ما كان يتخذ من الأحجار النفيسة؛ كهبل؛ فإنه كان - فيما يروى - من عقيق أحمر على صورة إنسان، ومنها: ما يتخذ من نحاس؛ كصنم خزاعة الذي أقاموه فوق الكعبة، ومنها: ما يتخذ من الحجارة؛ كمناة؛ فإنه كان صخرة مربعة، ونحو ذي الخلصة؛ فإنه كان مروة بيضاء، وعليها نقش في شكل تاج، ومنها: ما يتخذ من الخشب؛ كذي الكفين.

*** مظاهر تعظيمهم للأصنام:**

كان عبّاد الأصنام يزورون الأصنام، ويتمسحون بها، ويتقربون إليها بالذبائح، ويحلفون بها، ولا يتعرضون لمن التجأ إليها، وكانوا يرون أن سبّها يأتي بأمراض معضلة، ويؤلفون أسماء أبنائهم من أسمائها؛ تبركاً بها، كما قالوا: عبد العزّى، وزيد اللاّت، وزيد مناة، وعبد يغوث، وعبد نهم، وعبد ود، وعبد غنم، وعبد المدان[١]، وعبد رضا، وعبد كلال[٢]، وعبد مناف[٣]، وعبد ياليل[٤].

وكانت الحيّض من النساء لا يدنون من الأصنام، ولا يتمسحن بها،

---

(١) قال ابن دريد: المدان: اسم صنم، وفي «القاموس»: المدان؛ كسحاب: صنم.

(٢) هو ابن عبد ياليل أحد سادات الطائف، عرض رسول الله ﷺ عليه الدعوة، فلم يجبه.

(٣) في «القاموس»: ومناف: صنم.

(٤) في «القاموس»: ياليل كهابيل: رجل، وصنم.

وإنما كانت الواحدة تقف ناحية منها[1].

وكانوا يسكبون لها خمراً أو زيتاً أو حليباً، ويجعلون أمامها طعاماً ليأكله الطير، وكانوا يقصون عندها نواصي أولادهم، ويحلقون شعورهم، وكان العذارى يرقصن حولها مسبلات ذيولهن. وكانوا يقسمون لها من حرثهم وأنعامهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الأنعام: ١٣٦].

وبيان هذه القسمة الضالة ـ على ما جاء في بعض الروايات ـ: أنهم كانوا يعينون شيئاً من حرث ونتاج لله تعالى، فيصرفونه إلى الضيف والمساكين، وأشياء منها لآلهتهم، فينفقون منها لسدنتهم، ويذبحون عندها، فإذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكياً نامياً، يزيد في نفسه خيراً، رجعوا فجعلوه لآلهتهم، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم، تركوه؛ معتلين بأن الله تعالى غني.

*** عبادتهم لبعض الأشجار:**

كان العرب يعبدون بعض الأشجار، و«العزى»: سمرة[2]، كان لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتاً، وأقاموا لها سدنة[3]. وقيل: ثلاث سمرات، أو نخلات، وكانت قريش تخصها بالإعظام، وكانوا يعظمون ذات أنواط،

---

(١) «الأصنام» لابن الكلبي.

(٢) واحد السمر، وهو شجر الطلح.

(٣) «معجم ياقوت».

وهي شجرة عظيمة في جوار مكة، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة، فتعلق عليها أسلحتها، وتذبح عندها.

*** عبادتهم بعض الحيوان:**

من العرب من كانوا يعبدون بعض الحيوان؛ فقد جاء في قصة وفد طيء: أن النبي ﷺ نظر إليهم، وقال: «إني خير لكم من العزى ولاتها، ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله»[1].

وجاء في قصة عمرو بن حبيب الملقب بذي الكيود: أنه أغار على بني بكر، فأصاب سقباً[2] كانوا يعبدونه، فنحره وأكله، إلى هذا يشير الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في «عمود النسب»[3] بقوله:

وانسب[4] حبيبهم وذا الكيود ... آكل سقب بكر المعبود

*** عبادتهم الكواكب:**

كان بعض كنانة يعبدون القمر والدبران، وبنو لخم وجرهم كانوا يعبدون «المشتري»، وبعض بني طيء عبدوا «سهيلاً»، وبعضهم عبدوا «الثريا»، وبعض قبائل ربيعة عبدوا «المرزم»، وطائفة من تميم عبدوا «الدبران»، وبعض القبائل لخم وخزاعة عبدوا «الشعرى العبور».

---

(١) «الروض الأنف» (ج٢ ص٣٤٢).

(٢) السقب: ولد الناقة.

(٣) توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية.

(٤) الضمير يعود على بني فهر، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ألا كل من سمي حبيب ولو بدت ... مروءته يفدي حبيب بني فهر

*** عبادتهم للملائكة:**

من العرب من كانوا يعبدون الملائكة، ويزعمون أنهم بنات الله يشفعن لهم عنده[1] وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾[الإسراء: ٤٠]. وورد في القرآن الكريم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يسأل الملائكة يوم القيامة عن عبادة الإنس لهم، فيتبرؤون منهم ومن ولايتهم، جاء هذا في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ: ٤٠ ـ ٤١].

وسؤال الله تعالى للملائكة يدل على أن من الإنس من كانوا يتوجهون بعبادتهم إلى الملائكة، وقول الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ ظاهر في نفي أن يكون من الإنس من يتوجه إليهم بالعبادة، وأن المشركين إنما كانوا يقصدون بعبادتهم الجن.

ومن وجوه تفسير الآية التي يكون بها جواب الملائكة موافقاً للسؤال: أن أولئك الإنس كانوا يتوجهون بالعبادة إلى الملائكة، ولكنهم كانوا يتخيلون للملائكة صوراً، وهذه الصور إنما تطابق حال الجن، فيصح أن يقال: إن هؤلاء الإنس إنما يعبدون أصحاب تلك الصور، وهم الجن.

ومن الوجوه التي تجعل الجواب موافقاً للسؤال: أن الملائكة جعلوا عبادة الإنس لهم عبادة للجن؛ لأن الجن ـ وهم الشياطين ـ وسوسوا لهم بهذه العبادة، فنسبة عبادة الإنس للجن من جهة أنهم وسوسوا بها.

---

(١) «الملل والنحل» للشهرستاني، و«مروج الذهب» للمسعودي.

* عبادتهم الجِنَّ:

من العرب من كانوا يعبدون الجن، قال أبو المنذر في كتاب «الأصنام»: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن، وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ: ٤١].

وقال ابن عطية في تفسير هذه الآية: «يجوز أن يكون في الأمم الكافرة من عبد الجن، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عُبدت، في سورة الأنعام، وغيرها، ومن آيات الأنعام الظاهرة في هذا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾[الأنعام: ١٠٠]، وجاء في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن: ٦]؛ أي: زاد الرجال العائذون الجن رهقاً؛ أي: تكبراً، أو عتواً، ذلك أن الرجل منهم إذا أمسى في وادٍ قفر، وخاف على نفسه، نادى بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي! أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك.

وجاء في هذا من الشعر قول بعضهم:

قد استعذنا بعظيم الوادي   من شر ما فيه من الأعادي

فلم يجرنا من هزبر عاد

والاستدلال على أن في العرب من كانوا يعبدون الجن بآية: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾[سبأ: ٤١] غير ظاهر؛ فإن سؤال الله تعالى للملائكة عن عبادة الإنس لهم يشعر بأن هناك جماعة من الإنس يتوجهون بعبادتهم إلى الملائكة، فيكون جواب الملائكة بأن هؤلاء إنما كانوا يعبدون الجن، غير مناسب السؤال إلا على أحد الوجوه التي أوردناها في بحث عبادتهم للملائكة.

وقد يلوح للناظر وجه في تأويل الآية يمكن أن تدل به على أن من الإنس من كان يعبد الملائكة، ومنهم من كان يعبد الجن، وهو أن يقال: لما حضر المشركون من عباد الملائكة والجن والأصنام، وأراد الله تعالى إقامة الحجة على أن غيره لا يستحق أن يعبد، وجَّه الخطاب إلى أشرف من توجه المشركون إليه بالعبادة، وهم الملائكة، حتى إذا تبرؤوا، وتبين بإقرارهم أنهم غير أهل لأن يعبدوا، كان قصور غيرهم عن مرتبة العبادة أولى، وكان جواب الملائكة أن تبرؤوا من الإنس الذين كانوا يعبدونهم، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾[سبأ: ٤١]. وبعد هذه البراءة انتقلوا إلى الإخبار بأن أولئك المشركين كانوا يعبدون الجن.

فاسم الإشارة في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[سبأ: ٤٠] مشار به إلى جملة المشركين بالنظر إلى أن فريقاً من هذا المجموع كانوا يعبدون الملائكة، والضمير في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ﴾[سبأ: ٤١] يعود إلى مجموع المشركين بالنظر إلى الفريق الذين كانوا يعبدون الجن، وكلمة ﴿بَلْ﴾ تستعمل في عطف الجمل لمجرد الانتقال من خبر إلى آخر، فهي هنا للانتقال من التبرؤ من الإنس إلى وصفهم بعبادة الجن، ولا غرابة في إطلاق اسم يتناول جماعة، ثم يخبر عنه بأمر صدر من بعضهم لأمر يقتضيه المقام، والأمر الذي اقتضى في السؤال تخصيص عبادتهم للملائكة بالذكر: هو ما أشرنا إليه من أن الملائكة أشرف معبوداتهم، والذي اقتضى في جواب الملائكة ذكر عبادتهم للجن: هو أنه كان شأن أكثر المشركين؛ فإن الذين كانوا يعبدون الأصنام يتعلقون مع ذلك باعتقاد أن من ورائها أرواحاً خفية تتصرف في شؤونهم، وأكثرهم يسمون هذه الأرواح بالجن.

*** عبادتهم للكواكب:**

كان بنو لخم وجرهم يعبدون المشتري، وبعض كنانة عبدوا القمر والدبران، وبعض قبائل ربيعة عبدوا سهيلاً، وبعضهم عبدوا الثريا، وبعض قبائل ربيعة عبدوا المرزم، وطائفة من تميم عبدوا الدبران، وبعض قبائل لخم وخزاعة عبدوا الشعرى العبور.

قال ابن قتيبة: «كان قوم الجاهلية عبدوا الشعرى العبور، وفتنوا بها، وكان أبو كبشة الذي كان المشركون ينسبون إليه النبي ﷺ أول من عبدها، وخالف قريشاً، فلما بعث النبي ﷺ، ودعا إلى عبادة الله، وترك عبادة الأوثان، قالوا: هذا ابن أبي كبشة[1]؛ أي: يشبهه».

ومن العرب من عبدوا الشمس، ومن أثر هذا تسميتهم لها بالإلهة، قال عتبة بن الحارث اليربوعي:

تروحنا من اللهباء[2] عصرا ... وأعجلنا الإلهة أن تؤوبا

وذكر صاحب «تاج العروس»: أن الشمس اسم لصنم قديم، وقال: قد سمت العرب: عبد شمس، وهو بطن من قريش، قيل: سموا بذلك الصنم، وأول من تسمى به: سبأ بن يشجب.

ومن أثر اعتقادهم بتأثيرها في الكون: ما هو جار في بعض البلاد إلى الآن من أن الغلام إذا سقطت له سن، أمسكها بين السبابة والإبهام، واستقبل بها الشمس، ورماها نحوها طالباً منها أن تعوضه سناً أحسن

---

(١) وقيل: أبو كبشة كنية وهب بن عبد مناف جد النبي ﷺ من جهة أمه.

(٢) في «اللسان»: اللعباء ـ بالعين ـ.

من السن الساقطة.

ومن أثر عبادتهم للكواكب: تسميتهم أبناءهم بأسماء مضافة إليها؛ نحو: عبد شمس، وعبد المشتري.

*** البرهمية في العرب:**

اشتهر دين البرهمية في سكان عمان[١]، والبرهمية منسوبة إلى برهم، وهو المعبود الأول أو الأكبر عند أصحاب هذا المذهب المنتشر في الهند، ويصفون هذا المعبود بأنه أصل كل الموجودات، واحد أزلي[٢].

وبرهما في الهند هيكـل يعبده البراهمة[٣]، ويتوجهون إليه بالدعاء، وهم يعبدون مع ذلك الشمس؛ بدعوى أنها ينبوع النور والحرارة، فهي أول المعبودات في زعمهم، ويستدل بعضهم بهذا على أن البرهمية فرع للمجوسية قبل ظهور زرادشت.

*** دين الصابئة في العرب:**

من العرب من كانوا على دين الصابئة، ومذهب الصابئة يقوم على عبادة الملائكة، ذلك أنهم قالوا: إنا نحتاج في معرفة الله وأحكامه إلى متوسط روحاني، ولما لم يتيسر لهم مشاهدة الروحانيات، والتلقي منها، لجؤوا إلى الكواكب؛ بزعم أنها هياكل الروحانيات، وصاروا يعبدون الكواكب

---

(١) «خلاصة تاريخ العرب» لسيديو.

(٢) يريدون به: الطبيعة، ولهذا كانت لهم آلهة متعددة يمثل كل منها مظهراً من مظاهر الطبيعة.

(٣) انظر: كتاب محمود بن سبكتكين الذي بعث به إلى ديوان الخلافة عند فتح الهند في ترجمة ابن سبكتكين من «تاريخ ابن خلكان».

تقرباً إلى الروحانيات التي تقربهم ـ فيما يزعمون ـ إلى الباري ـ جل جلاله ـ، والكواكب التي كانوا يعبدونها: السبع السيارات، أو بعض الكواكب الثابتة، فصابئة الروم تعبد السيارات، وصابئة الهند تعبد الثوابت[١].

ثم إن جماعة منهم قالوا: إن الهياكل السماوية لا ترى في كل الأوقات؛ لأن لها طلوعاً وغروباً، وظهوراً بالليل واحتجاباً بالنهار، فلا يمكن التقرب بها في كل وقت، وبدا لهم أن يقيموا أشخاصاً مبصرة لهم في كل وقت يتوسلون بها إلى الهياكل، فاتخذوا أصناماً على مثال الهياكل، ونصبوا كل صنم في مقابلة هيكل.

وقد بعث الله تعالى إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فحاجَّ الفريقين: عباد الكواكب، وعباد الأصنام.

ومن أثر ديانة الصابئة في بلاد العرب: اعتقادهم بالأنواء[٢]، وبيان ذلك: أن للقمر ثماني وعشرين منزلة، وتسمى هذه المنازل بأسماء كواكب تظهر فيها، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة، وطلوع ما يقابلها، يكون مطر، فيقولون: مُطرنا بنوء كذا، والنوء: الكوكب الطالع؛ لأنه إذا سقط الساقط بالمغرب، ناء الطالع؛ أي: نهض وطلع بالمشرق.

وقيل: النوء: اسم للكوكب الذي يغرب، وقد أشار الحديث الشريف إلى بطلان هذه العقيدة بقوله: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته،

---

(١) سميت ثوابت، وإن كانت متحركة؛ لأنها ثابتة الأبعاد، لا يقرب أحدها من الآخر، ولا يبعد عنه، ولا تتغير عن جهاتها.

(٢) وقيل: النوء: اسم لسقوط النجم في المغرب مع الفجر، وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق.

فهو مؤمن بي، كافر بالكواكب».

ومما يروى عنهم في هذا الشأن: أنهم كانوا يكرهون نوء السماك، ويقولون: فيه داء الإبل، قال الشاعر:

ليت السماك ونوءه لم يخلقا ومشى الأفيرق في البلاد سليما

*** المجوسية في العرب:**

المجوسية قائمة على اعتقاد أن للعالم أصلين، هما: النور، والظلمة، وأهل هذه النحلة يعظمون النار بزعم أنها من أجناس الآلهة النورية. والمجوس فرق، وأشهر فرقهم: الزرادشتية: أصحاب زرادشت الذي ظهر في عهد كشتاسف، ودعا هذا الملك إلى دينه، فأجابه، وأصل عقيدة هؤلاء: أن النور والظلمة مبدأ العالم، وأن الله خلقهما وأبدعهما، وأن الخير والشر، والصلاح والفساد، حصلت من امتزاج النور بالظلمة، ولزرادشت كتاب يقولون: إنه صنفه، أو أنزل عليه، وهو «زندستا».

ومن أشهر فرقهم: «الثنوية»، وهم أصحاب القول بأن النور والظلمة اللذين هما مبدأ العالم في زعمهم أزليان قديمان.

ومنها: «المانوية»، وهم أصحاب ماني بن فاتك الذي ظهر في عهد شابور بن أزدشير، وقتله البهرام بن هرمز، وقتل الرؤساء من أصحابه[1].

---

(١) في أيام ماني ظهر اسم الزندقة، ذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بكتابه المعروف بالنسياه باللغة الأولى من الفارسية، وعمل له التفسير، وهو الزند، وعمل لهذا التفسير شرحاً هو البازند، فكان من عدل إلى التأويل الذي هو الزند، قالوا: هذا زندي، فأضافوه إلى التأويل؛ أي: إنه منحرف عن ظاهر التنزيل، فأخذ العرب هذا اللفظ من الفرس، وعربوه، فقالوا: «زنديق»، والزنادقة هم الثانوية، ثم ألحق بهم في =

ومنها: المزدكية، وهم أصحاب مزدك الذي ظهر أيام قبادو والد أنوشروان، ودعا قبادو إلى مذهبه، فأجابه، ولما تولى أنوشروان، اطلع على كذب مزدك هذا، فقتله. ومن مبادئ هذه النحلة: إباحة النساء والأموال، وجعلها شركة بين الناس.

وكانت المجوسية في نفر من تميم، منها: زرارة بن عدي، وابنه حاجب ابن زرارة، والأقرع بن حابس، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان.

وكانت المجوسية بالبحرين[1]، جاء في كتاب المنذر بن ساوى رئيس البحرين إلى رسول الله ﷺ: «قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إلي في ذلك أمرك»، فجاءه كتاب رسول الله ﷺ، وفيه: «من أقام على يهودية أو مجوسية، فعليه الجزية».

وكانت المجوسية في نفر من قريش. قال ابن قتيبة في كتاب «المعارف»: «وكانت الزندقة في قريش، أخذوها من الحيرة»، ومراده من الزندقة: المجوسية، والظاهر: أن العرب المجوس كانوا على مذهب الثانوية؛ لأن الثانوية هي المعروفة باسم الزندقة.

ومن أثر المجوسية في العرب: حلفهم بالنار، وتعاقدهم عليها؛ فقد ورد في عاداتهم: أنهم كانوا يوقدون ناراً عند التحالف.

= هذا الاسم سائر من اعتقدوا قدم العالم، وأنكروا حدوثه.

(١) ورد أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وهجر: بلد معروف بالبحرين، وأما هجر التي تنسب إليها القلال الهجرية، فهي قرية من قرى المدينة المنورة. «النهاية» لابن الأثير.

قال الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين»: وكانوا (أي: العرب) يتحالفون على النار، ويتعاقدون، ويأخذون العهد المؤكد، واليمين الغموس.

وقال في كتاب«الحيوان»: «كانوا لا يعقدون حلفهم إلا عند نار، فيذكرون عند ذلك منافعها، ويدعون الله بالحرمان والمنع من منافعها على الذي ينقض الحلف، ويخيس بالعهد».

وجاء في قصيدة الأعشى التي مدح بها المحلق ما يشير إلى أنهم كانوا يتحالفون على الرماد، وهو قوله:

رضيعَي لبانِ ثدي أُمٍّ تقاسما بأسحمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرق[1]

وأورد صاحب «العقد الفريد» هذا البيت، وقال: قوله «تقاسما بأسحم داج» يقول: تحالفا على الرماد، وهذا شيء تفعله الفرس؛ لئلا يتفرقوا أبداً.

ومن أثر المجوسية في العرب: زعمهم أن ابن المجوسي إذا كان من أخته، وخط على النملة[2]، تبرأ وتنصلح، قال بعض شعرائهم:

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر كريم وأنا لا نخط على النمل

يريد: أنا لسنا بمجوس ننكح الأخوات، وكانوا يكنُّون عن المجوسي

---

(١) قبل هذا البيت بيتان هما:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع تحرّقُ

تُشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّقُ

(٢) هي بثيرة تخرج في الجسد بالتهاب واحتراق، ويرم مكانها يسيراً، ويدب إلى موضع آخر كالنملة، وتطلق على قروح في الجنب كالنمل. «القاموس».

بقولهم: فلان يخط على النمل.

* **الدهرية في العرب:**

قص الله تعالى علينا أن قوماً من كفار العرب يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤]، وهذه الآية تدل على أن هؤلاء القوم ينكرون البعث، ويسندون الإهلاك ـ أي: الإماتة ـ إلى الدهر.

واختلف الكاتبون في التفسير والتاريخ في أن هؤلاء القوم يقرون بالخالق، أو يجحدون به، فقال بعضهم: إن هؤلاء القوم يعترفون بوجود الله تعالى، فهم غير الدهرية الذين يسندون الحوادث إلى الدهر، ولا يقولون بوجوده تعالى، وجرى على هذا المسعودي في «مروج الذهب»، فقال: ومن العرب من أقر بالخالق، وكذب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم، وأخبر عن كفرهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤].

ومن المفسرين من حمل هذه الآية على قوم ينكرون وجود الخالق، وهذا ما سلكه القرطبي في «تفسيره»؛ إذ قال في تفسير هذه الآية: وكان المشركون أصنافاً، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع، وينكر البعث، وجرى على هذا أبو البقاء في «كلياته»، فقال: والدهري ـ بالفتح ـ هو: الذي يقول: العالم موجود أزلاً وأبداً، لا صانع له، ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤].

ومن المفسرين من جعل الآية محتملة لأن تكون في قوم لا يعرفون الله، ولا يقرون به، وهم الدهرية، وأن تكون في قوم يقرون بالخالق، وينكرون البعث، وينسبون الآفات إلى الدهر؛ لجهلهم أنها مقدَّرة من الله. وجرى على

هذا أبو حيان في تفسيره «البحر».

وليس في الآية ما يدل على أن هؤلاء القوم يقرون بالإله، أو يجحدون به، فمن ذهب إلى أن موردها قوم لا يقرون بالإله، فلأن إضافة الحوادث إلى الدهر مقترنة بإنكار البعث، شأن الدهريين الذين ينكرون وجود الخالق ـ جل شأنه ـ.

ومن أثر اعتقادهم أن الحوادث من الدهر: كثرة شكواهم من الدهر، ويظهر هذا كثيراً في أشعارهم، قال أبو عبيد: ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب، حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه، وقد أراد النبي ﷺ أن يقطع هذا الأثر الناشئ عن أصل عقيدة فاسدة، فقال كما جاء في «صحيح البخاري»: «لا يقولون أحدكم: يا خيبة الدهر! فإن الله هو الدهر».

*** اليهودية في جزيرة العرب:**

لليهودية في جزيرة العرب على ما يقوله بعض الكاتبين في تاريخها طوران:

أولهما: كان لبطون من اليهود نزلوا بلاد العرب، وانتهى هذا الطور في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح[١].

ثانيهما: ابتدأ في القرن الأول والثاني بعد ميلاد المسيح[٢]؛ ذلك أن جموعاً كثيرة من اليهود هاجروا من فلسطين إلى البلاد العربية، ولهذه

---

(١) انقرض اليهود من الجزيرة لذلك العهد، ولم يبق فيما يقال إلا بعض آثار منازلهم.

(٢) انتهى هذا الطور بإجلاء عمر بن الخطاب ؓ لهم من الجزيرة.

الهجرة أسباب:

منها: نمو عدد اليهود في فلسطين حتى ضاقت بهم البلاد.

ومنها: أن الدولة الرومانية كانت قد استولت على فلسطين حوالي القرن الأول قبل ميلاد المسيح، وانهالت تضطهد اليهود، وتسومهم الخسف، فلجأ طوائف منهم إلى الهجرة، وقصدوا البلاد العربية؛ مما عرفوه من حياة البداوة العربية من الحرية، فقبلهم العرب، وعاملوهم بإحسان.

ومنها: أن بلاد العرب كثيرة الرمال، فيتعسر على الجيوش الرومانية وهي على شيء من النظام أن تقطعها، فنزل اليهود في شمال الحجاز بيثرب (المدينة المنورة)، وأرض خيبر[١]، ووادي القرى[٢]، وتيماء[٣]، واتخذوا الحصون والآطام[٤] على رؤوس الجبال.

ومن دخل في اليهودية من العرب طوائف من بني كنانة، وبني كندة، وبني نمير، وكانت هذه القبائل مجاورة لمواطن اليهود: يثرب، وأم القرى، وتيماء.

---

(١) على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام، وخيبر بلسان اليهود: الحصن، وقيل: سميت باسم رجل من العماليق، فنزلها، وفتحت سنة ٧ للهجرة، وقيل: سنة ٨.

(٢) واد بين المدينة والشام، وهو من أعمال المدينة، كثير القرى، فتحها النبي ﷺ سنة ٧. ثم صولحوا على الجزية بعد أن فرغ النبي ﷺ من خيبر.

(٣) بلد بين الشام ووادي القرى، لما بلغهم فتح أم القرى، بعثوا إلى النبي ﷺ، وصالحوه على الجزية، وأقاموا ببلادهم، وبقيت أرضهم بأيديهم.

(٤) جمع أطم: وهو القصر، ويطلق على الحصن المبني بالحجارة، وعلى كل بيت مربع.

وظهرت اليهودية في بلاد اليمن منذ عهد بعيد، ودخل فيها بعض ملوك حمير، فقامت دولة متهودة[1]، إلى أن جاء الجيش، فقوضوا أركانها، ولكن بقيت طوائف من اليهود مفرقين في البلاد. وسبق كتاب المنذر أمير البحرين إلى رسول الله ﷺ، وفيه يقول: «بأرضي مجوس ويهود، فأحدث إلي في ذلك أمراً».

وقال الجاحظ: «وجاء الإسلام، وليست اليهودية بغالبة على قبيلة إلا ما كان من ناس من اليمانية، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة، ومعظم اليهودية، إنما كان بيثرب، وحمير، وتيماء، ووادي القرى في ولد هارون، دون العرب»[2].

وفي أهل نجران الذين أجلاهم عمر بن الخطاب من الجزيرة يهود، ومما يقولونه في سبب ظهور اليهودية في اليمن: أن الدولة الرومانية بالشرق بعد أن انتهت من بسط سلطانها على الممالك المجاورة لجزيرة العرب، وجهوا أنظارهم على الاستيلاء على أطراف الجزيرة العربية، فأرسلوا وفوداً من الرهبان لنشر الديانة المسيحية بالجزيرة؛ تمهيداً لتنفيذ خطتهم السياسية الاستعمارية[3]، وتنبه ملوك حمير لهذه الغاية، فدخلوا في اليهودية، ودعوا

---

(١) قال بعض المؤرخين من المستشرقين: إن دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا في القرن الخامس بعد المسيح، واستشهد على هذا بقول الطبري: إن تبان أسعد ملك حمير وصاحب الدعوة اليهودية، كان في نهاية القرن الخامس.

(٢) «رسالة في الرد على النصارى».

(٣) هذه الحيلة يعمل بها الدول المسيحية اليوم، فيرسلون دعاة النصرانية إلى بلاد الإسلام؛ ليمهدوا لهم السبيل إلى احتلالها، أو ليعينوهم على تثبيت سلطانهم =

إليها؛ ليدافعوا بها النصرانية.

*** أثر اليهودية في العرب:**

روى جماعة من المحدثين؛ كأبي داود، والبيهقي، والحاكم عن ابن عباس: أنه قال: «كان هذا الحي من الأنصار، وهم أهل وثن، مع هذا الحي من اليهود، وهم أهل كتاب، كانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، وكانوا يقتدون بكثير من أفعالهم». ومن أثر اعتقادهم بفضل اليهود في العلم لذلك العهد: أنه كان من نساء الأوس والخزرج من إذا ولدت ولداً، تنذر إن عاش ولدها أن تهوده[1]. ويروى أن يهود يثرب علَّموا العرب الكتابة العربية[2].

ويرى أثر اليهودية في شعر العرب؛ كما قال لبيد يصف رجلاً قد غلبه النعاس:

يلمس الأحلاس[3] في منزله   بيديه فاليهودي المصل

ووجدت للعرب أشياء تقارب بأسمائها وصورها بعض ما عرف لليهود، فعدها بعض الكاتبين من تأثير اليهودية؛ مثل: «النسيء» الذي كان يقوم به

= عليها، وليست البهائية والقاديانية إلا فرقتين غير إسلاميتين تعملان تحت اسم الإسلام؛ لتمكين بعض الدول المسيحية من احتلال البلاد الإسلامية، أو مساعدتهم على تثبيت قدم الاحتلال.

(١) «الروض الأنف» للسهيلي.

(٢) «فتوح الإسلام» للبلاذري.

(٣) الأحلاس: جمع حلس، وهو الكساء الذي يكون على ظهر البعير تحت البرذعة. ويبسط في البيت تحت حر الثياب.

أفراد اتخذهم العرب رؤساء فيه[1]، وهو أنهم إذا فرغوا من الحج، اجتمعوا إلى هذا الرئيس، فحرم الأشهر الحرم: رجباً، وذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم، فإذا احتاجوا إلى شن الغارة وطلب الثارات، أخر شهر المحرم إلى صفر، وإن احتاجوا إلى ذلك في صفر، أخروه، وحرموا ربيعاً الأول، وهذا ما نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[التوبة: ٣٧]؛ لأنه تحريم ما أحل الله، ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾[التوبة: ٣٧]؛ أي: الشهر المؤخر ﴿عَامًا﴾[التوبة: ٣٧]، ويحرمون مكانه شهراً آخر، ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾[التوبة: ٣٧]؛ أي: يحافظون على حرمته ﴿عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾[التوبة: ٣٧]: ليوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[التوبة: ٣٧] من الأشهر الأربعة[2].

وقد قال بعض الإفرنج: إن النسيء الذي كان عند العرب في الجاهلية مأخوذ من اليهود، فإن الناسئ في اللغة العبرية معناه: الرئيس الديني، وكذلك كان الرئيس الديني عند اليهود يؤخر ويقدم الشهور، ويعين مواعيد الأعياد والصيام، ويبعث بذلك إلى طوائف اليهود المختلفة.

ونحن نستبعد أن يكون النسيء مأخوذاً عن اليهود ما دام لفظه مشتقاً من مادة عربية له تصرفات تدور حول معنى التأخير[3].

---

(١) آخرهم عوف بن أمية.

(٢) ويقع النسيء على وجه آخر، هو أنهم يؤخرون الحج عن وقته تحرياً منهم للسنة الشمسية، فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً أو أكثر قليلاً، حتى يمر ثلاث وثلاثون سنة، فيعود الحج إلى وقته، وهذا معنى قوله ﷺ في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض». فكانت حجة الوداع في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته.

(٣) يقال: نسأه ونسأه إلى آخره. وبعته بنسيئته؛ أي: بآخرة، واستنسأه: سأله أن =

ومما ظنه بعضهم من أثر اليهودية في العرب: كلمة «صوفة»، ذلك أن هذا اللفظ في العبرية معناه: الحادي، والعرب يطلقونه على قوم يندفعون بالناس من عرفة، ويؤمونهم في رمي الجمار، وكان آخرهم عند ظهور الإسلام كرب بن صفوان، والكتب العربية تذكر في تسميتهم صوفة وجوهاً، منها: ما ذكره صاحب «القاموس» من أنه اسم لأبيهم الغوث بن مرة، وقال أبو عبيدة: سموا بذلك؛ لأنهم بمنزلة الصوف: فيهم القصير والطويل، والأسود والأحمر، ليسوا من قبيلة واحدة. وقيل: لأن أم الغوث نذرت لئن عاش، لتعلقن برأسه صوفة، وتجعله خادماً للكعبة.

وزعم بعضهم: أن الختان أخذه العرب من اليهود، ونحن نرد هذا بأن الختان من سنة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما ورد في «صحيح البخاري»: «اختتن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو ابن ثمانين سنة».

وزعم أحد دعاة النصرانية[1]: أن ما عرف عند العرب من أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ أبو العرب إنما جاءهم من اليهود، قالوا لهم ذلك؛ ليتقربوا إليهم بدعوى أنهم أبناء إسماعيل، وأن اليهود أبناء إسحاق، وجد الجميع إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وقد أخذ هذا الزعم صاحب كتاب «في الشعر الجاهلي»، وأنكر أن يكون إبراهيم ـ عليه السلام ـ دخل بلاد العرب. ونحن نؤمن بما جاء في القرآن الكريم، والحديث الصحيح. وليس في يد ذلك الداعية النصراني، ولا صاحب كتاب «في الشعر الجاهلي» رواية تقف في

= يؤخر دَينه، ونسئت المرأة: تأخر حيضها.

(١) «ذيل مقال في الإسلام» لنصراني سمى نفسه: هاشماً العربي.

وجه ما ورد في القرآن أو الحديث[١].

ومن أسباب قلة انتشار اليهودية في العرب: أن «اليهودية هي خلاصة القانون التلمودي[٢]، وهذا القانون الذي نشأ في بيئة معينة، وفي مدة معينة، والذي استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة، قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التي طرأت على اليهود، وقد نجم عن ذلك: أن الذين أرادوا أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة، دون أن يخضعوا للناموس التلمودي، لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية»[٣]. ثم قال: «وتأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية، وأخذوا يخضعون لبعض الأصول الجوهرية من التوراة، دون أن ينقادوا للبعض الآخر، فلم ترض منهم اليهودية ذلك، ولم تقربهم إلى الله، بل لم تفرق بينهم وبين بقية عبدة الأصنام؛ لأنهم لم يقبلوا التمسك بالسبت، ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود».

* النصرانية في العرب:

كانت النصرانية في غسان، وبعض قضاعة، وأتت هؤلاء النصرانية من جهة الروم؛ فقد كانت منازلهم قريبة منها، وكانت في قبائل بالحيرة، يقال لها: العباد، منها: عدي بن حاتم، وكانت في بني تغلب، ومنازلهم بالعراق، ودخل في النصرانية بعض ملوك الحيرة. قيل: كان تنصرهم في

---

(١) انظر: «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» للإمام محمد الخضر حسين في الرد على الدكتور طه حسين.

(٢) التلمود: تفسير المشناة، والمشناة تفسير التوراة. والمتمسكون بالتلمود يقال لهم: ربانيون. أما القراءون، فيتمسكون بالتوراة، ولا يأخذون بالتلمود. ويوجد منهم طائفة في الآستانة، وطائفة في مصر.

(٣) «تاريخ اليهود في بلاد العرب» للدكتور إسرائيل ولفنسون.

عهد امرئ القيس الأول في أوائل القرن الرابع بعد المسيح. وقيل: إن أول من تنصر: النعمان بن المنذر على يد عدي بن زيد، وكان النعمان في أواخر القرن السادس بعد ميلاد المسيح.

وكان أهل نجران في بلاد اليمن نصارى، وهم: بنو الحارث بن كعب ابن مذحج، وجاءتهم النصرانية من جهة الحبشة، ومن جهة الروم؛ فقد ذكر بعض المؤرخين: أن ملوك الدولة الرومانية لما أرادوا ضم أطراف الجزيرة العربية إلى ممالكهم، أرسلوا وفود الرهبان إلى بلاد اليمن لبث الديانة المسيحية.

ومن المعروف في السيرة: أن وفد نجران قدموا على رسول الله ﷺ، وكانوا من نصارى العرب، وهم الذين نزلت فيهم آية المباهلة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[آل عمران: ٦١]. وأبوا أن يباهلوا، وصالحوا على الجزية، وعادوا إلى بلادهم.

قال الجاحظ: «إن العرب كانت النصرانية فيها فاشية، وعليها غالبة، إلا مضر، فلم يغلب عليها يهودية ولا مجوسية، ولم تفش فيها النصرانية، إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون: العباد؛ فإنهم نصارى، وهم مغمورون مع نبذ يسير في بعض، ولم تعرف مضر إلا دين العرب، ثم الإسلام».

وزعم بعض المسيحيين(١): أن الأوس والخزرج كانوا نصارى، واستدل

---

(١) لويزشيخو.

بقول حسان:

فرحت نصارى يثرب ويهودها مما توارى في الضريح الملحد

وهذا البيت لا يوجد في قصيدة حسان برواية ابن هشام في «السيرة»، ولا يوجد في «ديوانه» الذي كتب عليه البرقوقي تعليقاً[١].

ومن المعروف أن ورقة بن نوفل عم خديجة ـ رضي الله عنها ـ كان على دين النصرانية، وهو قرشي، وجاء في السيرة: أن النبي ﷺ لقي في طريقه إلى الطائف عداساً النصراني، فآمن به[٢]. ووجود فرد أو أفراد معدودين في القبيلة على دين النصرانية لا يدل على انتشار هذا الدين بينهم.

وجاء في بعض الآثار: أن صورة عيسى ومريم ـ عليهما السلام ـ كانت في جملة صورة الأنبياء بالكعبة، وأن النبي ﷺ أمر يوم فتح مكة بمحو جميع الصور، إلا صورة عيسى وأمه[٣]، واستدل بهذا بعض المسلمين على أن الديانة النصرانية كانت بمكة. ونحن نقول: إن إبقاء النبي ﷺ لهذه الصورة غير معقول، ولا يظهر له وجه، وفي «صحيح البخاري»: أن رسول الله ﷺ أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال: «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قط»، فهذا الأثر الذي ورد في «تاريخ الأزرقي» باطل قطعاً؛ فإن بقاء الصورة في المسجد منكر، والنبي ﷺ لا يقر منكراً.

---

(١) نسب هذا البيت لديوان حسان في طبعة ليدن.

(٢) «زاد المعاد».

(٣) «تاريخ مكة» للأزرقي.

ومن أثر النصرانية: ما ظهر في شعر؛ كقول امرئ القيس يصف كلاب الصيد وقد أدركت فرسه:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا[١] كما شبرق[٢] الولدان ثوب المقدس[٣]

يشير إلى ما كان ولدان النصارى يفعلونه بالراهب الذي يقدم من بيت المقدس؛ إذ يأخذون من مسحه[٤]، وهو لابسه، خيوطاً للتبرك بها.

ومن هذا الباب قول امرئ القيس يصف بقر الوحش:

فآنست سرباً من بعيد مكانه رواهب عيد في ملاء مهدب[٥]

يشير إلى ما كانت الراهبات يلبسنه في الأعياد من الملاء والأنسجة الطويلة الأذيال.

ومما ظهر منه عادة إيقادهم المشاعل في عيد الفصح قول أوس بن حجر:

عليه كمصباح العزيز يشبه بفصح ويحشوه الذبال المفتلا

وصف أوس في هذا البيت رمحه، وشبه سنانه بالمصباح يوقده رئيس النصارى في عيد الفصح[٦].

---

(١) عرق من الورك إلى الكعب.

(٢) شبرق: مزق.

(٣) من قدس الرجل؛ أي: أتى بيت المقدس.

(٤) المسح: ثوب الراهب.

(٥) الملاء ـ بالضم ـ: ثياب، واحدة ملاءة. والمهدَّب: ذو أهداب؛ أي: خمل.

(٦) الفصح الكبير للنصارى يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام =

وأشار حسان في قصيدة له في الجاهلية إلى ما كان يصنعه ولائد النصارى من نظم الأكلة في عيد الفصح بقوله:

قد دنا الفصح والولائد[١] ينظمـــ ـــنَ ســراعاً أكلّــة[٢] المرجــان

* **الموحدون من العرب:**

في العرب أفراد كانوا قبل البعثة على عقيدة التوحيد:

منهم: زيد[٣] بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، فقد اعتزل الأوثان، واجتنب أكل ما يذبح على الأنصاب. روى البخاري في «الجامع الصحيح»: أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح[٤] قبل أن يُنْزَلَ على رسول الله ﷺ الوحيُ، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة لحم، فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه[٥].

ومنهم: أبو قيس صرمة بن أبي أنس صرمة بن مالك من بني النجار، كان ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، وهمَّ بالنصرانية،

= ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء: ١٥٧].

(١) جمع وليدة، وهي الصبية.

(٢) جمع إكليل، وهو عصابة تزين بالجواهر.

(٣) هو ابن عم عمر بن الخطاب بن نفيل، وهو أبو سعيد بن زيد أحد المبشرين بالجنة.

(٤) واد بظاهر مكة في طريق التنعيم.

(٥) لم يرد في الحديث أن النبي ﷺ أكل من هذه السفرة، وقال الخطابي: كان النبي ﷺ لا يأكل مما يذبحون على النصب للأصنام. ويأكل ما عدا ذلك، وإن لم يذكر اسم الله؛ لأن الشرع لم يكن نزل بعد.

ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له، فاتخذه مسجداً، وقال: أعبد رب إبراهيم، حتى قدم النبي ﷺ، فأسلم، وحسن إسلامه[1]، أورد له ابن هشام أشعاراً في تعظيم الله تعالى، قالها في عهد الجاهلية.

ومنهم: قُس بن ساعدة الإيادي، نجد خبره في بعض كتب التاريخ والأدب. روى بعض المحدثين عن ابن عباس: أنه قال: قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، فقال: «أيكم يعرف القس بن ساعدة الإيادي؟»، فقالوا: كلنا يا رسول الله نعرفه، قال: «ما فعل؟»، قالوا: هلك، قال: «ما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام، وهو على جمل أحمر، وهو يخطب الناس وهو يقول: يا أيها الناس! اجتمعوا واسمعوا، وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار تغور.

أقسم قس بالله قسماً حقاً، لئن كان في الأرض رضا، ليكونن بعده سخط. إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟». ثم قال رسول الله ﷺ: «أفيكم من يروي شعره؟»، فأنشده بعضهم:

فـي الـذاهبين الأولـين ... مـن القـرون لنـا بـصائر

لمـا رأيـت مـوارداً ... للمـوت لـيس لهـا مـصادر

لا يرجـع الماضـي إليـ ... ـك ولا مـن البـاقين غـابر

أيقنـت أنـي لامحـا ... لـة حيـث صـار القـوم صـائر

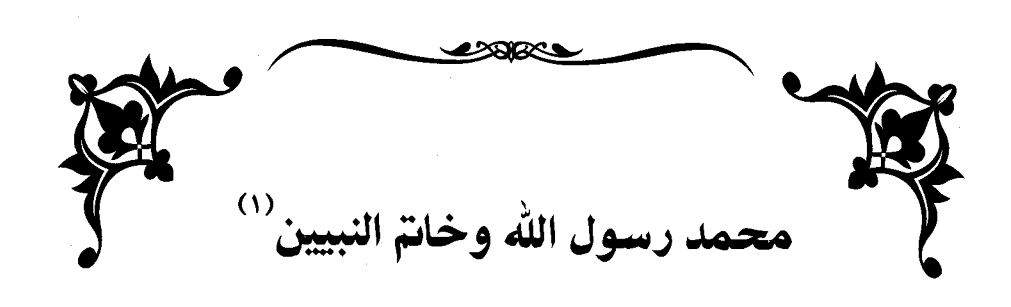
---

(١) «سيرة ابن هشام»، و«مروج الذهب».

وروى هذا الحديث الطبراني، والبزار، وفي إسناده محمد بن الحجاج اللخمي، وهو ممن لا يوثق بخبره، بل يعده النقاد في جملة الكذابين. وروى هذا الخبر ابن سيد الناس في «سيرته» على وجه يخالف روايته السابقة؛ إذ جاء في روايته: أن النبي ﷺ قال: «فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق، وهو يتكلم بكلام ما أظن أني أحفظه»، فقال أبو بكر: يا رسول الله! فإني أحفظه، كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ، فقال في خطبته: أيها الناس... إلخ الخطبة، والأبيات. على أن في سند هذه الرواية من يتهم بوضع الأحاديث؛ كما قال ابن كثير. فخبر قس هذا ورد من طرق كلها ضعيفة، وقصارى ما يؤخذ منها: أن أصل القصة ثابت، وأن قساً كان على شيء من التوحيد.

ويذكر المؤرخون من الموحدين: خالد بن سنان العبسي، وقد وردت آثار تتضمن أنه كان نبياً، وأن ابنه أو ابنته جاءت إلى النبي ﷺ، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «ذاك نبي ضيعه أهله». وهذه الروايات كلها ضعيفة، لم تقم على سند يعتد به، ومما يساعد على ردها: قوله ﷺ فيما رواه سعيد بن جبير مرسلاً: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، وليس بيني وبينه نبي».

وأذكر بهذه المناسبة أن ببلاد الجزائر قبراً عليه بناء يقال: إنه قبر خالد ابن سنان، ويجتمع الناس لزيارته في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان، وشهدت الاجتماع به في بعض السنين، ورأيت هنالك بدعاً تقام حول القبر، وعسى أن يكون أهل العلم قد قاوموها، وليس لهم من أثر على أن هذا قبر خالد بن سنان سوى ما شاع هناك من أن بعض الصالحين أخبر بذلك.



محمد رسول الله وخاتم النبيين(١)

*** حال العرب قبل مبعثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ:**

كان العرب قبل البعثة المحمدية في ظلمات من العقائد الزائغة، والمزاعم الساقطة، والعادات المستهجنة، والأعمال المنكرة.

أما زيغ العقائد، فقد كانوا على ملل ونحل حائدة عن السبيل ـ منهم: الدهرية الذين لا يؤمنون بإله يدبر العالم، وينكرون البعث والحساب فما بعدهما. ومنهم «الثنوية»: الذين يقولون بإلهية النور والظلمة، ومنهم: عبدة الأصنام، وعباد القمر، وعبّاد الشمس، وعبّاد الكواكب؛ كالثريا، والشعرى، والدبران، وعبّاد النار، وعبّاد الملائكة، وعبّاد الجن، ومنهم: الصابئة، الذين يعظمون الكواكب، ويعتقدون أن لها أثراً في الحوادث الكونية. وكانت اليهودية في قوم، والنصرانية في آخرين، وقد طرأ على هاتين الديانتين تحريف بعد بهما عن الصراط المستقيم.

وأما المزاعم الساقطة، فإنهم كانوا يتعلقون بخيالات وآراء مزرية؛

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن السابع والثامن من المجلد الثاني والعشرين، رجب وشعبان ١٣٦٩ ـ والأجزاء من التاسع إلى الثاني عشر من رمضان إلى ذي الحجة ١٣٦٩. وطبعت في رسالة مستقلة لأول مرة سنة ١٩٣٣م، ثم أعيد طبعها مرات.

كالاستقسام بالأزلام، والتشاؤم بكثير من الأشياء، وتعليق عظام الموتى على من يريدون وقايتهم من تعرض الأرواح الخبيثة.

وأما العادات المستهجنة، والأعمال المنكرة، فكطوافهم بالبيت عراة، ودسهم البنات في التراب وهن أحياء، وتعاطي الميسر والخمور، وارتكاب الفاحشة، وسفك الدماء بغير حق.

ولكن كان لهم مع هذا الجهل والضلال مزايا ومفاخر لا يستهان بها؛ كالكرم، والشجاعة، وإباء الضيم، والوفاء بالعهد، والطموح إلى العزة. وإذا أضفت إلى هذا بلاغة القول، وحسن البيان، بدا لك جانب من حكمة اختيار الله تعالى لأن يكون العرب أول من ينهض لنصرة هذا الدين العام، وإبلاغه إلى غيرهم من الأمم.

وفي هذه البيئة البعيدة من العلم والرشد ولد سيدنا محمد ﷺ، وشب على أكمل خلق، وأقوم سبيل.

*** نشأته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسيرته الطاهرة قبل البعثة:**

سبق في مشيئة الله تعالى أن يكون رسوله إلى الناس كافة هو سيدنا محمد ﷺ، فتولاه منذ ولد برعايته، وجعل العصمة غدوته وروحته، فكانت صحيفة حياته منذ ولد إلى أن توفي متلألئة تلألؤ القمر الزاهر في سماء مصحية.

ولد ﷺ في أشرف بيوت العرب نسباً، وأرفعها حسباً، وهو بيت هاشم ابن عبد مناف. وشبَّ على توحيد الله تعالى، والتحلي بمكارم الأخلاق؛ من نحو: العفاف، والأمانة، والصدق، وكبر الهمة، والصبر على الشدائد، والوفاء بالعهد. وقد وصفته خديجة ـ رضي الله عنها ـ حين رجع إليها يرجف

فؤاده مما فاجأه به ملك الوحي لأول مرة، فقالت له:

«كلا والله! ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث».

فقد ساقت في هذا الخطاب جملة من الخصال التي كان ﷺ متحلياً بها قبل البعثة، فنبهت على أنه كان يحسـن إلى الأقارب وغير الأقارب، ويقوم بحق الضيف، ويعين على نوائب الحق، وهذه كلمة جامعة تتناول كل ما تكون به الإعانة على النوائب؛ من نحو: المال والبدن والجاه. وفي قولها: «تصدق الحديث» شاهد على أنه كان يتحرى الصدق في جميع أحواله، وأنه لم يكن ينطق حتى قبل النبوة إلا بما هو حق.

وانظروا في حديث هرقل ملك الروم، إذ كان يسأل أبا سفيان عن حال النبي ﷺ، وأبو سفيان لم يزل على جاهليته؛ قال هرقل لأبي سفيان:

«فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟»، فقال أبو سفيان: «لا». فدل هذا الجواب الصادر من أشد الناس عداوة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقت السؤال على أنه ﷺ معروف عند قومه بصدق اللهجة. وقد أخذ هرقل من هذا الجواب شاهداً على صدقه في دعوى الوحي، وقال: «فقد أعرف أنه لم يكن ليذرَ الكذب على الناس ويكذب على الله»[1].

وما زال ﷺ محفوفاً بالرعاية والعصمة، حتى رفعه الله تعالى إلى مقام الرسالة العظمى، ونزل عليه الروح الأمين بالقرآن الحكيم.

---

(١) «صحيح الإمام البخاري».

*** دلائل نبوته:**

الكلام في دلائل نبوة المصطفى ﷺ خوض في بحر لا يصل فيه الكاتب إلى شاطئ، فليس في استطاعتي استيعابها، ولا الإلمام بمعظمها. وغاية ما يسعني في هذا المقام: أن أسوق منها طائفة إذا اتصلت بعقول سليمة، لم يأخذها ريب في أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسول رب العالمين.

لدلائل نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أصول، هي: القرآن الكريم، ثم بشارات الأنبياء والرسل به من قبل ظهوره، ثم سيرته التي لا تقاس بكمال بسيرة، ثم ما جرى في حضرته من المعجزات المحسوسة.

*** القرآن الكريم:**

نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ يحمل حقائق صادقة، ومعجزة باهرة.

أما الحقائق، فهي ما أرشد إليه من العقائد السليمة، والآداب النبيلة، والأحكام العادلة، والموعظة البالغة.

وأما المعجزة، فهي ارتفاعه في حكمة المعاني، وسمو المقاصد، وفصاحة الكلم، وجودة النظم، وروعة الأسلوب، إلى مرتبة يقف دونها فطاحل البلغاء بمراحل.

ومن المعروف أن معجزات الأنبياء تجيء مناسبة لحال أقوامهم؛ ففي زمن موسى ـ عليه السلام ـ كانت الغلبة للسحر، فكانت معجزته قلب العصا ثعباناً، وذلك ما يعجز عنه كل سحّار عليم، وفي زمن عيسى ـ عليه السلام ـ كان التنافس في الطب، فجاء بما لا يصل إليه الأطباء، وهو: إحياء الموتى. وفي زمن خاتم النبيين ﷺ كان التفاخر بالبلاغة وحسن البيان، فجاء بما أعجز كل خطيب مصقع، وشاعر مفلق، وهو القرآن الكريم.

والحقيقة أن دلالة القرآن على صدق من جاء به لا تقف في ناحية واحدة، بل القرآن يدل على صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ من وجوه مختلفة، فمن هذه الوجوه: بلوغه في حسن البيان منزلة يحسها البلغاء بعقولهم وأذواقهم، ولا تنالها ألسنتهم ولا أقلامهم.

يشهد لك ببلوغه مرتبة الإعجاز: ذوقك السليم، وبصيرتك النقية، ويؤيد هذه الشهادة: أن الله تعالى قد تحدى به العرب على لسان نبيه ﷺ، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣]. تحداهم بالقرآن، ونادى عليهم بالعجز عن أن يأتوا بسورة من مثله، ولم يستطع أحد منهم، وهم المجلون في حلبة البلاغة، أن يتصدى لمعارضته، ولو بمقدار سورة، بل جنحوا إلى مقابلته بالسخف من القول، ووصفه بأنه أساطير الأولين. ولما عرفوا أنه يمتلك ببلاغته النفوس، ويستولي بحكمته على القلوب، لم يكن منهم إلا أن حاولوا صرف الناس عن سماعه، وكانوا يقولون لأوليائهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت: ٢٦].

ومن مزايا القرآن: أنه لا يتناول فناً من فنون الكلام إلا أتى باللفظ الرائع، والأسلوب الفائق، وقصارى الواحد من بلغاء البشر أن يبرع في بعض فنون القول، وإذا وجه قريحته إلى فن آخر، أدركه الضعف، ولم يتجاوز فيه المنزلة المتوسطة أو السفلى.

وإذا حققت النظر في حال الخطباء والشعراء الذين يصبح كل واحد منهم علماً في الفصاحة والبلاغة يشار إليه بالبنان، لم تجد منزلتهم بعيدة من

منازل البارعين من غيرهم بعداً يبلغ بها حد الإعجاز؛ كالبعد ما بين منزلة القرآن ومنازل غيره من منثور الخطباء، ومنظوم الشعراء.

ومن وجوه دلالة القرآن على صدق النبوة المحمدية: أنه أخبر عن أمور من قَبيل الغيب، ووقعت كما أخبر. ومن المعروف في هذا القبيل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[الروم: ١ ـ ٥].

وبيان هذا: أن حرباً كانت قد وقعت بين الفرس والروم، وكانت عاقبة الفوز للفرس، وكان قريش يتشيعون للفرس؛ لأنهم لا يدينون بكتاب، والمسلمون يودون انتصار الروم؛ لأنهم أهل كتاب، فنزلت الآية مخبرة أن الروم سيغلِبون الفرس في بضع سنين، والبضع في لغة العرب يستعمل في التسع فما دون. وقد وقع ما أخبر به القرآن، فعاد الروم والفرس إلى الحرب لسبع سنين من الحرب الأولى، وكان الظفر للروم. ويروى أن انتصار الروم على الفرس في هذه الحرب كان سبباً لإسلام كثير من الناس؛ لوقوعه كما أخبر القرآن.

ومن الآيات المنبئة عن أمر مستقبل: قوله تعالى خطاباً لنبيه الكريم: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[المائدة: ٦٧]؛ فقد كان أعداؤه ﷺ من المشركين وغيرهم حريصين على قتله، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخرج لكل من يريد لقاءه، ويجلس مع كل من يبغي الجلوس معه، ولا تنس أن حوله منافقين يحملون له أشد البغضاء، ويتصلون به اتصال الأصحاب والأقرباء، ومع كثرة أعدائه، وتهالكهم على الكيد له، ومع ظهوره للناس في أي وقت شاؤوا، ومشيه

في الطريق والأسواق وحده، أو مع من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، لم تمتد إليه يد بسوء، ولم يمت إلا على فراشه، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[المائدة: ٦٧].

ومن وجوه دلالة القرآن على صدق الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ورود معانيه كلها على الوجوه المعقولة، وعدم مخالفتها للعلوم الصحيحة، وإنما كان محمد ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجتمع بذي علم أو فلسفة، فلو لم يكن القرآن من الله حقاً، لوجد في كثير من آياته ما تنكره العقول السليمة، ووجد في كثير من آياته ما يخالف الآراء المسلَّمة أو الراجحة، شأن ما يتكلم به غيره من البشر، وإن لم يكن أمياً. بل ظهر في كثير من آياته معان لم تنكشف لأهل العلم إلا منذ عهد قريب.

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يس: ٣٦]؛ فقد كشف العلم الحديث أن في كل نبات ذكراً وأنثى.

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر: ٢٢]؛ فقد ثبت في علم النبات أن الرياح تنقل اللقاح إلى عضو التأنيث من النبات.

واعتبر في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة: ٣ ـ ٤]؛ فالآية مسوقة للرد على من أنكر جمع العظام بعد بلاها وتفرقها، على معنى إنكار إعادة الشخص بعينه. ووجه تخصيص البنان بالذكر مطابق لما أثبته العلم من أن لبنان كل إنسان هيئة خاصة لا تماثلها هيئة بنان إنسان آخر من كل وجه.

ومن نظر إلى أن محمداً ﷺ نشأ في أمية، ثم أمعن النظر في قوة أدلة

القرآن، وقيام حججه على قانون المنطق الصحيح، لم يترتب في أنه تنزيل من حكيم حميد، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]؛ فإنك ترى في الآية حجة قائمة على أن الله واحد، وأن الإلهية تقتضي الاستقلال بالتصرف في الكون، تغييراً وتبديلاً، وإيجاداً وإعداماً.

فجميع حجج القرآن واردة على قانون المنطق السليم.

قال بعض فلاسفة الإسلام: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي غليلاً، ولا تبرئ عليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن».

ولتعدد نواحي دلالة القرآن على صدق النبي ﷺ كانت تلاوته تجمع بين الدعوى والحجة. وكثير من الداخلين في الإسلام بإخلاص لم يشهدوا من آيات النبوة أكثر من أنهم سمعوا سورة، أو آيات من القرآن، فرأوا الدعوة مقرونة بالحجة، فعرفوا أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولامتلاء القرآن بآيات صدق الدعوة المحمدية أنكر الله تعالى على من يقترحون على رسوله الآيات البينات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت: ٥١].

*** بشارات الأنبياء والرسل به قبل مجيئه:**

إن رسولاً عظيماً كمحمد ﷺ ـ في عموم بعثه، وخلود دينه وشريعته ـ جدير بأن يعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بمبعثه رسله وأنبياءه ـ عليهم السلام ـ، ويصفه لهم ببعض نعوته وعلاماته، ويعهد إليهم بأن يبشروا أقوامهم بظهوره،

ويوصوهم بقبول دعوته وحسن طاعته.

وكذلك جاء في القرآن الكريم: أن أهل الكتاب يجدون النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[الأعراف: ١٥٧]. فهذه الآية صريحة في أن المصطفى ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل. والمراد بكتابته فيهما: ذكر مبعثه ودعوته وشيء من نعوته، وهذا المعنى موجود في الكتابين يقيناً، فقد نزلت الآية على مسمع من علماء الأمتين: اليهودية والنصرانية، فمنهم من يؤمن به ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويخبر بما في كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته، ومنهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر في الكتابين رسول بهذه النعوت والعلامات، ولكنه يكابر في أن المراد منه المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ، ويقول: المقصود منه نبي آخر. وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٤٦].

وقد تصدى لجمع هذه البشائر من كتابي التوراة والإنجيل طائفة من أهل البحث والعلم، وبينوا وجه انطباقها على حال النبي ﷺ؛ بحيث لا تأخذ الناظر شبهة في أنه الرسول الذي بشرت الأنبياء بمبعثه وعموم رسالته.

ومن هذه البشائر الباقية في التوراة والإنجيل إلى هذا العهد: ما جاء في سفر التثنية من التوراة: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به».

والنبي المماثل لموسى ـ عليه السلام ـ في الرسالة العظيمة والشريعة المستأنفة، هو سيدنا محمد ﷺ، وإخوة بني إسرائيل هم العرب؛ لأنهم

يجتمعان في إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ولو كان النبي الموعود من بني إسرائيل، لقال: من أنفسهم. وقوله: «وأجعل كلامي في فمه» يوافق حال النبي ﷺ من الأمية وعدم تعاطي الكتابة.

هذه بشارة نذكرها على وجه المثل. وإن شئت الزيادة، فارجع إلى الكتب التي عنيت بجلب نصوص تلك البشائر، وبيان أنها لا تنطبق إلا على حال محمد ﷺ؛ ككتاب «هداية الحيارى» لابن القيم، وكتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي.

ولشدة موقع هذه البشارات في الدلالة على صدق نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكرها القرآن الكريم في دلائل النبوة، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء: ١٩٧].

وإنما كان علم علماء بني إسرائيل من آيات صدقه؛ لأنهم يستندون في هذا العلم إلى ما في التوراة من نعوته وعلاماته، مع القطع بأن هذه النعوت والعلامات مطابقة لحاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

* سيرته:

من نظر في سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وجدها من أعظم الدلائل على أن بين جنبيه نفساً بالغة من الكمال ما لا يبلغه الإنسان الذي يطلب المعالي بنفسه، ولو بلغ من العبقرية ما بلغ، ولقن من الحكمة ما شاء أن يلقن.

وأوجز الحديث عنها في هذا الفصل فأقول:

طالعْ كتب التاريخ، عربية وغير عربية، وأمعن النظر في أحوال عظماء الرجال من مبدأ الخليقة إلى هذا اليوم، فإنك لا تستطيع أن تضع يدك على اسم رجل من أولئك العظماء، وتقص علينا سيرته ومزاياه، وأعماله الجليلة

حديثاً يضاهي أو يداني ما نحدثك به عن هذا الرسول العظيم.

سنحدثك عن خلقه وآدابه، ومثابرته على عبادة الله آناء الليل وأطراف النهار في فصل يأتيك بعد، وضم إلى هذا: أنه قضى نحو عشر سنين في مناهضة خصومه من مشركي قريش وغيرهم، ولم تشغله تلك المناهضة المستمرة وما تستدعيه من تدبير، ولا إقباله على العبادة بمجامع قلبه، أن يتلقى عنه الناس أحكام الوقائع في العبادات والمعاملات والجنايات.

وأضف إلى هذا: نظره في طرق سياسة الأقوام الداخلين تحت لوائه، وفي فصل ما ينشب بينهم من خصومات، وضع بجانب هذا: ما كان ينطق به من الحكم الرائعة، والمواعظ البالغة. واعتبر بعد هذا فيما وهبه الله تعالى من بيان يسترعي الأسماع، ويأخذ بالألباب، فإنك إن تدبرت هذا الذي أومأنا إليه، ورجعت في الوقوف على ما يفصله إلى الروايات الصحيحة، لم تتردد في أن تأييد الله تعالى هو الذي رفع صروح هذه السيرة، وجعلها حافلة بتلك المحامد والمفاخر التي تنقطع دونها كل سيرة.

*** المعجزات المحسوسة:**

جرت على يده ﷺ خوارق عادات شهدها الناس الذين أدركوا عهد البعثة، ورويت لنا بأسانيد ثابتة تتصل بأمة كبيرة من الصحابة ﷺ، ويرويها عن الصحابة جماعة من أهل العلم والتقوى حتى تصل إلى أئمة أمثال: مالك ابن أنس، وأحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم.

ومن هذه المعجزات ما يبلغ في روايته مبلغ التواتر، ومعظمها ورد بطريق خبر الآحاد، ومجموع أحاديثها يفيد العلم القاطع بأن هذا النوع من الآيات قد جرى على يده ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولم يعتن الصحابة أو

التابعون برواياتها الاعتناء الذي يرفع كل واحد منها إلى مرتبة التواتر المفيد للقطع؛ لعلمهم أن في القرآن الكريم، وحكمة الشريعة، والسيرة النبوية آياتٍ بينات، ودلائل تكفي الناظر، فلا يحتاج إلى غيرها من الآيات التي كانت قد وقعت وشهدها قوم آخرون.

ويدخل في هذا الباب: إخباره ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأمور غيبية واقعة؛ كنعيه للنجاشي يوم موته، وقوله للصحابة: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»[1]، وإخباره عن أمور مستقبلة؛ كقوله لعدي بن حاتم: «إن طالت بك الحياة، لترين الظعينة ترحل من الحيرة[2] حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله»، وقوله له: «لئن طالت بك حياة، لتفتحن كنوز كسرى»، قال عدي: قلت: كسرى هرمز؟! قال: «كسرى هرمز»، قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى[3].

وهذا النوع من المعجزات قد ينفع في هداية الذين يؤخذون بالدلائل المحسوسة أكثر مما يؤخذون بالدلائل المعقولة. وقد يجري بمحضر المؤمنين؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، أو يجري حيث يكون في المعجزة دفع حاجة لا تدفع إلا بها؛ كتكثير المال القليل في بعض الغزوات ليكفي حاجات الجماعات الكثيرة.

---

(١) «صحيح الإمام البخاري».

(٢) بلد بجنب الكوفة.

(٣) «صحيح الإمام البخاري».

*** عموم بعثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ:**

كان العالم قبل البعثة المحمدية في ظلمات من الزيغ عن الحق، والجهل بطريق السعادة، يستوي في هذه الظلمات الأمة العربية وغير العربية. وقد قصصنا عليك من حال الأمة العربية ما قصصناه آنفاً. وأما الأمم غير العربية، فمنها من كانوا على المجوسية؛ كالفرس، والبربر، ومنها من كانوا على البراهمية، أو البوذية؛ كالهنود والصينيين، ومنها من كانوا على نصرانية خرجوا بها عن وجهها الصحيح؛ كالروم.

هذه حال معظم الأمم قبل البعثة، فهي إما مغموسة في الوثنية القذرة، أو منتمية إلى شريعة سماوية محرَّفة، ولا تبنى الأعمال الصالحة والمدنية الفاضلة إلا على أساس العقيدة القيمة:

وإذا كان في الأنابيب حيف وقع الطيش في صدور الصِّعاد[1]

وإذا نظرت إلى هذه الأمم من الوجهة الاجتماعية والخلقية، وجدتها في تمزق وفساد، حتى الأمتين اللتين كانتا على أثارة من العلم أو المدنية، وهما: الفرس، والروم.

فالأمم إذاً في حاجة شديدة إلى دعوة دينية صحيحة تنقذها مما هي فيه من شقاء، وتهديها الصراط السوي الذي يكفل لها السعادة في الآخرة والأولى، فكان من مقتضى الحكمة دعوة الناس ـ على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ـ إلى الدخول في دين واحد، والسير على أصول شرع ثابتة، وذلك الدين هو الإسلام، وتلك الأصول هي أصول شريعته المحكمة، فكان من

---

(١) الصعاد: الرماح كالأنابيب.

مزايا الرسالة المحمدية: أن جاءت لهداية أمم الأرض قاطبة.

ولعموم رسالته ﷺ دعا العرب، وبث فيهم هداة، ثم بعث رسلاً من أصحابه إلى ملوك من غير العرب، وكتب معهم كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر (ملك الروم)، وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى (ملك الفرس)، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي[1] (ملك الحبشة)، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس (ملك الإسكندرية).

ولعموم رسالته ﷺ، وعدم اختصاصها بقوم دون قوم، جاءت شريعته حافظة بنصوصها وأصولها لصالح كل الأوطان، متقاربة أو متباعدة. يعرف هذا حق اليقين من درس الشريعة، وألم بجانب من تاريخ القضاء والفتوى في الإسلام.

*** دوام شريعته وختمه للنبوة:**

عرفت أن الإسلام دين عام، لا تختص هدايته بأمة دون أمة. وهو ـ بعد هذا ـ دين خالد، لا يخلفه دين، ولا يطرأ على شريعته نسخ. ولخلود هذا الدين، وتوجه دعوته إلى الناس جيلاً بعد جيل، جعل الله فيها آيات صدق المبعوث به آية قائمة ما قامت السماوات والأرض، تعيها الأسماع، وتجول فيها الأنظار، وتستضيء بها الأبصار، وهي: القرآن الحكيم.

ولبقاء شريعته إلى يوم البعث كانت نصوصها وأصولها موافقة لما يقتضيه حال كل عصر. وكيف لا تكون كذلك، وهي قائمة على قواعد، منها:

---

(١) الصحيح أن النجاشي الذي أرسل إليه النبي ﷺ عمرو بن أمية غير النجاشي الذي أسلم، وأخبر بوفاته الصحابة، وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب.

«الضرر يزال»، و«المشقة تجلب التيسير»، و«الأعمال بمقاصدها»؟.

وإذا كانت آية صدق النبي ﷺ باقية، ودينه قيماً، وشريعته كافلة لمصالح العصور ما تجددت، كان ختمه للنبوة على وفق الحكمة البالغة، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ: «وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبوة»[١].

وقال ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي، ولا نبي[٢]»، إلى غير هذا من الأحاديث البالغة مبلغ التواتر المفيد للقطع.

ومن قرأ التاريخ في الزمن البعيد أو القريب، ومرّ فيه على قصص الأشخاص الذين ادعوا النبوة من بعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وجدهم أخف الناس عقولاً، وأسخفهم أقوالاً، وأبعدهم عن الفضل مكاناً، وسرعان ما تنكشف سرائرهم، ويظهر ـ حتى لغير النبهاء من الناس ـ زورهم، وتنتهي بالخيبة دعايتهم، ولا يبقى من آثارهم سوى نوادر يتفكه بها السّمار ترويحاً عن خواطرهم.

*** خلقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وآدابه:**

أدلك على أخلاقه العظيمة، وآدابه السنية بكلمة: هي أن كل خلق عظيم، أو أدب سني ورد في القرآن الحكيم، قد تحلى به الرسول الأكرم، وصار مثاله الأكمل الذي يتأسى به مريدو الفضيلة، وبغاة الأدب النبيل.

---

(١) «صحيح الإمام مسلم».

(٢) الترمذي.

ولعلك تعلم ـ كما أعلم ـ أن الذكر الحكيم لم يغادر خلقاً كريماً، ولا أدباً سامياً، إلا نبه على مكانه، وحثّ على التجمل به. فإذا قرأت في كتاب الله آية ترشد إلى خلق مثل الصبر، أو الحلم، أو الجود، أو الشجاعة، أو العدل، أو الصدق، أو الحياء، أو الزهد، أو الوفاء بالعهد، فاقطع بأن هذا الخلق قد أخذ من نفس سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ المكانة التي لم يأخذها في نفس من سبقه من العظماء، ومن جاء بعده.

وإذا قرأت في كتاب الله آية ترشد إلى أدب جميل؛ مثل: استئذان الرجل عند دخول بيت مسكون غير بيته، أو جدال المخالفين بالتي هي أحسن، أو المشي على الأرض هوناً، أو غض الصوت ورفعه عند الخطاب بقدر الحاجة، فتيقن أن هذا الأدب داخل في آداب رسول الله ﷺ التي لم تكن تأخذه عنها غفلة.

لا أقول هذا مستنداً إلى مجرد أنه المبلِّغ للقرآن، وشأن المبلغ للقرآن أن يكون متحلياً بما فيه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، بل أستند إلى هذا، وأستند إلى ما يصفه به القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]. ثم أستند إلى كتب السنة الصحيحة؛ فإنك إذا جئتها، بهرت قلبك بما تقصه عليك من أخلاقه الكريمة، وآدابه الآخذة بالألباب.

فتراه ﷺ يلقى الخطوب بعزم لا يهن، ويحتمل البلاء بصبر لا يتزلزل. وحسبك شاهداً على هذا: ما كان يلاقيه قبل الهجرة من أذى المشركين، ثم ما كان يلاقيه في بعض غزواته من شدائد، فلا يكون من ذلك الأذى، ولا تلك الشدائد إلا أن تزيد عزمه صرامة، وصبره قوة.

وتراه ـ عليه الصلاة والسلام ـ متواضعاً في غير تصنع، فحاله مع

المستضعفين يوم كان يدعو الله وحيداً، وسفهاء الأحلام بمكة يسومونه الأذى، هو حاله بعد هجرته، وانتصاره على أعدائه، ودخول الناس في دين القيمة أفواجاً.

ومن المعروف في سيرته: أنه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، ويعطي كل واحد من جلسائه نصيبه، حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، ولا يقطع عن أحد حديثه حتى يتجوزه[١]، فيقطعه بانتهاء أو قيام. وإذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرف وجهه. وقال أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير! ما فعل النغير[٢]؟».

وتراه ﷺ زاهداً في متاع هذه الحياة، غير حافل بزينتها وملاذها. أقبلت عليه الدنيا، ولا سيما بعد فتح مكة، فلم يتحول عن سيرته في المأكل والملبس وأثاث المنزل مثقال ذرة؛ فهذه عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ تقول: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاثة ليال تباعاً حتى قبض[٣]»، وقالت: «ما أكل آل محمد ﷺ أكلتين في يوم واحد إلا إحداهما تمر[٤]»، وقالت: «كان فراش النبي ﷺ من أدم، حشوه ليف».

---

(١) يخففه.

(٢) تصغير نغر بضم النون وفتح المعجمة: اسم لنوع من الطير.

(٣) «صحيح الإمام البخاري».

(٤) «صحيح الإمام البخاري».

ويروي لنا الإمام البخاري في «جامعه الصحيح»: أن عمر بن الخطاب دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على رمال[1] حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال في جنبه، متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف، ثم قال له عمر: «يا رسول الله! ادع الله لنا فليوسع على أمتك؛ فإن فارس والروم قد وسع عليهم، وأعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله»، فجلس النبي ﷺ، وكان متكئاً، فقال: «أو في هـذا أنت يا بن الخطّاب؟! إن أولئـك قوم قد عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا».

وتراه ﷺ رحيم القلب، محباً للرفق، طلق المحيا.

ومن المعروف في سيرته: أنه ما ضرب أحداً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله.

وممن روى لنا مثلاً من رحمته: مالك بن الحويرث، قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شببة[2] متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أننا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمن تركناه وراءنا من أهلنا، فأخبرناه ـ وكان رفيقاً رحيماً ـ، فقال: «ارجعوا إلى أهليكم، فعلموهم، ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي[3]». فقوله: «وكان رفيقاً رحيماً» كلمة لا يقولها قائلها في مثل هذا المقام إلا بعد أن تقوم له شواهد على رفق رسول الله ﷺ ورحمته من غير هذه الواقعة.

ومن شواهد ملاقاته للناس ببشر وطلاقة محيا: ما نقرؤه في «جامع

---

(١) منسوج، والمراد: أن سريره كان منسوجاً بما ينسج به الحصير.

(٢) جمع شباب.

(٣) «صحيح البخاري».

الترمذي» من حديث عبدالله بن جزء، إذ قال: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ». وقال جرير بن عبدالله البجلي: «ما حجبني[1] رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ابتسم».

وكان ﷺ مطبوعاً على خلق الحلم، والعفو مع القدرة على الانتقام. وفي «صحيح الإمام البخاري»: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله».

والحوادث التي شملها عفوه الكريم، ودلت على حلمه المنقطع المثيل، مبثوثة في كتب الحديث والسيرة.

وأسوق لك منها قصة رواها الإمام مسلم وغيره من كبار المحدثين، وهي: أنه هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غِرَّة رسول الله ﷺ، وما كان إلا أن أُخذوا في الأسر، ثم عفا عنهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القصة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[الفتح: ٢٤].

ومن المعروف في السيرة: أنه كان يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، قال أنس: «كنت أمشي[2] مع النبي ﷺ، وعليه بُرد نجراني، غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال الأعرابي: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك،

---

(١) ما منعني من الدخول إليه إذا كان في بيته، وأستأذنت عليه.

(٢) «صحيح الإمام البخاري».

ثم أمر له بعطاء».

وكانت يداه ﷺ مبسوطتين بالبذل في وجوه الخير، ينفق ما يؤتيه الله من مال في إعلاء كلمة الله، ويؤثر به ذوي الحاجات من الفقراء وأبناء السبيل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، ورسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[١].

وكان ﷺ يجمع إلى الجود والسخاء: شجاعة، ورباطة جأش، قال علي ـ كرّم الله وجهه ـ: «وإنا كنا إذا حمي البأس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»[٢].

وكذلك الداعي إلى الحق، ولا سيما المعهود إليه بابلاغه وتنفيذه: لابد من أن يكون شجاعاً رابط الجأش، على قدر شدة المدعوين، وصعوبة مراسهم، وعلى قدر عظم الحق ومخالفته لمللهم وعاداتهم وأهوائهم، فإذا أودع الله تعالى قلب محمد ﷺ شجاعة وسكينة في مواضع الخطوب، فلا جرم أن يكون نصيبه من هذه المزية أعظم نصيب؛ إذ لا أشد من مراس الأمة التي ابتدأ بإنذارها، وهي الأمة العربية، وفي دعوة الإسلام قضاء على مللهم، وذم لمعبوداتهم، وإبطال كثير من عاداتهم، وصرف لهم عن أهوائهم.

وكان ﷺ مطبوعاً على خلق الحياء الذي علمنا أنه من خلق الإسلام، بقوله: «لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء»[٣].

---

(١) «صحيح الإمام البخاري».

(٢) النسائي، والإمام أحمد.

(٣) «الموطأ».

ومن أثر هذا الخلق الكريم: أنه كان لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكره[1]، وإذا بلغه عن أحد شيء يستحق الزجر، لم يذكر اسمه، وإنما يورد الزجر في خطاب عام؛ كما قال: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله؟!».

وكان ﷺ ـ مع تواضعه ورفقه ورحمته وحلمه وحيائه ـ، يملأ القلوب مهابة وإكباراً، فقد ورد في وصف مجلسه: أنه كان إذا تكلم، أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت، تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده، أنصتوا له حتى يفرغ حديثه.

*** اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ في عبادة ربه:**

قد رأيت من الفصل السابق كيف كانت صلته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالخليقة، وعرفت أنها كانت عامرة بالرفق والرحمة والإحسان. ونريد أن نحدثك في هذا الفصل عن صلته بربه، وصرفه الجهد في حسن طاعته:

تحدثنا الروايات الصحيحة: أنه كان ﷺ مسلِّماً وجهه إلى الله تعالى، مملوء القلب بخشيته، وموصول الهمة بعبادته، فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقوم بالدعوة، ويضيف إلى هذا العمل العظيم: التقرب إلى الله تعالى بالذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن.

وكان يتهجد بالليل على وفق قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾[الإسراء: ٧٩].

روى الإمام البخاري في «جامعه الصحيح» عن المغيرة بن شعبة: أنه

---

(١) أبو داود، والنسائي.

قال: «أن كان النبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى ترم[1] قدماه، فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»».

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره من الشهور: فيكثر فيه من تلاوة القرآن، والصلاة، والذكر، والاعتكاف. وما كان يخرج عنه شهر حتى يصوم منه، وربما صام أياماً متتابعة، حتى يقال: لا يفطر. وكان يواصل[2] الصوم في رمضان؛ ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة. وكان ينهى أصحابه عن الوصال، فيقولون له: إنك تواصل، فيقول: «لست كهيئتكم: إني أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني»، والمراد من إطعام الله وسقيه: ما يغذيه به من المعارف، وما يفيضه على قلبه من لذة المناجاة. وورد في السيرة: أنه كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر الله.

وكان روح عبادته الإخلاص، يصلي في حجرته نافلة كما يصلي في المسجد، ويذكر الله خالياً كما يذكره في جماعة، ويعمل له في السر كما يعمل في العلانية.

وقد اعترف كثير من علماء أوروبا في مؤلفاتهم ببلوغه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أقصى درجة في الاستقامة وكمال الأخلاق، وعني كثير من الكتاب بنقل هذه الشهادات المملوءة بإكبارهم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وشدة إعجابهم بما أفاضه على العالم من إصلاح.

*** أثر دعوته في إصلاح العالم:**

ظهرت دعوة الإسلام في الأمة العربية، فكان لدعوته أثر كبير في تقويم

---

(١) تنتفخ.

(٢) يصل الليل بالنهار في الصوم يومين أو أياماً.

عقائدها، وتهذيب أخلاقها، وتوثيق عرا وحدتها، وإصلاح حال اجتماعها، فأصبحت رشيدة بعد غواية، ومتحدة بعد تفرق، وعالمة بعد جهالة، وعاملة بعد بطالة، وعزيزة الجانب بعد أن كان الفرس والروم يسيطرون على بعض أطرافها.

رفعت دعوة الإسلام الأمة العربية من حضيض الشقاء إلى أوج السعادة في سنين معدودة، ثم ارتفع صوت هذه الدعوة المباركة حتى وصل إلى أقصى الغرب، ثم إلى أقصى الشرق، وكانت هذه الدعوة تجد أينما جاءت عقائد فاسدة، ومزاعم ملفقة، وعادات ممقوته، وأهواء طاغية، فتزيح كل هذه الأرجاس من طريقها، فإذا القرآن يتلى، والسنّة النبوية تروى، وأولئك الدعاة يقيمون من إيمانهم الصادق، وعملهم الصالح، وخلقهم العظيم، مثلاً كاملة، فلا تلبث تلك الشعوب أن تعمل على طرق الهداية التي قرر أصولها القرآن، وفصلتها السنة النبوية، وسار عليها أولئك الدعاة المصلحون.

وإذا كان بعض تلك الشعوب؛ كالفرس والروم على شيء من علم أو مدنية، فإن حالتهم النفسية كانت في هبوط، وشؤونهم الاجتماعية كانت في اختلال، ودعوة الإسلام هي التي سمت بهم كما سمت بغيرهم من الشعوب إلى التوحيد الخالص. وطهرت نفوسهم من المزاعم الملقية في زراية، وجعلتهم يعبدون الله تعالى كما أمر، ويتقربون إليه بما يرضى.

ولو عمدنا إلى هذه الشعوب التي صارت إلى الاسلام، وأخذنا نقيس حياتها غير الإسلامية بحياتها الإسلامية، لوجدنا الفرق بين الحياتين كالفرق بين الظلمات والنور، أو الظل والحرور.

وإذا شئت أن تقف على شاهد لما استفاده العقل والعلم من دعوة

الإسلام، فانظر إليها كيف رفعت مقام العقل، وحثت على إعماله في النظر والبحث، والوثوق بما يدركه من نتائج، وما يجنيه من ثمرات، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[الأعراف: ١٨٥].

وانظر إلى الدعوة كيف تنوه بشأن العلم، وترشد إلى الاعتماد على آراء العلماء فيما تناله عقولهم، ويدخل في دائرة بحثهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩].

وعدّ علماؤنا فيما يجب أن تقوم به طائفة من الأمة كلَّ علم يتوسل به إلى معرفة حق، أو إقامة مصلحة؛ كالهندسة والحساب، والميقات والجغرافية.

نهض الإسلام بالعقول من وهدة الخمول، وأذن لها أن تبحث في كل علم، وتذهب في البحث كل مذهب، فوجدت الأمم من العرب وغير العرب في هذه السماحة ما أثار نشاطهم للبحث في كل ناحية من نواحي العلم، فلم يلبثوا أن جمعوا القرآن الكريم في مصحف، ودونوا الحديث النبوي بعد أن كان محفوظاً في الصدور، وكتبوا في تفسير القرآن، وشرح السنّة النبوية، وحققوا النظر في تقرير أصول الفقه، وحرروا وجوه استنباط الأحكام العملية، ووضعوا إزاءها العلوم العربية؛ من: النحو، والصرف، والبيان، وفقه اللغة. ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها، فأصبحت بلاد الإسلام ـ ولاسيما عواصم الممالك؛ كبغداد، وقرطبة، ومصر، ودمشق، وتونس ـ موارد العلوم الإسلامية والأدبية والكونية.

ومن هذه الموراد استمدت الأمم الأوروبية معارفها وفنونها. وقد اعترف بهذا كثير من علماء أوروبا المنصفين، قال الأستاذ (بريفولت الإنجليزي) في

كتابه «تكوين الإنسانية» في القرن التاسع: «تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام». وقال: «إن رئيس دير كلوتي تأسف على أن رأى أثناء إقامته في الأندلس الطلبة من فرنسا وألمانيا وإنكلتر يردون أفواجاً إلى المراكز العلمية العربية». وقال: «فالعلم هبة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر».

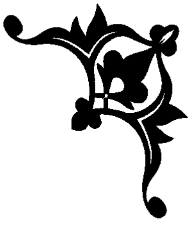
ولم يكن فضل الإسلام على أوروبا من ناحية العلم فقط، بل كان له الفضل في نهضتها المدنية، قال الأستاذ (بريفولت) في الكتاب المذكور: «لم تكن إيطاليا مهداً لحياة أوروبا الجديدة، بل إسبانيا (الأندلس)؛ لأن أوروبا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة، بينما العالم العربي: بغداد، والقاهرة، وقرطبة، وطليطلة، كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلي، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التي نمت في شكل ارتقاء إنساني جديد».

وخلاصة الفصل: أن دعوة خاتم النبيين ﷺ قد أتت العالم بضروب خطيرة من الإصلاح لم تأته بها دعوة سبقتها أو تأخرت عنها؛ فما يوجد في العالم من هداية صادقة، أو علوم نافعة، أو مدنية فاضلة، فإنما يرجع الفضل فيه لدعوة هذا الدين القويم.

فليرفع الفتى المسلم رأسه معتزاً بدين رفع الإنسانية من حضيض الجهل إلى أوج العلم، وهداها سبل السعادة الباقية، والمدنية المهذبة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].







صبر محمد ـ عليه السّلام ـ ومتانة عزمه(١)

نحمدك اللهم على أن هديتنا صراطاً سوياً، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الذي أنزلت عليه قرآناً عربياً، ورفعته في سماء السيادة والعظمة مكاناً عَلِيّاً، وعلى آله وصحبه وكل من دعا إلى سبيلك مخلصاً تقياً، أما من زاغ عن الهدى، أو اتخذ من المضلين عضداً، فإليك إيابه، وعليك حسابه.

أيها السادة!

نحتفل بذكرى مولد أكمل الخليقة، وإنما نحتفل بمطلع الهداية التي أخرجت العالم من الظلمات إلى النور، وعلمت البشر من وجوه الحكمة مالم يكونوا يعلمون. وخير الاحتفال بذكرى مولد المصطفى: أن نلقي على حضراتكم كلمات نقتبسها من سيرته السنية، وخلقه العظيم، وقد اخترت أن أجعل تذكرة بسعة صبره، ومتانة عزمه؛ فإنهما من أسمى الخصال التي بلغ بها الغاية من الدعوة، وما كان محمد ﷺ يدعو إلا إلى سعادةٍ وإصلاحٍ ونظام.

أوحى الله إلى محمد ﷺ ما أوحى، فكان نور اليقين يسعى بين يديه، ويسير به في سبيل الدعوة، فلا يسأم ولا ييئس، ولا يرهب سطوة غير سطوة

(١) مجلة «الفتح» ـ العدد ١١٣ من السنة الثالثة في ٢٩ ربيع الأول ١٣٤٧هـ ١٣ سبتمبر ١٩٢٨م القاهرة. محاضرة الإمام في ذكرى مولد النبي ﷺ.

الخالق، ولا يخشى.

يتجلى صبر محمد ﷺ في استقامته كما أمره الله، ومواصلته العبادة آناء الليل وأطراف النهار، فقد كان ـ صلوات الله عليه ـ يقوم الليل ناسكاً متهجداً. وكان هذا القيام في حقه أمراً مفترضاً عليه. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل: ١ ـ ٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩]. وفي حديث المغيرة المروي في «صحيح البخاري»: «إن كان النبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى ترم قدماه، فيقال له، فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

وسئلت أم المؤمنين عائشة عن عمل رسول الله ﷺ، فقالت: كان عمله ديمة، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق؟.

ولو لم يكن محمد ـ صلوات الله عليه ـ مخلصاً فيما يفعل، صادقاً فيما يبلغ، لما استطاع أن يملأ الليل والنهار بعبادات يأخذ بها نفسه في الحضر والسفر، ويقوم بها في العلانية كما في حجرته وأهلُ الحجرة نائمون.

وقد خطر على أذهان بعض الصحابة أنهم في حاجة إلى أن يُجهدوا أنفسهم في العمل الصالح أكثر مما يجهد رسول الله نفسه؛ بحجة أن الله اصطفاه برسالته، وخلع عليه من حلل رضوانه، فهو مغفور له، ومحمود المقام عند الله على أي حال، ذكروا هذا الخاطر في حضرة الرسول، فقابله بالغضب، وأرشدهم إلى أن العبادة والتقوى على قدر المعرفة بالله، وأنه أتقاهم لله، وأعلمهم به، وفي «صحيح البخاري»: «كان إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله؛ إن الله قد غفرلك ما تقدم من ذنبك

وما تأخر، فيغضب حتى يُعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».

ولو لم يكن محمد ﷺ مخلصاً فيما يفعل، صادقاً فيما يبلغ، لكان شأنه أن يرتاح لخاطر كهذا، ويتكئ عليه في الإقلال من العبادة، فيخفف عن نفسه شيئاً من حملها الكبير.

يُعلِّم محمد ﷺ بسيرته عظماء الرجال: أن القيام على العبادة الخالصة لا يبطئ بالرجل أن يكون فاتحاً مظفراً، أو سياسياً راشداً، أو طامحاً إلى همم تطلع وتغرب من تحتها كواكب الجوزاء، بل إن تقوى الله بحق هي أساس كل عزة وعظمة.

يتجلى صبر محمد ﷺ، وشدة عزمه في احتمال ما تجري به صروف الأقدار من الشدائد والخطوب؛ فإنه كان يتلقاها بقلب لا يخضع للنوائب، وعزم تزول الراسيات ولا يزول، وأقرب مثل نسوقه على هذا الخلق الجليل: واقعة أحد التي قضى الله بأن يبلو فيها المسلمين، ويميز بها المنافقين من المؤمنين، فقد لقي فيها رسول الله بأساً شديداً، وكسرت فيها ربَاعيته، وجرحت وجنته وشفته، وجشت ركبته، حتى اضطر أن يؤدي الصلاة في ذلك اليوم جالساً، وقتل عمه حمزة بن عبد المطلب، ومُثل فيه أفظع تمثيل، ولكنه حذر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يظن المشركون به وبأصحابه وهناً، وتدور نشوة الانتصار في رؤوسهم، فيهموا بالعودة إلى المدينة، ويطمعوا في استئصال من فيها من المسلمين، فقصد إلى أن يريهم قوة وعزماً، فبعث في الغد من ينادي في الناس بطلب العدو، ويؤذنهم أن لا يخرج معه إلا من شهد الوقعة بالأمس، فانتدب منهم سبعين رجلاً، فخرج بهم يقفو أثر القوم حتى بلغ القوم

مكاناً يقال له: «حمراء الأسد»، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فانصرفوا إلى ديارهم، وانقلب رسول الله والذين معه إلى المدينة وقد أمنوا ما كانوا يحذرون.

يُعلِّم محمد ﷺ بسيرته المجاهدَ في سبيل الحق أن يثبت في وجه أشياع الباطل ولا يَهن في دفاعهم وتقويم عوجهم، ولا يهوله أن تقبل عليهم الأيام، فيشتد بأسهم، ويجلبوا بخيلهم ورجالهم، فقد يكون للباطل جولة، ولأشياعه صولة، أما العاقبة، فإنما هي للذين صبروا والذين هم مصلحون.

يتجلى صبر محمد ﷺ وقوة عزمه ساعة يعتدي عليه السفهاء من خصوم هدايته، فإنه كان ﷺ يقابل أذاهم بالتجلد، والمضي في الدعوة كيف يشاء، ولشدَّما لقي من الأذى، فلم يحجم به يوماً عن أن يصدع بما أمره الله، ولم يحجم به يوماً عن أن يضرب بالدعوة في وجوه أولئك الجبابرة، وهذه السيرة تعلِّم الناهضين بالأمم إلى مراقي الفلاح كيف يؤثرون الحق على أنفسهم ومن في الأرض جميعاً.

ولا أدل على عظمة الرجل من أن يستبين سبيل الرشد، فيسلكها في سكينة وقرارة جأش، ثم لا يبالي عبث المستهزئين، وما يعترضه من أذى المبطلين.

يتجلى صبر محمد ﷺ وقوة عزمه في إقدامه على همم لا تدرك إلا بمعاناة مصاعب واقتحام أخطار.

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر

بلغه ﷺ أن الروم ومن يظاهرهم من قبائل العرب المتنصرة أخذوا يتأهبون للزحف عليه بالمدينة، فنادى بالنفير العام، وانبعث في سفر بعيد

الشـقة إلى أن وطئ أرض الروم، فخالط قلوبهم رعب، وجنحوا للسـلم، فجنح لها، ووادعهم إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

يُعلّم محمد ﷺ بمثل هذه الغزوة رؤساء الشعوب أن لا يقعد بهم حب الراحة والنعيم العاجل، ويغيبوا عما وراء بلادهم حتى يطل عليهم العدو بخيله ورجله، ويصب عليهم من سيطرته عذاباً مهيناً.

يتجلى صبر محمد ﷺ وقوة عزمه في أقوال يتبرأ من أن يصرفه عن الدعـوة إلى الدين الحنيف صـارف، وهو الذي يقول: «والله! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته».

بمثل هذا الكلم النوابغ يعلم محمد ﷺ دعاة الإصلاح من بعده أن يكونوا من العزم الصامت بحيث يمضون في سبيلهم مضي الشهاب الثاقب، ولا يتردد بهم في هذا السبيل أن يصانعهم الذين لا يحبون الناصحين، ولو ملؤوا ما بين أيديهم لجيناً وعسجداً.

وإذا كان الرفق والأناة شعبة من شعب الصبر، فكان محمد ـ صلوات الله عليه ـ يقابل الإساءة بالرفق والأناة.

نقرأ في «صحيح البخاري»: أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه، فأغلظ له في القول، فهَمّ به أصحابه، فقال: «دعوه؛ فإن لصاحب الحق مقالا».

ونقرأ في «صحيح البخاري»: أن رهطاً من اليهود دخلوا عليه، وقالوا: «السام عليكم» محرفين كلمة «السلام» إلى «السام»، والسام: الموت، فلم يزد رسول الله على أن قال: «وعليكم»، ولما ردت عليهم أم المؤمنين عائشة بقولها: «وعليكم السام واللعنة»، قال لها: «مهلاً يا عائشة، إن الله يحب

الرفق بالأمر كله».

ونقرأ في «صحيح البخاري»: أن عائشة بنت الصديق تصف رسول الله، فتقول: «والله! ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله، فينتقم له».

ونحن إذا تقصينا سيرته بحثاً وتنقيباً، وجدناها مصدقة لما وصفته به أم المؤمنين من الرفق والحلم، فما عاقب ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحداً مسه بأذى، ولا اضطغن على أحد أغلظ له في القول، بل كان يلاقي الإساءة بالحسنى، والغلظة بالرفق، إلا أن يتعدى الشر، فيلقي في سبيل الدعوة حجراً، أو يحدث في نظام الأمة خللاً. فلمحمد ﷺ يومئذ شأنه الذي يقول فيه: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطع محمد يدها».

فهذه السيرة ترشد رئيس القوم إلى أن يوسع صدره لمن يناقشه ويجادله، ولو صاغ أقواله في غلظ وجفاء، فسيرة رسول الله هي التي علمت معاوية ابن أبي سفيان أن يقول: والله! لا أحمل السيف على من لا سيف له، فإن لم يكن من أحدكم سوى حكمة يقولها ليشتفي بها، فإني أجعل له ذلك دُبُرَ أذني، وتحت قدمي.

فمحمد ﷺ الذي قرر الحرية في الأموال والأنفس والأعراض، قد قرر الحرية في نقد أعمال الرعاة المسؤولين، فحقيق على عشاق الحرية الفاضلة أن يحتفلوا بذكرى مولد النبي الذي جامل من أغلظ له في القول، وقال لأصحابه: «دعوه؛ فإن لصاحب الحقِّ مقالاً».





الهجرة النبوية[1]

تنفس الإسلام في بطاح مكة، فاعتنقه فريق من ذوي العقول السليمة، وما لبث عبّاد الأوثان أن قاموا يؤذونهم في أنفسهم، ويأبون لهم أن يقيموا شعائر دينهم، ولقد كان هؤلاء المسلمون على إيمان أجلى من القمر يتلألأ في سماء صاحية، فاحتملوا ذلك الأذى بصبر وأناة، وكانت مظاهر أولئك الطغاة حقيرة في أعينهم، منبوذة وراء ظهورهم.

وكذلك الإيمان تخالط بشاشته القلوب، فيخلق من الضعف عزماً، ومن الخمول نهوضاً، ومن الجزع صبراً، ومن اليأس أملاً، ومن الجبن شجاعة، ومن الذلة عزّاً.

فإذا رأيتم الرجل يتضاءل أمام المترفين صَغاراً، أو يحثو في آذان المضلين إطراء وملقاً، فاعلموا أنه في حاجة إلى إيمان يطبعه على متانة وصدق ووقار.

يجهل الجاحدون على المؤمنين، ويمكرون بالمصطفى ﷺ ما استطاعوا إلى المكر به سبيلاً، حتى إن قريشاً وبني كنانة اجتمعوا في خَيْف بني كنانة،

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثامن من المجلد الأول الصادر في شهر المحرم ١٣٤٨هـ.

وتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ، ويرفعوا أيديهم عن جماعته. وهذا ما يشير إليه رسول الله في قوله عند فتح مكة: «غداً منزلنا بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر».

قضى - عليه الصلاة والسلام - في سبيل الدعوة بمكة ثلاثة عشر حولاً وهو يلاقي نفوساً طاغية، وألسنة ساخرة، وربما لقي أيدياً باطشة، وكان هيناً على الله أن يصرف عنه الأذى جملة، ولكنها سنّة الابتلاء يؤخذ بها الرسول الأكرم؛ ليستبين للناس صبره، ويعظم عند الله أجره، وليتعلم دعاة الإصلاح بحق كيف يقتحمون الشدائد، ويستهينون بما يعترضهم من الأذى، صغيراً كان أم كبيراً.

وما كان محمد - صلوات الله عليه - خاملاً، فيطلب بهذه الدعوة نباهة شأن ووجاهة؛ فإن في شرف أسرته وبلاغة منطقه وكرم خلقه ما يكفيه لأن يحرز في قومه الزعامة لو يشاء، وما كان محمد - صلوات الله عليه - مقلاً حريصاً على بسطة العيش، فيبغي بهذه الدعوة ثراء؛ فإن عيشه يوم كان الذهب يُصب في مسجده ركاماً لا يختلف عن عيشه، فيلاقي في سبيل الدعوة أذى كثيراً.

وكان من تدبير الله الحكيم أن قدم مكة قوم من الأوس والخزرج، فشرح الله صدورهم للإسلام، وبايعوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - على أن يكونوا أنصاره إلى الله؛ كما قال قائلهم:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

فكفى الله رسولَه والمؤمنين بأس خصومهم الألداء، وهيأ لهم من أمر

الهجرة سبباً.

أحسَّ زعماء قريش بهذه المبايعة ذات الأثر الخالد العظيم، وانتهى بهم الحال أن ائتمروا برسول الله ﷺ ليعتقلوه، أو يقتلوه، أو يخرجوه، وقد جاء نبأ هذه المؤامرة في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[الأنفال: ٣٠].

أخرج كل ما في كنانته من رأي، وأجمعوا على أن يطلقوا سيوفهم تخوض في دمه الطاهر انتقاماً لأحجار ينحتونها بأيديهم، ويظلّون لها من دون الله عابدين.

وأوحى الله إلى رسوله ما أوحى، فبارح مكة من حيث لا تراه أعينهم، وحلَّ بالمدينةِ حلول القمر الزاهر في كبد السماء.

حل رسول الله بالمدينة حلول الغيث بالبلد الطيب، فإذا الحكمة تدني قطوفها، وإذا الخطب تأخذ المسامع بروعتها، وإذا صيحة الأذان تشق الجو حتى تبلغ غايتها.

وكذلك تكون عاقبة الحق حينما يشتد أعوان الباطل في إطفاء نوره، وقطع سبيله.

فإذا كان اليوم الذي خرج فيه رسول الله من مكة يوماً عابساً كئيباً، فإن اليوم الذي قدم فيه المدينة يوم مشرق الطلعة، باسم الثغر، واضح الجبين.

*** لماذا جعلت الهجرة النبوية مبدأ التاريخ في الإسلام؟**

شعر الناس في عهد الفاروق رضي الله عنه بالحاجة إلى تأريخ الرسائل وما يكتبون، فاستطلع عمر آراء ذوي الرأي منهم، فأشار بعضهم بأن يقام التاريخ على

عام البعثة؛ لأنه الحين الذي بزغ فيه كوكب الهداية والعلم. وأشار آخرون بأن يكون مبدأ التأريخ[1] عام الهجرة، فوقع اختيار عمر على هذا الرأي، وقال: «الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فأرخوا بها».

اختار الفاروق أن يقام التأريخ على الهجرة الشريفة، وذكر في وجه هذا الاختيار: أنها فرقت بين الحق والباطل، وهذه كلمة تومئ إلى فضل الهجرة، وما كان لها من الأثر في ظهور الإسلام، وإقبال الناس عليه جهرة لا يخشون إلا رب العالمين. كان الحق بمكة مغموراً بشغب الباطل، وكان أهل الحق في بلاء من أهل الباطل شديد، والهجرة هي التي رفعت صوت الحق على صخب الباطل، وخلصت أهل الحق من ذلك البلاء الجائر، وأوردتهم حياة عزيزة ومقاماً كريماً.

وإذا كانت البعثة مبدأ الدعوة إلى الحق، فإن الهجرة مبدأ ظهوره، والعمل به في حالتي السر والعلانية، ولا يبلغ قول الحق غايته، ويأتي بفائدته كاملة إلا أن يصبح عملاً قائماً، وسيرة متبعة، انظروا إلى عمر بن الخطاب كيف يقول لأبي موسى الأشعري في رسالة القضاء: «وإذا تبين لك الحق، فانفذ؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له».

فالهجرة راشت جناح الإسلام، فذهب يحلّق في الآفاق ليمحو آية الضلالة، ويجعل آية الهداية مبصرة، اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ

---

(١) وهذا رأي علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ فيما رواه الحاكم عن سعيد بن المسيب.

سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾[التوبة: ٤٠].

فإنكم تجدون الآية الكريمة تذكر شيئاً من أمر الهجرة النبوية، وتعد في النعم الجليلة المترتبة عليها: جعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا.

علت كلمة الله حقاً، وإنما علت على كاهل تلك الدولة التي قامت بين لابتي[1] المدينة، وبسطت سلطاناً لا تستطيع يد المخالفين أن تمسه من قريب ولا من بعيد.

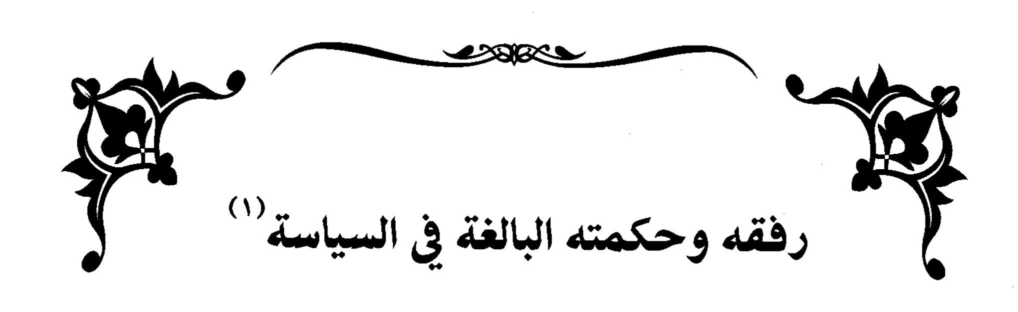
ومن حسنات الهجرة: تلك الأحكام المدنية، والنظم القضائية، والأصول السياسية؛ فإنها كانت تنزل بالمدينة حيث أصبح المسلمون في كثرة، وصاروا من المنعة بحيث يأخذونها بقوة، ويقومون على إجرائها يوم تنزل والناس يشهدون، ولو كان آخر عهد الوحي يشبه أوله، لم يزد الإسلام على أن يكون دعوة إلى عقائد وأخلاق، وشيء من العبادات.

فالهجرة النبوية كانت مبدأ عظمة الإسلام، ومطلع حرية الأمة الإسلامية، فإذا أقمنا لذكرها هذه الحفلة السنية، فإنما نحتفل بذكرى اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل، واليوم الذي استقل فيه المسلمون بأمرهم، ونالوا به الحرية في عبادة ربهم، وسعادة الأمة أن تسلم من كيد خصومها، وتقيم واجبات دينها، ولا تُغلب على حق من حقوقها.

❒ ❒ ❒

---

(١) اللابة: الحَرَّة، وهي أرض ذات حجارة نخرة سود ـ «القاموس».



رفقه وحكمته البالغة في السياسة[1]

كان أمراء الإسلام في الأندلس وغيرها من بلاد المغرب يقيمون بليلة الميلاد النبوي احتفالاً باهراً، ونجد في وصف احتفالاتهم: أن طائفة من العلماء الشعراء كانوا يلقون قصائد تحتوي جانباً من مكارم رسول الله ﷺ، ويسلكون فيها آيات من آيات نبوته الصادقة.

ومن هؤلاء الشعراء البلغاء: الوزير لسان الدين بن الخطيب، والوزير أبو عبدالله بن زمرك، والفيلسوف ولي الدين بن خلدون.

ومن هذه القصائد: قصيدة لسان الدين بن الخطيب التي يقول في طالعها:

ما على القلب بعدكم من جُناح ... أن يُرى طائراً بغير جناح

ومنها قصيدة ابن زمرك التي يقول في طالعها:

تأملَ أطلال الهوى فتألما ... وسيما الجوى والسقم منها تعلما

ومنها قصيدة ابن خلدون التي يقول في طالعها:

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الحادي عشر من المجلد الأول الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٤٨. خطبة الإمام في جمعية الهداية الإسلامية يوم السبت ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٨ في ذكرى المولد النبوي.

أسرفن في هجري وفي تعذيبي ... وأطلن موقف عَبرتي ونحيبي

وأبينَ يوم البين وقفة ساعة ... لوداع مشغول الفؤاد كئيب

وما برح أهل العلم يشهدون هذا الصنيع باستحسان، وينظرون إليه بعين راضية؛ إذ لا يزيد على إسماع الحاضرين كلماً طيباً من سيرة رسول الله ﷺ، وتذكيرهم بشيء من دلائل نبوته الساطعة.

فإذا احتفلنا في هذه الليلة بذكرى المولد النبوي، فإنما نأتي إلى سيرة الرسول الأكرم، ونقدم منها إلى هذه الحفلة مُثلاً عالية.

السيرة النبوية بعيدة ما بين البداية والنهاية، فلا نحيط بآثارها ذكراً، ولا نستطيع لمواقع العبرة منها جمعاً، وإنما أقتبس منها كلمة أدلُّ بها على ما كان للمصطفى ـ صلوات الله عليه ـ من الرفق بالمستضعفين من الرجال والنساء، وكلمة أخرى أدل بها على ما كان له من الحكمة البالغة في السياسة.

*** رفقه بمن يسيئون إليه على جهالة:**

العربي في جاهليته سريع الغضب، حريص على الانتقام ممن يمسه بأذى، وهذه إحدى الخصال التي جعلت العرب قبل أن يستضيئوا بحكمة الإسلام في معزل عن السياسة ـ كما يقول ابن خلدون ـ، أما رسول الله، فقد نشأ مطبوعاً على فضيلة الحلم والإغضاء، إلا أن تنتهك حرمات الله.

نقرأ في الصحيح: أنه لما قفل ـ عليه الصلاة والسلام ـ راجعاً من غزوة حنين، جاءه الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة، فخطفت رداءه، فوقف فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاه[1] نعماً، لقسمته

---

(١) العضاه: جمع العضاهة، وهي أعظم الشجر، أو كل ذات شوك. «القاموس».

بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذاباً، ولا جباناً».

فهذا الأثر يدلنا على أنه ـ صلوات الله عليه ـ لم يكن ليقيم أعواناً يمنعون أمثال هؤلاء الأعراب من الوصول إليه، أو يفرقون جمعهم إذا أحاطوا به، وألحفوا في سؤاله، وتدلنا كلمة رسول الله على أنه لا يغضب غضب من تأخذه العزة بالإثم حين يتهافت عليه جماعة من الأعراب حتى يضطروه إلى شجرة تخطف رداءه.

ونقرأ في الصحيح: أن أنس بن مالك يقول: «كنت أمشي مع النبي ﷺ، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه جبذه شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت فيها حاشية الرداء، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء».

يبتسم لقوة أعرابي بسط يده إليه بجفاء، أما الطغاة أو البلغاء الذين يعثون في الأرض فساداً، فإنه يأخذ فيهم بسنة العزم، ويدع المجاملة والتبسم لهم في ناحية.

كان الرئيس العربي يسرف في مصانعة ذوي الزعامة والنفوذ في قومه، ولا يؤاخذهم بما يجرمون؛ مخافة أن يشقوا عصا طاعته، ويزلزلوا أركان رياسته، ثم لا يبالي أن يذيق الضعيف الذي لا يؤبه له عذاباً مهيناً. ولكن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ يضع الأقوياء والضعفاء عند تقاضي الحقوق مكاناً سواء.

*** رفقه بالمرأة:**

كان الرجال من قريش يعاشرون أزواجهم في شيء من الغلظة، حتى

إنهم لا يرون للزوجة حقاً في أن تراجع الرجل إذا خاطبها في غيظ، فجاء رسول الله ﷺ يقلب هذه الغلظة إلى رفق، ويفسح للمرأة أن تعمل على إرادتها، وتتمتع بحريتها في دائرة الأدب والصيانة.

نقرأ في الصحيح: أن عمر بن الخطاب يقول: «كنا ـ معشر قريش ـ نغلب نساءنا، فلما قدمنا الأنصار، إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن بأدب نساء الأنصار، فصخبتُ على امرأتي، فراجعتني، فأنكرتُ أن تراجعني، قالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله! إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم إلى الليل».

ضرب رسول الله عن عادة قريش جانباً، وكان يتلقى مراجعة الزوجة له بأناة، وهجرَها له اليوم كله باحتمال، يفعل ذلك رفقاً بها، وإرشاداً إلى الأوفق بسنة الاجتماع في معاشرتها، ولتعليم الناس فضيلة العطف على المرأة يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه، كسرته، وإن تركته، لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً».

وإذا تقصينا أثر ما يقرره الإسلام للمرأة من حقوق، وما ألقاه عليها من احترام، ازددنا علماً بأنه الدين الذي يسير بحال الاجتماع البشري إلى أقصى ما يرام من السعادة.

فالنساء شطر البشر، وتأثيرهن على الشطر الآخر من حيث التربية الأولى لا يتنازع فيه اثنان، فالإحسان إليهن، ومسايرتهن فيما لا يخرجن به عن حدود الصيانة والعفاف مما يرفع هممهن، ويرقي آدابهن، فإذا نشأ الولد في حجورهن، خرج للناس رفيع الهمة، راقي الآداب.

ونحن إذا قسنا حال المرأة في الجاهلية بحالها بعد نزول الوحي، عرفنا أن ما بيّنه الرسول الأكرم من حقوقها مبدأ من المبادئ التي عني بها الإسلام، وأخرج بها العالم من همجية قاسية إلى مدنية راقية فاضلة.

*** حكمته البالغة في السياسة:**

لا يسعني المقام أن أطرق هذا الموضوع بشواهد كثيرة، وإنما أورد واقعة واحدة هي واقعة الحديبية؛ فإن في هذه الواقعة لآية على أن نظر محمد ابن عبدالله في السياسة لم يكن وليد أرض تهامة، إنما هو وليد تعاليم ينزل بها الروح الأمين من فوق سبع سماوات.

خرج رسول الله ﷺ من المدينة في ألف وثلاث مئة مسلم من المسلمين، قاصداً زيارة البيت الحرام، لا يريد قتالاً، فبلغ المشركين بمكة خبره، فخرجوا ليصدوه عن الزيارة، فنزل بأقصى الحديبية، وسبقه المشركون، فنزلوا بأعداد مياهها[1]، ودارت الرسل بينه وبينهم، وانتهى الأمر على عقد صلح تمسكوا فيه بشروط لم يكن من رسول الله إلا أن قبلها. ومن أشد هذه الشروط على المسلمين: أن المشركين أبوا أن يخلُّوا بين النبي وبين البيت في ذلك العام، وإنما رضوا أن يأتيها في العام المقبل، وأخذوا عليه أن من جاءه من المشركين يرده عليهم، وهم إذا جاءهم أحد من المسلمين، لا يردونه عليه.

نرى في هذه الواقعة أن المسلمين امتعضوا من عقد هذا الصلح، ورأوا في شروطه ما يمس كرامتهم، ويخدش عزتهم، حتى بلغ بعمر بن الخطاب أن قال لرسول الله: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»: قال:

---

(١) الأعداد: جمع عِدّ ـ بكسر العين ـ، وهو الماء الذي له مادة لا تنقطع.

فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟! قال له: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، فزاد عمر أن قال: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف بـه؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنّا نأتيه العام؟»، قال عمر: لا، قال: «فإنك آتيه، ومطوِّف به».

رأى المسلمون أن في استطاعتهم حرب المشركين، وفي أملهم أن يكونوا هم الغالبين، ولا سيما بعد أن سمعوا الوعد الصادق بأنهم سيدخلون المسجد الحرام، ويطوفوا بالبيت العتيق، ولكن رسول الله رأى أن احتمال هذه الشروط التي تمسك بها المشركون أخف من أن يناجزهم الحرب وفيهم شيء من القوة، فلا يدخلها إلا بعد أن تراق دماء طاهرة، ودماء يجوز أن تطهر بالإيمان في السنة القابلة.

وقد دلت العاقبة على أن المسلمين كانوا ينظرون إلى قريب، وكان الرسول الله ينظر إلى أمد بعيد؛ إذ كان من عواقب هذا الصلح أن امتد الأمن بين مكة والمدينة، وجرى بين المسلمين والمشركين اتصال، وكثرة ملاقاة، فكان المسلمون يُسمعونهم القرآن، ويناظرونهم على الإسلام علانية، وكانوا قبل هذا الصلح لا يدعون إلى الإسلام بمكة إلا في خفاء، ودخل في الإسلام مدة الصلح كثير ممن كانوا مشركين، أو كن مشركات، فخسر المشركون من حيث أرادوا الفوز، ولم يجئ يوم الفتح الأكبر إلا وهم في ذلة، والمؤمنون في قوة، فدخل رسول الله مكة فاتحاً، وقد ألقوا إليه السلم، بل أقبلوا هم وزعماؤهم يدخلون في دين الله أفواجاً.

فإذا وقفنا عند ظاهر أمر رسول الله، نجد في سيرته ما هو سبب نجاحه في الدعوة، وظهوره على أعدائه.

أما نجاحه في الدعوة، فيرجع ـ بعد بلاغة القول وقوة الحجة ـ إلى كمال أخلاقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وصدق عزيمته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وأما ظهوره على أعدائه، فيرجع ـ بعد تأييد الله ـ إلى حكمة السياسة، والأخذ بسنة الحذر، وإعداد القوة؛ إذ لا تنجح الدعوة إلى الحق إلا بمتانة الأخلاق، وصدق العزم، ولا تظهر أمة على من يريد بها عسفاً وهواناً إلا بأن تحكم السياسة، وتُعِدَّ له ما استطاعت من قوة.

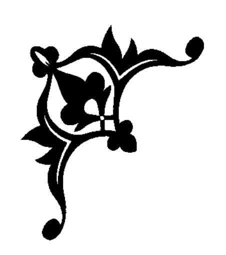
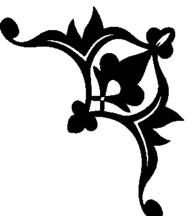
أيها السادة!

رغبت إليَّ القريحة أن تشارك حضرات السادة الشعراء في الحديث عن رسول الله بكلام موزون، فسمحت بهذه القطعة من القريض:

حيـيّ ذاك البـدر بـالزَّهْرِ النظـيمْ   وامـلأ الجَفْـنَ بمـرآهُ الوسـيم[1]

□ □ □

(١) القصيدة منشورة في آخر هذا الكتاب مع القصائد النبوية.

نظرة في دلائل النبوة[1]

جرت حكمة الله على أن يبعث في الناس رسلاً يعلمونهم واجبات ألوهيته اعتقاداً وعملاً، ويهدونهم السبيل إلى الفلاح عاجلاً وآجلاً، وقضت حكمته أن تكون دعوة هؤلاء الرسل مقرونة بآيات تشهد بأنهم لم يقولوا على الله إلا حقاً، حتى تقوم الحجة على الجاحـد، فإما إيماناً بعد، وإما عناداً.

والآيات القائمة على أن محمداً ﷺ رسول الله إلى الخليقة حقاً، تكاد تتجاوز حد ما يُستقصى، وقد تتبعها القاضي أبو بكر بن العربي عَدّاً، وأملى في تفسيره «أنوار الفجر» ألف معجزة، وهي ـ على كثرتها، واختلاف مظاهرها ـ ترجع إلى ثلاثة أصول: القرآن الكريم، والسيرة النبوية، والمعجزات المحسوسة التي تنقل إلينا على طرق ثابتة.

ولا أقصد في هذا المقام إلى أن أتحدث عن هذه الأصول بتفصيل، بل آتي عليها بالقول الموجز، وأدع بسط القول فيها إلى كتب تأتي ـ إن شاء الله ـ المحاضرة بعد الأخرى.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الرابع من المجلد الثاني الصادر في رمضان ١٣٤٨، والجزء الخامس من المجلد الثاني الصادر في شوال ١٣٤٨. محاضرة للإمام في نادي جمعية الهداية الإسلامية في يوم الخميس ٩ شعبان سنة ١٣٤٨.

* القرآن الكريم:

نزل القرآن بلسان عربي مبين، وهو يحمل دعوة حكيمة، ومعجزة باهرة:

أما الدعوة الحكيمة، فهي ما أرشد إليه من عقائد سليمة، وآداب جليلة، وأحكام عادلة، ونظم عمرانية راقية، وذلك ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩].

وأما المعجزة، فهي ما يدركه أولو الألباب من بلوغه في حكمة المعاني، وسمو المقاصد، وفصاحة الكلم، وجودة النظم غايةً فوق ما تنتهي إليه طاقة البشر، وذلك ما يدل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨].

وكثير من حكماء العرب وبلغائهم يسمعون القرآن، فيدخل الإيمان في قلوبهم من غير حاجة إلى أقيسة منطقية: شرطية أو جملية؛ ذلك أنهم يتلقون الدعوة وهي محفوظة بدلائل الصدق من كل ناحية، وليس بينهم وبين الاهتداء بهذه الدلائل سوى التنبه لوجه دلالتها.

ومن شواهد التاريخ على هذا قصة عمر بن الخطاب ﷺ؛ إذ قرئت عليه سورة «طه»، فانشرح صدره للإسلام، وقال: أين رسول الله؟ فقيل له: في دار أرقم بن أبي الأرقم، فقصد إليه فوراً، وسرعان ما نطق بالشهادة بين يديه.

وينبئكم أن القرآن الحجة الناطقة على صدق المبعوث به: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[المائدة: ٨٢ ـ ٨٣].

فالآية ظاهرة في أن هؤلاء القسيسين والرهبان لم يزيدوا على أن سمعوا قرآناً يتلى، فعرفوا فيه وجه الحق، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[المائدة: ٨٣].

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[العنكبوت: ٥١] ما هو صريح في أن القرآن آية كافية للدلالة على صدق الدعوة وصحة الرسالة.

وانظروا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة: ٦].

فالآية منبهة لما نقول من أن تلاوة القرآن على الضالين تكفي في هدايتهم، وإقامة الحجة عليهم متى كانوا يتدبرون، ومجادلتهم ـ بعد إسماعهم القرآن ـ إنما هي لازاحة الشبهة التي تخالط أوهامهم، أو تكشف عما يلفقونه من زور وبهتان.

والحقيقة أن دلالة القرآن على [صدق] محمد ﷺ لا تنحصر في ناحية واحدة، بل هي ذات وجوه مختلفة، يجتليها كل من يتلوه بيقظة، أو يلقي إليه أذناً واعية.

* **بلاغته:**

ومن هذه الوجوه: بلوغه في فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعاني، وجودة النظم منزلة تقف دونها فطاحل البلغاء.

ذلك أن البلاغة لعهد البعثة المحمدية قد وصلت إلى درجتها العليا، كان العرب يتنافسون في فنونها، ويطلقون الأعنة في مضمارها، حتى أتى محمد ـ صلوات الله عليه ـ بما عجز عن أن يأتي بمثله بلغاء العرب قاطبة.

ثم إنك تجد القرآن لا يتناول فناً من فنون الكلام إلا أتى باللفظ الرائع، والأسلوب البديع، وقصارى الواحد من بلغاء البشر أن يبرع في بعض فنون القول، ويضيق باعه في فنونه الأخرى، فلا يدرك فيها سوى المنزلة المتوسطة أو السفلى.

وإذا نظرت إلى الأفراد الذين يفوقون أقرانهم فصاحة وبلاغة، ويصبح كل واحد منهم علماً في عصره يشار إليه بالبنان، لم تجد منزلتهم بعيدة من منازل البارعين من غيرهم بعد أن يجعلها خارقة للعادة، كالبعد ما بين منزلة القرآن ومنازل غيره من منظوم الشعراء ومنثور الخطباء.

وإذا بدا لنا أن في الإسلاميين أو المحدثين من يفوق بلغاء العرب يوم البعثة، فالفضل في هذا عائد إلى القرآن؛ إذ كانوا يهتدون بنور بيانه، ويجتهدون في أن ينسجوا على منواله، وهم على ما سنه القرآن من طرق الإبداع، وأدناه من قطوف البيان، لَمْ يستطيعوا أن يأتوا بما يدانيه، فضلاً عما يقف بجانبه.

وقد كان رسول الله ﷺ أفصح العرب منطقاً، ونجد الفرق بين حديثه والقرآن الكريم جلياً واضحاً، ومن عقد بينهما مقايسه، رأى حق اليقين أن أولئك الذين يقولون: إن القرآن من تأليف محمد، قوم لم يذوقوا للبلاغة طعماً، أو لم يهتدوا للإنصاف سبيلاً.

ومن تلك الوجوه: ما احتواه من الأخبار عن أمور من قَبيل الغيب، وظهرت بعدُ كما أخبر. من شواهد هذا الوجه: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[المائدة: ٦٧].

فقد عاش رسول الله ﷺ وهو محاط بأعدائه الذين يتمنون له الموت العاجل، ويحرصون أشد الحرص على أن لا يتأخر في الحياة ساعة من زمان،

وهم أصحاب جرأة واغتيال، ولم يكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ ممن يجعل بينه وبين الناس حجاباً، ولا يهتم بأن يتخذ منهم حراساً، وكان يضع نفسه عندما يحمى وطيس الحرب بالمكانة الأولى، ومع ما لأعدائه من التلهف على قتله، والتهالك على الفتك به، ومع ماله من الانفراد عن أصحابه في كل حين من الأحيان، وظهوره لأعدائه كلما رغبوا في الاجتماع به، وتقدمه لمواقع الجهاد ليس بينه وبينهم حامية، لم يأته أجله إلا وهو على فراشه، وذلك مصدلق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧].

ومن شواهد هذا: قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾[الروم: ١ ـ ٤].

وقد وقع ما أخبر به القرآن، فعاد الروم بعد غلبهم إلى محاربة الفرس، وظهروا عليهم في السنة السابعة من الهجرة، ويروي أن خبر هذه الواقعة كان السبب في إسلام أناس من الجاحدين غير قليل.

ومن تلك الوجوه: قوة أدلته؛ فقد عرفنا أن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ قد نبت في وادي جاهلية، ونشأ في أمية، ونجد مع هذا حجج القرآن العقلية القائمة نافذة؛ كقوله في الاستدلال على وجود الخالق: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾[الطور: ٣٥].

فإن المعنى: أوجدوا من غير موجد، أم هم الذين أوجدوا أنفسهم؟!. وكلا القضيتين غير صحيح، فوجب أن يكونوا صنع قادر حكيم.

وكقوله في الاستدلال على وحدته: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[الأنبياء: ٢٢].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾[المؤمنون: ٩١].

ففي الآيتين برهان قائم على وجوب وحدة الإله، وأن الألوهية تقضي الاستقلال بالتصرف في السماوات والأرض تغييراً وتبديلاً، إيجاداً وإعداماً.

وكقوله يدفع شبهة منكري البعث، ويريهم أنه من قَبيل ما يدخل تحت سلطان قدرته: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: ٧٨ ـ ٧٩].

وهكذا نجده يأتي على شُبههم بما يزيحها، وينادي على غلطهم في إيرادها؛ كقوله تعالى في الرد على من ألحفوا في أن يكون الرسول مَلَكاً: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٩]، يريد: أنهم لا يستطيعون الأخذ من المَلَك وهو في صورته الملكية، ولو بعثه إليهم في صورة بشر، لعادوا إلى هذا اللبس الذي يلبسون، وما كانوا مؤمنين.

فجميع حجج القـرآن واردة على قانون المنطق الصحيح، ومن لم ينتفع بها، ويستقم على طريقتها، فلأنه استكبر عليها، أو لم يوقع النظر على وجه دلالتها.

قال الرازي: «وقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأحسن الأدلة العقلية: الأدلة التي بينها القرآن، وأرشد إليها الرسول، فينبغي أن يعرف أن أجلَّ الأدلة العقلية وأكملها

وأفضلها مأخوذ عن الرسول».

ومن تلك الوجوه: غزارة حِكَمِهِ ونبوغها؛ بحيث جاءت آخذة بأسباب السعادة، آتية على الخصال التي تسمو بها الأفراد والجماعات إلى سماء السيادة، ومن أمثلة هذا قوله تعالى:

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[فصلت: ٣٤].

فمن الطبائع الغالبة على البشر: التسرع إلى إذاية العدو بما أمكن. ومن مقاصد القرآن: تقويم الطباع التي تنزع إلى الأذى، وتبعث على التقاطع، فجاءت هذه الآية تأمر الإنسان بأن يسلك في دفع خصمه الطريقة التي هي أجمل؛ رجاء أن يكون لهذه المجاملة أثر صالح، هو قلب العداوة ألفة وصداقة.

ومن أمثلة هذا الوجه: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦].

أمر بالتثبت فيما ينقله الفاسق؛ حذراً من أن يكون حديثاً مفترى، فيكون العمل عليه على الجهالة، وعاقبة عمل الجاهل ندامة وخسران، وكم من بلاء يلحق الأشخاص أو الجماعات من اندفاعهم إلى العمل على خبر الفاسق قبل أن يتبينوا!.

وانظروا إن شئتم إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٨].

فهذه الآية نصيحة للأمة بأن لا ينخدعوا لقول لين، ووعد مؤكد يبذله لهم العدو، فيركنوا إليه بقلوبهم، ولا يأخذوا منه حذرهم، فإذا هو يبسط عليهم

سلطاناً طاغياً، ويريهم أنه ألانَ لهم القول خادعاً، وقطع لهم العهد غادراً، وإن هذه النصيحة لمن أبلغ النصائح التي تقوم عليها حياة الأمة وعظمتها، ولو حفظها المسلمون في سويداء قلوبهم، وجعلوها بمرأى من أبصارهم، لاستقاموا على عزتهم، ولم يفقدوا شيئاً من حريتهم.

ويدخل من قبيل حِكَم القرآن ونصائحه: عنايته بمكارم الأخلاق، فهو مملوء بالحثِّ على نحو الصدق، والحلم، والصبر، والسخاء، والشجاعة، والعدل، والوفاء، . تلك الأخلاق التي تقوم عليها قواعد العمران، وتتأكد بها روابط التوادد والاتحاد، وبها تحرز الأمة قوة معنوية، وأخرى مادية، فلا يجد أعداؤها الطريق إلى أن يطؤوا موطئاً يغيظها.

عني القرآن بأصول الفضائل التي هي مطلع السعادة، ومن أجلّ هذه الفضائل: ما يسمونه: الشجاعة الأدبية، وهي خلق الصراحة والإقدام على قول الحق؛ فقد جاء القرآن بها على أكمل وجه، وفرضها على الناس في أبلغ خطاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾[النساء: ١٣٥].

فهذه الآية تأمر الرجل أن يؤثر الحق على الهوى، ولا يبالي عند إقامة الحق ما ينازعه من عاطفة القربى، وإن بلغت أشدها، وكانت عاطفته نحو والديه اللذين ربياه صغيراً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩].

فهذه الآية تذكر الذين يكتمون ما يعرفون من الحق، وتجعل جزاءهم اللعنة من الله، ومن يتأتى منه اللعنُ من الملائكة والمؤمنين، ومَنِ الذي يجهل

المفاسد التي تجري على يد عالم يشتري رضا المخلوق برضا الله، ويتبدل متاع هذه الحياة بما هو خير وأبقى؟!.

وكم نتلو في القرآن من أنباء دعاة الإصلاح ما شأنه أن يطبع النفوس على خصلة الجهر بالحق، والدعوة إلى الاصلاح، وإن وجدوا الناس على أهواء غالبة، ولقوا في سبيل الدعوة أذى كثيراً. ومن أوضح الآيات في هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[يونس: ٧١].

فالأمة التي تملك الشجاعة الحربية لا تصل إليها يد العدو بأذى، فإذا ضمَّت إلى ذلك الشجاعة الأدبية، استقامت شؤونها الداخلية، وأمنت من أن يفسد عليها رؤساؤها أمر سياستها، أو يضلوا السبيل، فيهيئوا لأبنائها مستقبلاً منكراً شقياً.

ومن تلك الوجوه: ما أتى فيه من كلمات العتاب لرسول الله ﷺ على أشياء فعلها، أو همَّ أن يفعلها، ووجه دلالتها على أن دعوته لله خالصة: ما نراه في طبائع الرجال، ولا سيما ذوي المكانة في قومهم؛ من أنهم يحرصون ما استطاعوا على أن تكون جميع آرائهم في نظر الناس سديدة، وجميع أعمالهم حكيمة ولو كان محمد ﷺ من أولئك الذين يدعون القرب من الله، والكرامة عنده رياء وخداعاً، وكان هذا القرآن من تأليفه ـ كما يزعم الجاحدون ـ، لوجد نفسه في غنى عن هذه الآيات التي تحمل وتدلُّ قراءها على أنه فعل خلاف ما هو الأولى.

لو كان القرآن من تأليف محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكان محمد

من عظماء الرجال فقط، دون أن يكون مبعوثاً من الله هادياً ونذيراً، لما أودع في الكتاب آية: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠].

وقد كان لمحمد ـ صلوات الله عليه ـ أن يعتذر لابن أم مكتوم حين انصرف عنه بوجهه بأنه كان يرجو هداية أولئك الغاوين الذين تصدى لدعوتهم، وكل أصحابه يتلقون هذا العذر بقبول، ولكن الله تعالى يريد أن يعلمنا أن للنفوس الزاكية مزيداً وفضلاً على النفوس الطاغية، فليس لأحد أن يعبس في وجه نفس تطلب الخير، ملتفتاً عنها إلى نفس مضروبة في الغواية.

*** السيرة النبوية:**

سنَّة الله في الخليقة: أن من تظاهر بغير ما هو واقع، وادعى لنفسه ضرباً من ضروب الكمال زوراً ورياء، فلا بدَّ أن يفتضح أمره، ولو بعد أمد، ثم لا تكون عاقبته إلا خساراً وهواناً، والشأن في فضيحته ووخامة عاقبته أن تكونا على قدر ما يدعيه لنفسه من كمال واصطفاء، ولا كمال ولا عظمة للإنسان فوق مقام الرسالة والنبوة، فمن ادعى هذا المقام، فقد ادعى أقصى ما يمكن للبشر إدراكه، وادعى أنه أقرب الناس، أو من أقربهم إلى رب العالمين.

فلو أن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ ادعى الرسالة بغير صدق، لاستبان لمن اتبعه من ذوي العقول الكبيرة شيء مما ينقض هذه الدعوى، وقد عاش نبي الله بعد دعوى الرسالة نحواً من ثلاث وعشرين سنة، وهي مدة بالغة من الطول ما فيه كفاية لمن أراد أن ينظر في هذه الدعوى من كل ناحية، ويرقب

سيرة صاحبها؛ لعله يقف على أثر يدلّه على أنه يظهر غير ما يبطن، أو أنه يقول على الله ما لا يعلم. ومن شواهد أن سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانت نقية من كل ما يخدش في دعوى الرسالة: أن أشد الناس إيماناً به، وأملأهم قلوباً بمحبته وإجلاله، هم أطول الناس صحبة له، ومن لا يكادون يفارقونه إلا قليلاً؛ كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

ليس في سيرة محمد ﷺ ما يدخل الريب في صحة رسالته، فسيرته من أعظم الدلائل على أنه يحمل نفساً بالغة من العظمة ما لا يبلغه الإنسان الذي يطلب العلا من نفسه، ولو بلغ من العبقرية ما بلغ، ولقن من الحكمة ما شاء أن يلقن.

نرى في محمد ﷺ رجلاً نهض بأمة عظيمة في نحو عشرين سنة، كانت متفرقة متشاكسة، فأصبحت متحدة متآلفة. كانت الأمم تنظر إليها بعين الازدراء، فأصبحت معزَّزة الجانب، تفتح البلاد، وتضرب على هذه الأمم بسلطانها الكريم. كانت في ظلمات من الجهل، فأصبحت في نور من العلم دون أن يجلب إليها من بلاد أجنبية، وإنما هو ذلك الرجل الناهض بها يلقي إليها الحكمة بنفسه، ويزكّيها بما يتحلى به، أو بما يدعوها إليه من خصال الشرف والحمد.

نرى في محمد ﷺ رجلاً أقام بين هذه الأمة شريعة تقرر حقوق الأفراد والجماعات، وتشتمل بتفاصيلها وأصولها على كل ما تحتاج إليه في فصل القضايا من أحكام هي مظهر العدل والمساواة، ولم يعقد لهذه الشريعة لجنة تتألف من أشخاص درسوا قوانين بعض الأمم، وإنما هو ذلك الرجل الناهض بها، يملي عليها أحكام الوقائع، مدنية كانت أو جنائية، يمليها عليها في

الحضر والسفر، يمليها عليها في يوم السلم، أو في مواطن القتال.

نرى من محمد ﷺ رجلاً يستخف بأشياع الباطل، ولا تأخذه الرهبة من كثرة عددهم، ووفر أموالهم، فيلاقيهم بالفئة القليلة، ويفوز عليهم فوزاً عظيماً، ولم يكن بالرئيس الذي يبعث بالجيش إلى مواقع القتال، ويقعد خلافهم حذراً من الموت، بل ترونه يقود الجند، ويدبر أمر القتال بنفسه، ويقابل الأعداء بوجهه، ولا يولِّيهم ظهره، وإن تزلزل موقف جنده، وانصرفوا من حوله جميعاً.

نرى من محمد ﷺ رجلاً يصرف عنايته في تزكية الأمة، وتدبير شؤونها، والقيام بجهاد عدو هاجم، أو عدو متحفز للهجوم، ولم تشغله هذه الأعمال الخطيرة عن أن يقوم الليل قانتاً لله متهجداً، ثم يملأ جانباً من النهار في عبادة ربه متطوعاً.

نرى من محمد ﷺ رجلاً زاهداً في متاع هذه الحياة، ولو كان للشهوات عليه من سبيل، لذهبت به في ابتغاء العيش الناعم مذهبَ أولئك الذين يتظاهرون بالزهد إذا لم يجدوا، حتى إذا ما أيسروا، ورأوا زهرة الحياة الدنيا طوعَ أيمانهم، خلعوا ثوب الزهد، وتحولوا إلى طبيعة الشره كثيراً أو قليلاً.

أما تعدد زوجاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فقد كان لمصالح جليلة، ومقاصد نبيلة، ندع تفصيل القول فيها إلى محاضرة أخرى.

وهل في ميسور ذلك البائس[1] الذي يجحد عظمة محمد ﷺ أن يدلنا على رجل ألَّف بين أمة متفرقة، ثم أفاض عليها حكمة بالغة، وأقام فيها

---

(١) المقصود: علي عبد الرازق ـ انظر: الرد على مقالة (العظمة) في هذا الكتاب.

شريعة عادلة، وجعلها ـ وهي فئة قليلة ـ تظهر على الأمم الكثيرة، دون أن تكون أكثر منها مالاً، وأجود منها سلاحاً.

ثم إذا نظرنا إلى هذا المصلح الكبير، والمشرع الخطير، والمجاهد الظافر، نجده طلق اليد إذا بذل، واسع الحلم إذا أوذي، صادق اللهجة إذا حدّث، وبعبارات أوجز: نجده المثل الأعلى لكل خصلة تطمح إليها الهمم الكبيرة.

إن هذا إلاَّ محمد بن عبدالله الذي بعثه الله في الأميين رسولاً.

وقد دلَّ أبو بكر الصديق ﷺ على أن خلقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالغ من الكمال غاية تنقطع دونها الآمال، فقال حين تشاغل بحرب أهل الردة، واستبطأته الأنصار: «أما كلفتموني أخلاق رسول الله ﷺ، فوالله! ما ذاك عندي، ولا عند أحد من الناس».

*** المعجزات المحسوسة:**

الإسلام دين عام يتوجه الخطاب به إلى كل قبيل، ولا يختص به جيل دون جيل، ومن أجل هذا جعل الله تعالى لصدق المبعوث به دلائل تدرك بالعقل، حتى يمكن للأجيال ـ على اختلاف أزمنتها ـ أن تهتدي بها، فيكون إيمانها عن بينة لا عن تقليد، وقد عرفنا أن هذه الدلائل ترجع إلى ما احتواه الكتاب العزيز من حكمة وبلاغة، ثم إلى أخـلاق الرسول، وسيرته العملية المنقولة إلينا على طرق صحيحة.

وهناك نوع ثالث من أعلام النبوة شهده الناس الذين أدركوا عهد البعثة نسميه: المعجزات المحسوسة، وشأننا في هذا أن نضيفه إلى تلك الدلائل المعقولة متى كان سنده صحيحاً، ووسعته دائرة الإمكان.

ولهذا النوع من المعجرات أثر في زيادة الإيمان، وإن نقل إلينا على طرق الآحاد؛ فإن أخبار الآحاد المستوفية لشروط الصحة يفيد كل واحد منها ظناً قوياً، والدلائل الظنية إذا تعددت، وأخذ بعضها برقاب بعض، أصبحت بجملتها كالخبر المتواتر، لا تقصر عن أن تضع في النفس اعتقاداً جازماً.

درسنا هذا النوع من المعجزات، فوجدناه يروى بأسانيد متينة إلى أمة كبيرة من أكابر الصحابة؛ كعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعدي بن حاتم، وعائشة أم المؤمنين، وعمران بن حصين، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، وجماعة من غير هؤلاء، ويرويه عن أصحاب رسول الله ﷺ جماعات من أهل العلم والتقوى، حتى يتصل بأمثال الإمام مالك بن أنس، والإمامين: البخاري، ومسلم.

ومن أمثلة هذا النوع: إخباره ﷺ بغيوب واقعة؛ كنعيه للنجاشي يوم موته، وقوله للصحابة: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»، أو إخباره بغيوب مستقبلة؛ كقوله لعدي بن حاتم: «لئن طالت بك الحياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف إلا الله، ولئن طالت بك حياة، لتفتحن كنوز كسرى». قال عدي بن حاتم: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى.

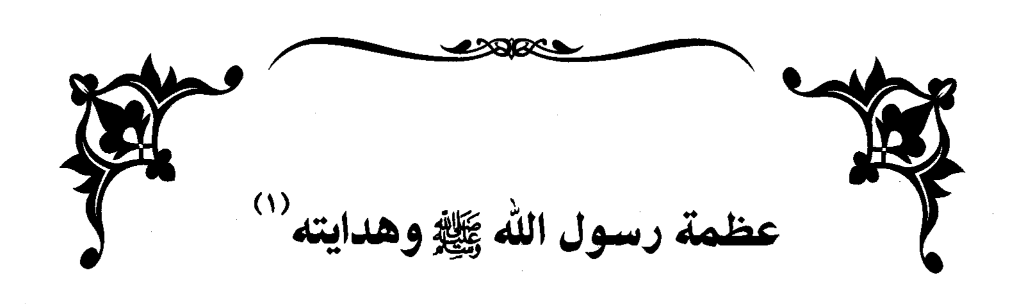
ومن أمثلة هذا النوع: دعاؤه ﷺ، واستجابة الله له في الحال؛ كواقعة استسقائه وهو قائم في خطبة الجمعة، والسماء مصحية، فما انتهى من الخطبة حتى أرسلت السماء مدراراً.

إلى غير هذا مما لا يسع المقام الحديث عنه بتفصيل؛ كوقائع تكثير الماء أو الطعام القليل، وآية انشقاق القمر التي لم تبلغ شُبَهُ منكريها أن تضعف الثقة بصحة روايتها ذاتِ الطرق المتينة المتعددة.

وهذا النوع من المعجزات قد يقصد به إقامة الحجة على الجاحدين الذين يؤخذون بالدلائل المحسوسة أكثرَ مما يؤخذون بالدلائل المعقولة، وقد يجري بمحضر المؤمنين؛ لتطئمن قلوبهم، ويزدادوا إيماناً على إيمانهم، ومنها ما يشهده الرسول وحده؛ ليرى من آيات الله ما لم يكن قد رأى؛ كواقعة الإسراء، وعلى هذا يدل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١].

فمن تدبر القرآن الكريم، ودرس السيرة النبوية بعقل سليم، ونظر فيما يرويه أئمة الحديث من المعجزات نظرَ الراسخين في العلم، لم يكن منه إلا أن يكون مسلماً عقيدة قيِّمة، وعملاً صالحاً.





عظمة رسول الله ﷺ وهدايته[1]

أيها السادة!

رأت جمعية الهداية الإسلامية أن تحتفل بذكرى مولد الرسول الأعظم محمد ﷺ، ولا معنى لا حتفالها بهذه الذكرى إلا أن تلقي على حضرات المحتفلين كلمات تلتقط من بحر عظمته، أو تقتبس من سني هدايته. جعلت أنظر هذه العظمة؛ لأصف جانباً منها، وأبصر بتلك الهداية؛ لأقبض قبضة من أثرها، فأحجم الفكر روعة، ونكست الخطابة رأسها صاغرة.

وذكرت قول الوزير ابن الخطيب:

أيـروم مخلـوق ثنـاءك بعـدما ... أثنى عليـك الواحـد الخـلاقُ؟!

فخطر لي أن أستضيء في حديثي عن عظمة رسول الله ﷺ وهدايته بآيات من الكتاب العزيز، وسبق إلي في التلاوة قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١]، فرأيت في الآية مرعى خصيباً، ومجالاً فسيحاً.

ننظر في سيرة الرسول الأكرم، فنرى ما يبهر الأبصار وضاءة، ويملأ

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الحادي عشر من المجلد الثاني الصادر في ربيع الآخر ١٣٤٩ . محاضرة للإمام في احتفال جمعية الهداية الإسلامية بذكرى مولد الرسول الأعظم ﷺ ـ مساء يوم الخميس ١٢ ربيع الأول ١٣٤٩ .

القلوب جلالة، فما شئتم من أخلاق عظيمة، وحكم غزيرة، وهمم خطيرة، وأعمال جليلة، فهو الرسول الذي بعثه الله تعالى لإبلاغ شريعته المحكمة، وجعله المثل الأعلى لأقصى ما يبلغه البشر في مراقي الكمال والعظمة.

ومن أجل هذا عهد الله إلى الناس كافة أن يقتدوا بسنته، ويعملوا للسعادة على سيرته، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١].

تتناول الآية الكريمة كل ما يتحلى به ﷺ من محاسن الشيم، أو يصدر منه على أنه شـرع سـماوي، إلا ما علم أنه مختص به؛ كالوصال الذي هو إلحاق الليل بالنهار في الصيام، أما ما يفعله على وجه العادة أو الجبلة، دون أن يظهر فيه معنى للتشريع؛ كالقيام والقعود في بعض الأمكنة أو الأزمنة، وكتركه أكل بعض الأطعمة مع تصريحه بإباحتها، فذلك ما لا يتناوله طلب التأسي به، وإن كان عبدالله بن عمر لا يدع التأسي في مثل هذا ما أمكنه.

وقد يختلف أهل العلم في بعض ما يفعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فيذهب قوم إلى أنه فعله على وجه التشريع، ويذهب آخرون إلى أنه وقع على سبيل العادة.

ومثال هذا: أنه ﷺ كان يرسل شعر رأسه إلى أذنيه، فقال بعض أهل العلم؛ كأبي بكر بن العربي: إنه من قبيل الهيئات المشروعة، فالحالق لشعر رأسه يعد تاركاً لما هو سنة، وقال كثير منهم: إنه من قبل العادات التي يأخذ فيها كل قوم بما يجري في وطنهم أو زمانهم.

ولو تفقهنا في هذه الآية الكريمة، لانكشف عنا ظلام البدع والمحدثات؛ ذلك أننا نتعرف سيرة رسول الله من طرق الروايات الصحيحة، ونتأسى بها في التقرب إلى الله، فلا نتعدى حدودها بإحداث ما لا يصح أن يكون

قربة في حال.

أما احتفالنا بذكرى مولده الشريف، فإنا لم نفعل غير ما فعله حسان ابن ثابت ﷺ حين كان يجلس إليه الناس، ويُسمعهم مديح رسول الله ﷺ في شعر، ولم نفعل غير ما فعل علي بن أبي طالب، أو البراء بن عازب، أو أنس بن مالك ﷺ حين يتحدثون عن محاسن رسول الله الخُلُقية في جماعة.

ليس في استطاعتي أن أفصل القول في السيرة النبوية التي أرشدت الآية إلى اقتفائها، وإنما أنبه على ناحيتين، ترينا إحداهما: كيف كان الرسول ﷺ يطيع الخالق بإخلاص، وترينا أخراهما: كيف كان يعامل الناس في نصح، ويسوسهم في حكمة ورفق.

نقلب الوجه في طريقته المثلى، فنجده قد أسلم وجهه للخالق، واستقام على طاعته آناء الليل وأطراف النهار، فكان يتهجد في حجرته كما يتهجد في المسجد، ويعبد الله خالياً كما يعبده في جماعة، ويبتغي رضوانه في السر كما يبتغيه في العلانية.

ونحن نعلم أن من أمهات المؤمنين من كان أبوها من أشد الناس إيماناً به، وإجلالاً لقدره؛ كعائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، ومنهن من كان أبوها من أشد الناس عداوة ومحاربة له؛ كأم حبيبة بنت أبي سفيان، فلو لم يكن يقوم الليل على الدوام كما فرض عليه القرآن، لعلم به المخلصون في صحبته، ودخلهم الريب في صحة دعوته، أو علم به خصومه الألداء فوجدوا في أيديهم ما يطعنون به في صدق نبوته.

نحول النظر إلى موقفه تجاه الخالق حين تمسه الضراء، فنراه كالعلم

الشامخ تهب عليه عواصف البلاء، فلا تلقى إلا قلباً صابراً، وقدماً ثابتاً، وحسبكم شاهداً على هذا: ما كان يلاقيه في بعض غزواته من شدائد، فلا يكون من هذه الشدائد إلا أن تؤكد عزمه، وتشد أزره، وتزيد داعية توكله على الله قوة، وكذلك ينبغي للمسلم أن يواجه البأساء في صبر ووقار، ويعمل على كشفها ما استطاع، ويضيف إلى هذا الدواء الناجع الاعتمادَ على من بيده ملكوت كل شيء، فقد قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب: ٢١].

هذا شأنه ﷺ في الخطوب، أما إذا أفاض الله عليه نعمة، فإنها تنزل بأرض طيبة المنبت، فلا تثمر إلا شكراً، ومن شكره للنعمة: أن لا يتعاظم بها، أو يلبس في معاملة الناس حالاً غير ما كان يلبسه قبلها. وقد كان حاله ﷺ في الزهد والتواضع بعد فتح مكة وغيرها من البلاد كحاله يوم كان يدعو إلى الله وحيداً، وسفهاء الأحلام في مكة يسخرون منه ويضحكون.

نصوِّب النظر بعد هذا إلى سيرته في الخليقة، فنراهم أمامه أربع طوائف:

١ ـ **طائفة المهتدين**: وهؤلاء يلاقيهم في بشر وطلاقة محيا، ويخالطهم في تواضع يعلِّمهم به أدب المساواة بين الرئيس والمرؤوس، ويحمل لهم من الرحمة ما هو أرق من النسيم، وأجود من الغيث العميم.

أما البشاشة وطلاقة المحيا، فإنا نقرأ في الصحيح عن جرير بن عبدالله البجلي: أنه قال: «ما حجبني[1] رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم». فالذين يلقون ذوي النفوس الطاهرة في كلوح وانقباض بعلة المحافظة على الوقار، لم يهتدوا إلى السيرة الحميدة سبيلاً.

---

(١) ما منعني من الدخول إليه إذا كان في بيته ما استأذنت عليه.

وأما التواضع، فقد قال أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً، وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير! ما فعل النغير؟». فالذين يخرجون للناس في وجوه عليها غبرة الكبرياء إنما يلقون قلوباً نافرةً، وألسنةً ساخرةً، ولقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة لو شاؤوا أن يكونوا أجلاء محترمين.

وأما الرحمة، فقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨]، وحدثنا عن هذه الرحمة مالك بن الحويرث إذ قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَة(١) متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أننا اشتقنا أهلنا، وسألَنا عمن تركنا وراءنا من أهلنا، فأخبرناه، وكان رقيقاً رحيماً، فقال: «ارجعوا إلى أهليكم، فعلموهم، ومروهم، وصلُّوا كما رأيتموني أصلي».

٢ ـ **طائفة المنافقين**: وهؤلاء كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعاملهم بما يشبه معاملة المهتدين من الرفق بهم، والإحسان إليهم، ومقابلة إساءتهم بالعفو. نقرأ في السيرة: أن طائفة منهم هموا بقتله في طريق إيابه من غزوة تبوك، وخاب سعيهم بما أوحى الله إليه من أمرهم، فقال بعض المسلمين: ألا تأمر بهم يا رسول الله فنضرب أعناقهم؟ فكان جوابه أن قال: «أكره إن يقول الناس: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه».

٣ ـ **طائفة المخالفين المسالمين**: وهؤلاء يلقاهم بالجميل، ويقسط إليهم، ولا يهضم لأحد منهم حقاً، يأخذ فيهم بأدب قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) جمع شاب.

﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة: ٨]. ونقرأ في الصحيح: أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ، فمرض الغلام، فعاده رسول الله ﷺ، ودعاه إلى الإسلام، فأجاب الدعوة، ومات مسلماً. وحسن معاملته ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمخالفين الذين دخلوا معه في عهده، أو رضوا بأن يعيشوا تحت راية الإسلام، من أوضح الشواهد على سماحة الدين الحنيف، وبنائه على رعاية قاعدتي: الحرية، وتوطيد السلام، فراية الإسلام صالحة لأن تخفق على رؤوس أمم مختلفة في عقائدها، متفاوتة على مرافق حياتها.

٤ ـ **طائفة المخالفين المحاربين:** وهؤلاء يخرج لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في مظهر الحزم والاحتراس، ويدفعهم بالتي هي أحكم وأعدل، فيرفق بهم إن كان هنا موضع للرفق، ويأخذ فيهم بسنة العزم إن طغى بهم الشر، فلم يكن الرفق ليزيدهم إلا تمرداً.

فإذا أذن ـ صلوات الله عليه ـ بقتل كعب بن الأشرف، فلأن كعباً هذا كان شاعراً، وكان يهجو رسول الله، ويحرض عليه كفار قريش، ويفعل بعد هذا شيئاً هو أشد على قلوب العرب من وقع السهام النافذة، وهو أنه كان يشبب بنساء المسلمين، وقد احتمل منه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الأذى حيناً، ولما أبى كعب أن ينزع عن إثارة هذه الفتن، أذن لأحد الأنصار في قتله؛ ليميط عن سبيل الدعوة إلى الله حية تسعى، ويدفع عن أعراض المسلمين شعراً مقذعاً.

قال سخيفٌ معروف في العراق يتزلف لمذهب النصرانية: إن عيسى فدى العالم بنفسه، ومحمداً قاتل أعداءه حرصاً على حياته.

ومن ذا يجهل أن محمداً ﷺ قد أفاض على العالم حكمة وهداية

وإصلاحاً، وما الحسام الذي يأمر بانتضائه إلا كمبضع طبيب ناصح يشرط به جسم العليل؛ لينزف دمه الفاسد؛ حرصاً على صحته وسلامته، ومن تقصى السيرة النبوية، وجد فيها ما يصدق قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله، فينتقم لله».

فمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقاتل الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون حرصاً على حياته، وإنما كان يقاتلهم حرصاً على حياة الفضيلة، وظهور الحق، وإقامة نظم المدنية المهذبة، ولكن الناشئين على اللهو واتباع الشهوات لا يفقهون.





شجاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ[1]

نحتفل بذكرى مولد المصطفى ﷺ، وشأننا في مثل هذا الاحتفال أن نورد من سيرته الفاخرة ما فيه أسوة حسنة، أو آية على صدق بينته، وإن سيرة تبهر العيون سناء، وتطرق لها القلوب مهابة، لا يبلغ اللسان من وصفها إلا مقدار ما يبلغه واصف الشمس وهو لا يعرف منها سوى أنها كوكب ينسخ طلوعه سواد الليل.

وإذا استدعى هذا الاحتفال أن أصف شيئاً من سيرة صاحب الرسالة العظمى، فإني أخص كلمتي بخصلة خطيرة هي من أول ما يتوقف عليه النجاح في الدعوة، وهي شجاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فقد كان المثل الأعلى في رباطة الجأش، واستقبال الخطوب بجبين طلق، وعزم لا يلتوي.

ولاحــت نجــوم للثريــا كأنهــا　　　جبين رسول الله إذ شاهد الزحفا

كان ﷺ يتقدم في الحرب حتى يكون موقفه أقرب موقف من العدو، وإذا اتقدت جمرة الحرب، واشتد لهبها، آوى إليه الناس، واحتموا بظله

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الحادي عشر والثاني عشر من المجلد الثالث الصادران في ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٥٠. محاضرة الإمام في الاحتفال بذكرى المولد الشريف الذي أقامته جمعية الهداية الإسلامية مساء يوم الاثنين في ١٢ ربيع الأول ١٣٥٠.

الشريف، قال الإمام علي ﷺ: إنا كنا إذا حمي البأس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ. وقال: ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو.

ومما قرأنا في غزوة أحد: أن أبا سفيان جمع جيشاً من قريش وأحلافهم، وأقبل بهم إلى حرب رسول الله في المدينة، فاستشار النبي ﷺ أصحابه: أيخرج إليهم، أم يمكث في المدينة؟ وكان رأيه أن يتركهم حتى ينفذوا إلى المدينة، فيقاتلهم المسلمون في أفواه أزقتها، فبادر جماعة من أفاضل الصحابة، وطلبوا الخروج إلى العدو بإلحاح، فنهض ﷺ، ودخل بيته، ولبس لامته. وخرج عليهم، وقد انثنى عزم أولئك الذين كانوا قد ألحوا عليه في الخروج، وقالوا له: إن أحببت أن تمكث في المدينة، فافعل، فقال: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

هذه الكلمة لا تصدر إلا من قلب ملؤه الشجاعة، وفيها شاهد على أن اختياره للمقام بالمدينة حتى ينفذ إليهم العدو، لم يشبه خاطر التهيب من لقائهم، وإنما هو الرأي والمكيدة في الحرب.

«ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه». هذه الكلمة لا يقولها إلا من نهض ليقضي حياته في الجهاد، ووجد بين جنبيه شجاعة يصغر أمامها كل عظيم، وكذلك كان المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ، يحتقر كل ما يسميه الناس خطراً، ويثبت في وجه كل ما تتزلزل له أقدام الأبطال رهباً، وهل يتوارى عن الموت، أو يقطب عند لقائه من يتيقن أن موته إنما هو انتقال من حياة مخلوطة بالمتاعب والمكاره، إلى حياة أصفى لذة، وأهنأ راحة، وأبقى نعيماً؟!.

بُلي المسلمون في تلك الغزوة حتى وَلَّوا المشركين أكتافهم، ولكن رسول الله ﷺ ثبت بمكانه حتى انكفأت عليه كتائب المشركين، وهو في نفر قليل من أصحابه، فهشموا البيضة على رأسه، وجرحوا وجهه الكريم، وكسروا ربَاعيته، ولدينا مشاهد صدق على أنه كان يعظ الناس حين خفوا إلى الهزيمة وعظاً بليغاً. قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[آل عمران: ١٥٣]، ولما تقطعت من حوله أسباب النصر الظاهرة، ولم يبق من سبب إلا سنة تأييد الله الخفية، أخذ حصيات، ورمى بها في وجوه المشركين، فأدبروا.

ومن أقرب الشواهد على أنه يأخذ بوسائل الحذر، ويلاقي الأخطار في سكينة ورباطة جأش: أنه كان يوم هاجر، وآوى إلى غار ثور احتراساً من أن يبصره عيون المشركين، رأى الشيخ الوقور أبا بكر الصديق وقد ساوره حزن، فثبت فؤاده، وقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠].

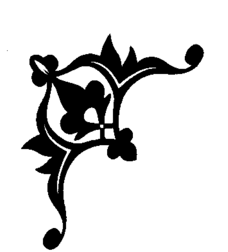
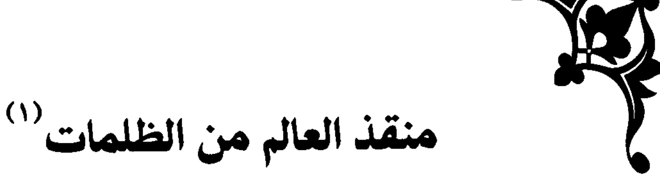
والشأن في رئيس القوم الذي يأنس في عدوه قوة تفوق قوته أضعافاً مضاعفة: أن يقف موقف الدفاع؛ لأن الغلبة إلى الدفاع أقرب منها إلى الهجوم، وقلما حدثته نفسه أن يهاجم قوماً هم أكثر منه عدداً، وأوفى عُدداً، أما رسول الله ﷺ، فقد بلغه أن الروم وقبائل من العرب يجمعون جموعهم ليزحفوا على المدينة، فنادى بالتهيؤ لغزو الروم، وجدَّ في السير حتى انتهى إلى تبوك، فقذف الله في قلوب أولئك القوم رعباً، فأتاه رؤساؤهم، وطلبوه إلى الصلح، وأعطوه الجزية، ولما أمن مكرهم، قفل إلى المدينة راجعاً.

أما إقدامه في الدعوة إلى الحق، وهو ما يسمونه: الشجاعة الأدبية، فأوضح ما يعبر عنه: أنه نشأ بين قوم غلاظ شداد، لا قانون يرهبهم، ولا محاكم

تزجرهم، فقام يطعن في دينهم، ويذم آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويعيب كثيراً من عاداتهم، وطالما آذوه فاحتمل الأذى، وتوعدوه فما وهن لوعيدهم، حتى كأن وعيدهم له حث وإغراء.

فحقيق على علماء الإسلام وزعمائه أن يقتدوا برسول الله ﷺ في أدب الشجاعة التي هي الإقدام في حكمة؛ فقد جرت سنة الله على أن الحق لا يمحق الباطل، والإصلاح لا يدرأ الفساد، إلا أن يقيض الله لهما رجالاً يؤثرون الموت في جهاد على الحياة في غير جهاد.



منقذ العالم من الظلمات(1)

كان العالم يتخبط في ظلمات بعضها فوق بعض: ظلمة من الجهل، ظلمة من دناسة الأخلاق، ظلمة من منكر الأعمال، فبعث الله المصطفى ﷺ ليخرج الناس من هذه الظلمات إلى نور يسعى بين أيديهم في الحياة الأولى، ويهديهم السبيل إلى السعادة في الحياة الأخرى.

طلع محمد ـ صلوات الله عليه ـ بكتاب ممتع بالحكمة، مقوم للأخلاق، مصلح للأعمال، منظم لشؤون الحياة، تدبرته فئة قليلة، واتخذته قائدها المطاع، فكانت خير أمة جاهدت في الله فانتصرت، وغَلبت فرحمت، وحكمت فعدلت، وساست فأطلقت الحرية من عقالها، وفجرت المعارف ينابيع بعد نضوبها، واسألوا التاريخ؛ فإنها قد استودعته من مآثرها الغر ما بصر بضوئه الأعمى، وازدهر في الأرض ازدهار الكواكب في كبد السماء.

هذه حقائق لم أنحُ فيها نحو المبالغة، فإن المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ قد قضى على عبادة الأوثان، والغلو في الخضوع لغير الواحد القهار، وقضى على الإلحاد وإنكار الإله، فأصبح المؤمنون أمماً بعد أن كانوا أفراداً،

---

(1) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الحادي عشر من المجلد الرابع الصادر في ربيع الثاني ١٣٥١هـ. كلمة الإمام في احتفال جمعية الهداية الإسلامية بذكرى مولد المصطفى ﷺ مساء يوم السبت ١٢ ربيع الأول ١٣٥١ .

وأنتم تعلمون أن الغلو في تعظيم غير الله رجس من عمل الشيطان، وأن الالحاد داعية الفسوق والطغيان، فلدعوة محمد ﷺ الفضل الأكبر في رفع النفوس من حضيض الشرك إلى سماء التوحيد الخالص، ولها الفضل في تطهير النفوس من خبث الإلحاد الذي يشوه فطرتها، ويوفر أسباب شقوتها.

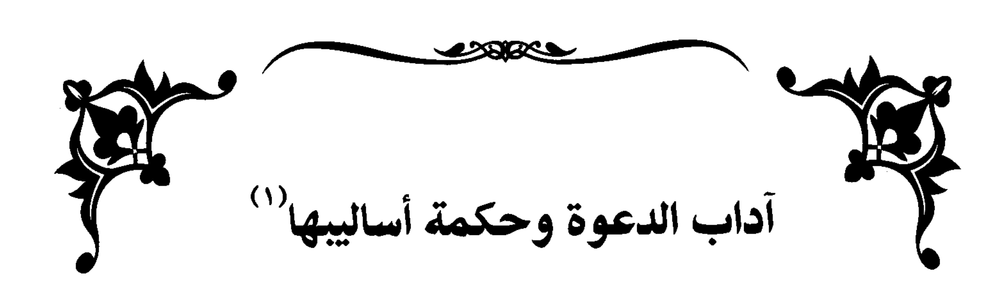
جاهد المصطفى ﷺ الجهل، وشرُّ الجهل عدمُ معرفة مبدع الكائنات بحق، وجاهد الأخلاق الرذيلة، فكرّه للنفوس الجزع، والجبن، والبخل، والصَّغار، والكِبر، والقسوة، والأثرة. وعلمها الصبر، والشجاعة، والكرم والعزَّة، والتواضع، والرحمة، والإيثار.

علّمها الصبر، فهان عليها كل عسير، وعلمها الشجاعة، فحقر أمامها كل خطير، وعلمها الكرم، فجادت في سبيل الخير بكل نفيس، وعلمها العزة، فسمت إلى كل مقام مجيد، وعلمها التواضع، فتألفت كل قلب سليم، وعلمها الرحمة، والرحمةُ رباط التآزر والتعاون على تكاليف الحياة، وعلمها الإيثار، والإيثارُ أقصى ما يبلغه الإنسان من مراتب الكمال.

رفع المصطفى ﷺ أعلام العلم، وهدى إلى مكارم الأخلاق، ثم علَّم الإنسان كيف يعمل صالحاً، ويعيش آمناً، وهو الذي أوحي إليه بأصول تجعل المدنية محكمة البناء، وآدابٍ تكسوها رونقاً وبهاء.

فإذا احتفلنا بذكرى مولد الرسول الأكرم، فغنما نحتفل بذكرى منقذ العالم من ظلماته الثلاث، وستسمعون من حضرات الخطباء والشعراء شيئاً من تفاصيل هذا الذي لوَّحت إليه بكلمتي الموجزة، والسلام عليكم ورحمة الله.





آداب الدعوة وحكمة أساليبها(١)

الإسلام دين يدعو إلى أقوم محجَّة، ويرمي إلى أشرف غاية، وما دعوته إلا هداية الناس إلى سبيل الحق، وتنبيهم إلى مكان الفضيلة، وما غايته إلا أن يحيا الناس حياة طيبة، ويتمتعوا بمدنية فاضلة، ثم يفوزوا في الأخرى بسعادة خالدة.

وللحق نور باهر، وللفضيلة جمال ساحر، ولكن النفوس الناشئة في بيئات خاسرة، أو الغارقة في أهواء سافلة، يقف أمامها الحق، فتخاله باطلاً، وتتعرض لها الفضيلة، فتحسبها شيئاً منكراً، فلا يكفي في دعوة الحق أن يطرق الداعي بها المجالس، ويصدع بكلمة الحق والفضيلة من غير أن يشد أزرها بالحجة، ويتخير لها الأسلوب الذي يجعلها مألوفة للعقول، خفيفة الوقع على الأسماع.

وفي القرآن الكريم ما يدلكم على أن الدعوة الصادقة لا يثبت أصلها، وتمتد فروعها، وتؤتي ثمرها، إلا أن يقوم بناؤها على أساس الحجة، ويذهب بها الداعي كل مذهب حكيم، ويأخذ فيها بكل أدب جميل، اقرؤوا في شواهد

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن التاسع والعاشر من المجلد السادس الصادران في ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٥٣. محاضرة الإمام في الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في دار جمعية الهداية الإسلامية مساء يوم الأحد ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٣.

هذا قولـه تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[العنكبوت: ٤٦].

وكذلك كانت دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الإسلام، فإنها كانت محفوفة بما يقرِّب العقول إلى قبولها، وتألف النفوس إلى سماعها، فكان ﷺ يراعي في إبلاغها الطرق الكفيلة بنجاحها، فيورد لكل مقام مقالاً يناسبه، ويكسو كل معنى من المعاني ثوباً يليق به، ويخاطب كل طائفة على قدر عقولهم، ويلاقيهم بالسيرة التي هي أدعى إلى إقبالهم، وأسرع أثراً في صرفهم عن غوايتهم.

كان ﷺ يدعو إلى الحق، ويتلو الدعوة بالحجة، والقرآن الكريم لم يدَع أصلاً من أصول الدين إلا أقام عليه البرهان الساطع، وأزاح عنه كل شبهة، وكثيراً ما نقرأ في قصص الداخلين في الإسلام قديماً وحديثاً: أنهم دُعوا إلى الإسلام، وقرئ عليهم القرآن، فانقلبوا إلى إيمان لا تحوم عليه شبهة، ولا تزلزله عاصفة فتنة.

يدعم ﷺ الدعوة بالحجة، ويدفع ما كان يعرض للناس من شُبه. قال المغيرة بن شُعبة:

بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا فيما قالوا: أرأيت ما يقرؤه: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾[مريم: ٢٨]، وقد كان بين عيسى وموسى ما قد علمتم، قال: فأتيت ﷺ، فأخبرته، قال: «أفلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، والصالحين الذين كانوا قبلهم؟».

ومن طرق دعوة الإسلام: التذكير مما يصير إليه المتقون من عزّ وسلامة،

وما يلحق المجرمين من خزي ومهانة، ومن التذكير ما يرجع إلى البشارة بالخير في الدنيا، والحسنى في الآخرة، ومنه ما يرجع إلى الإنذار بسوء المنقلب في هذه الدار، أو عذاب الهون في تلك الدار، وللبشارة والإنذار أثر كبير في حث المؤمنين على الحسنات، وردعهم عن السيئات، وأثر البشارة والإنذار في غير المؤمن: أنهما يدعوانه إلى النظر في الدعوة، وإذا نظر بروية، أدرك أنها حق، فيفتح لها صدره، ويمد إليها عنقه مذعناً.

ومن مظاهر دعوته ﷺ: إرسال الحكم البالغة، وكثرة ما في الكتاب العزيز والحديث الشريف من الحكم الرائعة تدل الناظر على أن دعوة الإسلام قول فصل، وما هي بالهزل، ولو كان في المقام سعة، لسقت إلى حضراتكم من تلك الحكم الغالية ما يبلغ عنان السماء، ولو كان في المقام سعة، لأوردت جانباً من الحكم التي يذكرها الناس لشاعر أو خطيب بالإعجاب، وبينت أن معنى تلك الحكمة يقتبس من كتاب الله، أو حديث رسول الله ﷺ.

فانظروا مثلاً قول المعري:

فلا نزلت بأرضي أو بقومي سحائبُ ليس تنتظِمُ البلادا

تجدوا روح هذا المعنى في قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وكنت قرأت في بعض كتب الفلسفة: أن الصداقة لا تدوم إلا بين الناس الطيبين، فحضر في ذهني عند قراءة هذا البحث قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

ظهر الدين الحنيف، وامتدت ظلاله في الآفاق، بما كان معه من آيات بينات، وحِكم بالغات، أما السيف، فإنه يجرد لدفع عدو مهاجم، أو متحفز

للهجوم، وقد تُجرد السيوف من أغمادها؛ لتسير دعوة الحق تحت ظلالها آمنة مطمئنة، فدعوى أن الإسلام انتشر بالسيف يكذبها التاريخ الصحيح، ويطعن فيها أن الدين يكتفي من غير المسلمين بالجزية، ويرضى لهم أن يعيشوا وهم تحت رايته آمنين على أنفسهم وأعراضهم، متمتعين بأموالهم وشعائر دينهم.

وإذا تراءى لك أن النبي ﷺ قد استعان في بث الدعوة بما كان يهبه لأشراف القبائل من المال، قلنا: إن الهدايا تذهب بالأحقاد، وتضع مكان التقاطع ائتلافاً، فغايتها أنها تجعل القلوب متهيئة للنظر في صدق الدعوة، أما العقيدة، فإنما تتصل بالقلوب من ناحية الآيات البينات.

وكان ﷺ يؤثر بعض حديثي العهد بالإسلام بجانب من المال؛ للاحتفاظ ببقائهم على الهداية، يفعل ذلك حيث يظهر له أن إيمانهم لم يرسخ في قلوبهم رسوخ ما لا تزلزله الفتن، وإلى أمثال هؤلاء أشار ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله: «إني لأعطي الرجل، وغيرُه أحبُّ إليَّ منه؛ خشية أن يكبه الله في النار».

ومن أدب دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أخذُه فيها بالصبر والرفق والأناة، فكان يعرضها في لين من القول، ويقابل الجاهل بالإعراض، والمسيء بالعفو أو الإحسان، وإن أذى كثيراً كان يلحقه من مشركي قريش وسفهائهم، فيلقاه بالصبر، ولا ينال من عزمه واسترساله في الدعوة ولو شيئاً قليلاً. وكم من كلمة سيئة يرميه بها بعض المنافقين، أو بعض الجفاة من الأعراب، فيكون جزاؤها الصفح، أو التبسم والإنعام.

وكان يأخذ في التأديب والزجر عما لا ينبغي مأخذاً لطيفاً، حتى إنه

لا يوجّه الإنكار إلى الرجل بعينه ما وجد في الموعظة العامة كفاية. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: صنع رسول الله ﷺ شيئاً، فرخص فيه، فتنزَّه عنه قوم، فبلغه ذلك، فخطب، فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟! فوالله! إني لأعلمهم بالله، وأشدهم خشية له».

ومن حكمته في الدعوة: أنه لا يجعل الوعظ على الناس ركاماً، بل كان يتحرى بالموعظة وقت حاجاتهم إليها، أو وقت نشاطهم لسماعها، قال عبدالله بن مسعود: كان النبي ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا.

وكان ﷺ يسلك في رسائله إلى الملوك والطوائف طريق الإيجاز، ويكل بسط الدعوة وتفصيل الحجة ودفع الشبه إلى من يبعثهم بتلك الرسائل، وفيهم الكفاية لهذا الشأن، كتب إلى أهل نجران كتاباً أرسله مع عمرو بن العاص، وهو: «أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم، فالجزية، فقد آذنتكم بحرب، والسلام».

وقصَّ علينا أصحاب السيرة محاورة دينية جرت بينهم وبين عمرو بن العاص بعد أن قرأوا الكتاب.

ومن بديع أسلوبه ﷺ في إجابته السائلين: أنه يأتي بالجواب في صورة قاعدة عامة، والسائل يكفيه أن يقال له في الجواب: نعم، أو لا.

كان رجل من محارب يؤذيه أيام كان يعرض نفسه على القبائل، ثم جاء ذلك الرجل في وفد محارب مسلماً، وذكَّر رسولَ الله ﷺ بما كان يلقاه به من الأذى، وقال له: استغفر لي؟ فقال له ﷺ: «إن الإسلام يجبُّ ما قبله

من الكفر». ولو قال في الجواب: «غفر الله لك»، لبلغ السائل مرامه، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أورد الجواب في صورة يؤخذ منها غفران كل ذنب صدر من السائل قبل الإيمان، ويؤخذ منه أن هذه المغفرة العامة لا تختص به، بل تحصل لكل من ارتكب آثاماً في عهد الكفر، ثم دخل في حظيره الإسلام.

ومن أسلوبه في الدعوة: صوغ التشابيه البديعة، وضرب الأمثال الرائعة، وللتشبيه والتمثيل أثر كبير في جعل الحقائق الخفية واضحة، والمعاني الغربية مألوفة، ومن أبدع ما سمعناه في هذا الباب: قوله ﷺ: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمَّى».

ومن سياسته في الدعوة: أنه كان يخاطب كل قوم بما يفهمون، ويتحامى أن يخاطب أحداً بما لا يحتمله عقله، وأرشد إلى هذا الأدب بقوله: «حدثوا الناس بما يفهمون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟».

وربما فعل ﷺ الشيء مسايرة لمن يبتغي فعله، وإنما يأخذ بهذا الأدب فيما يرجع إلى العادات، ولم يكن في فعله ضرر يستدعي تركه.

أراد أن يكتب إلى بعض الملوك رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام، فقيل له: إنهم لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة نقشُه: «محمد رسول الله».

وقد يترك الأمر الذي لا ضرر في تركه؛ اتقاء للفتنة؛ كما ترك هدم الكعبة وبقاءها على أساس إبراهيم اتقاء لفتنة قوم هم حديثو عهد بجاهلية، وقال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت

بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أُخرج منه، وبلغت به أساس إبراهيم».

وله ﷺ في الحث على فعل الشيء، أو الزجر عنه طرق حكيمة:

منها: إعطاء الوسائل صورة ما تفضي إليه من المصالح أو المفاسد؛ كما قال ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»؛ فقد أراك الدلالة على فعل الخير في صورة فعل الخير نفسه؛ إذ جعلهما بوسيلة التشبيه في منزلة واحدة، وذلك مما يقوي داعية الدلالة على الخير في نفسك، وكما قال ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه». قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه».

فانظر كيف أعطى سب الرجل لأبي الرجل صورة سب الرجل لوالديه، وفي ذلك من تأكيد الزجر عن إطلاق اللسان بالسب ما لا تجده في النهي عن سب الناس بطريق غير هذا الطريق.

ومنها: إعادة الجملة ثلاثاً؛ كما قال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يؤمن جاره بوائقه». وقال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، حرم الله عليه الجنّة، وأوجب عليه النّار». قالوا: وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك، وإن كان قضيباً من أراك، وإن كان قضيباً من أراك».

ومنها: أنه كان يقرن القول ببعض إشارات حسية تناسب المعنى، والإشارة بنحو اليد مضمومة إلى القول يزداد بها المعنى جلاء، ويأخذ بها في النفس صورة غير صورته المجردة عن الإشارة، ومثال هذا قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبّك بين أصابعه.

ومنها: افتتاحه الكلام بسؤال المخاطبين عن الشيء الذي يريد تعليمهم

إياه؛ لما في الاستفهام من تهيئة النفوس للإصغاء إلى ما يقوله من بعد، وتشويقها إليه، فيقع منها في قرار مكين.

قال معاذ بن جبل ﷺ: بينما أنا رديف رسول الله ﷺ، ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، فقال: «يا معاذ!». قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك؛ ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك؛ قال: «هل تدري ما حق الله على عباده؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على عباده: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً».

ويشابه هذا أن يأتي بالكلام على وجه الغموض يستدعي طلب البيان، حتى إذا سألوه البيان، كشف الغموض، فيتقرر المعنى في نفوسهم بأشد مما لو أتى به من أول الأمر واضحاً بيناً، ومن هذا الباب: قوله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقالوا: يا رسول الله! هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذ فوق يده».

ومن حكمته في الدعوة: تصريحه، أو إيماؤه إلى علل كثيرة من الأحكام والآداب، وذلك مما يزيد القلوب إيماناً بصدقها، وينادي بأنها دعوة قائمة على رعاية المصالح، وقطع دابر الفساد.

سأل رجل النبي ﷺ، فقال: أأستأذنُ على أمي؟ قال: «نعم»، فقال: إني معها في البيت، قال: «استأذن عليها»، فقال: إني خادمها، قال: «استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟!»، قال: لا، قال: «استأذن عليها»؛ فعلة أدب الاستئذان الخوف من أن يكون صاحب المنزل في حال يكره أن يراه عليها أحد من الناس، وقد ذكر النبي ﷺ حالة هي من أشد ما يكره الإنسان أن يشهده عليها أحد، وهي حال تجرده من الثياب؛ ليقنع السائل بوجوب الاستئذان، ويقطعه عن أن يراجع في الأمر مرة أخرى.



رجاحة عقله ﷺ وحكمة رأيه[1]

تقلبوا في أرقى البلاد علماً وحضارة، وابحثوا عن أسلم الأميين بها فطرة، وأذكاهم جَناناً، وأنفذهم بصيرة، وأطولهم تجارب، ثم اجلسوا إلى هذا الأمي ليالي وأياماً، تزنون أقواله بقسطاس الحكمة، وتعرضون آراءه على قانون المنطق الصحيح، ثم انظروا إلى ما سمعتموه من قول صائب، ورأي مقبول، وضعوه بجانب ما تسمعون من أقوال لاغية، وآراء زائفة، لاشك إنْ فعلتم ذلك عرفتم أن لنبوغ الأميين مجالاً ضيقاً، وحداً غير بعيد.

بل انظروا في نوابغ الرجال من أهل العلم، فإنكم تجدون الرجل منهم قد وهبه الله تعالى حظاً عظيماً من رجاحة العقل، وحكمة الرأي، ففاق أقرانه، وصار في عصره العلَم المشار إليه بالبنان، حتى إذا انقرض ذلك العصر، وأقبل على الناس عصر آخر، ظهر في هذا العصر نابغة يضاهي نابغة العصر السابق في تصرفه الفكري، وأتى بمثل ما أتى به من ثمر علمي.

أما محمد رسول الله ﷺ، فإنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان ـ مع هذه الأمية، والنشأة البعيدة من مواطن العلوم، ومجالس العلماء ـ ينظر إلى

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء التاسع من المجلد السابع الصادر في ربيع الأول ١٣٥٤ . محاضرة الإمام في احتفال جمعية الهداية الإسلامية بذكرى ميلاد المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٥٤ .

الحقائق الغامضة، فيصيب كبدها، وينطق، فإذا الحكمة كاشفة النقاب، والبلاغة آخذه بالألباب.

وحرامٌ على العصور أن تخرج للناس رجلاً يدانيه في عظمته، أو يقاربه في صدق لهجته، وروعة حكمته، لا تفعل العصور ذلك وإن بلغت في الحضارة أشدها، وأشرقت فيها العلوم على اختلاف موضوعاتها، وتبيان غاياتها.

فكمال عقل المصطفى ﷺ من النوع الذي يخص الله تعالى به بعض المصطفين من عباده؛ ليعدَّهم بذلك إلى أشرف مقام، هو مقام النبوة والرسالة.

وإذا كان ما ألقي على عاتق هذا الرسول العظيم هي الرسالة العامة الخالدة، فمن المعقول أن يهب الله تعالى له من فضل العقل وسمو الحكمة ما يناسب عموم رسالته، وبقاءها إلى قيام الساعة.

وليس ببعيد ما قاله بعض الفقهاء: إن النبي ﷺ كان يجتهد في أحكام بعض الوقائع؛ أي: إنه يقتبسها من أصول الشريعة بروحه المطوي على علم بمقاصد التشريع؛ فإن الأحكام التي يستنبطها عقل خلقه الله تعالى في صفاء وقوة لائقين بمقام رسوله الكريم، جديرة بأن تدخل في سلك الأحكام الثابتة من طريق الوحي الصحيح.

فإن حدثناكم عن كمال عقل علاَّمة نحرير، أو سياسي كبير، أو فاتح خطير، فإنما نحدثكم عن عقل أتى الزمان بمثله، وفي وسعه أن يأتي بأمثاله، وليس بينك وبين أن تدرك سبب كبر هذا العقل إلا أن تنظر إلى البيئة التي شبَّ فيها، والمعارف التي تلقنها.

وإذا فرضت أن عقلين من هذا النوع قد تماثلا بحسب الفطرة، كان عقل المتأخر أكبر من عقل المتقدم؛ لأن المتأخر يجد من ثمرات العقل السابق ما يساعد على التفكير وسرعة الإنتاج؛ كما انتفع أرسطو من آراء أفلاطون، فكان عقله أكثر إنتاجاً من عقل أفلاطون.

أما إذا حدثناكم عن كمال عقل محمد ﷺ، فلا نحدثكم عن عقل يرجع سبب عظمته إلى بيئة أو دراسة، إنما نحدثكم عن عقل أودعه تعالى في أكمل خلقه؛ ليفهم به مقاصد الوحي، فيقوم ببيانها، ويدرك أمراض النفوس، فيصف أدواءها، ويتدبر أمور الجماعات، فيحسن سياستها.

اقرؤوا سيرته في تلك السنين المعدودة التي قضاها ـ عليه السلام ـ في المدينة المنورة، وانظروا ماذا كان يقوم عليه من جلائل الأعمال، ويدعو إليه من وجوه الإصلاح، ويبينه من حلال وحرام؟ يؤم الناس في الصلوات، ويقود الجيوش في الغزوات، ويفتي السائلين في العبادات والمعاملات والجنايات، ويجلس إلى الأفراد والجماعات: يذكِّر الغافلين، ويرشد الضالين، ويجادل المعاندين، ويبشر المتقين، ويفصِل بين المتخاصمين، وينظر في شؤون منزله، ويسوس آل بيته وخدمه في رفق وعدل.

ولا شك أن هذه الأعمال المختلفة النواحي كما رأيتم، لا يكفي في تدبيرها وإقامتها عقل من هذه العقول التي يحدثنا عنها التاريخ، ولو صدقت مبالغاته في إطرائها وإعلاء شأنها.

قال القاضي عياض في كتاب «الشفا»:

«لا مرية أنه ﷺ كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمور بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله،

وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع، دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمترِ في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهته».

فظهور هذا العقل الكبير في أمي لا يقرأ ولا يكتب، من أظهر الدلائل على أن هذا الأمي صادق في دعوى أنه رسول رب العالمين، فنحن إذا خطبنا في كمال عقل المصطفى ﷺ، إنما نصف آية تبعث في قلب الجاحد إيماناً، وتزيد قلب المؤمن اطمئناناً.

ولعلك تذكر قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩]، فيختلج في صدرك أن أمره باستشارة أصحابه يقتضي أن آراءهم قد تكون أصوب من رأيه.

والجواب: أنه كان ﷺ يستشير أصحابه في أمر الحروب ونحوها؛ ليقيم قاعدة الشورى بين الناس، وبالشورى تسعد الأمة، ويرتفع شأن الدولة. قال الحسن رضي الله عنه: «قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة، ولكن أراد أن يستنَّ به من بعده».

وفي استشارته ﷺ لأصحابه تطييب لنفوسهم، وزيادة تأليف لقلوبهم؛ إذ كان العرب من أشد الناس كراهة للاستبداد، ونفوراً من الرئيس الذي لا يجعل لهم في تصريف الأمور العامة نصيباً من الرأي.

وفي استشارته ﷺ أصحابه إشعار لهم بعلو مكانتهم عنده؛ إذ يدلهم على أنه يراهم مطلع الآراء السديدة، ومواطن الإخلاص، والإخلاصُ رأس كل فضيلة، وأي منزلة أرفع من منزلة قوم يعرض عليهم ﷺ الأمر يستطلع آراءهم فيه، وهو الغني عنهم بما يأتيه من وحي السماء، وبما رزقه الله تعالى

من سمو الفكر، وصفاء البصيرة.

وقد نطق القرآن المجيد بوقائع أشار إلى أن النبي ﷺ جرى فيها على خلاف ما هو الأصلح والأولى.

منها: أخذه الفداء عن أسرى بدر، وذلك ما عاتبه الله عليه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٧].

والمفهوم من الآيـة: أن النبي الذي بُعث ليطهر الأرض من أرجاس الشرك والفسوق، فقام في وجهه أعداء ألداء، يبسطون إليه وإلى أنصاره أيديهم بالأذى، ويصدون الناس عما جاء به من الهدى، ويذهبون في الكيد له إلى أبعد مدى، ينبغي له أن يأخذ في معاملة هؤلاء الأعداء المحاربين بالشدة حتى يكسر شوكتهم، وتعظم مهابته في قلوبهم، والمالُ - وإن كان من وسائل القوة والغلبة - ليست له في جانب المصلحة التي أشارت إليها الآية الكريمة من قيمة.

ومنها: إذنُه لبعض المنافقين حين استأذنوه في التخلف عن غزوة تبوك، وذلك ما عاتبه الله تعالى في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[التوبة: ٤٣].

والواقع أن خروج هؤلاء المنافقين للقتال ليس فيه مصلحة للدين، بل أشار القرآن إلى ما في خروجهم إلى الغزو من ضرر، فقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾[التوبة: ٤٧].

فلم يعاتب الله نبيه - عليه الصلاة والسلام - من جهة أنه أذن في التخلف لقوم شأنهم أن يبلوا في الجهاد بلاء حسناً، بل العتاب من جهة أنه أذن لهم

في التخلف، ولم يؤخر الإذن فيه إلى أن يفتضح أمرهم، ويظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم، وأنه لا عذر يستدعي تخلفهم، حتى إذا قعدوا عن الغزو، قعدوا متألمين من هذه الفضيحة، متخوفين من سوء عاقبتها.

واقعتان، أو ثلاث وقائع، أو أربع، أو خمس يسبق فيها رأي رسول الله ﷺ إلى خلاف الأولى، فيرشده علاَّم الغيوب إلى ما هو الأولى، لا تقف في سبيل ما وصفناه، وأقمنا عليه الحجة من أن كبر عقل محمد - صلوات الله عليه - آية من آيات النبوة.

ولعلك تذكر أن طائفة من المشركين بلغت بهم الرقاعة أن وصفوا صاحب هذا العقل العظيم بالجنون؛ كما حكى الله عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: ٦].

ويقدح في خاطرك أن عقلاً تهبط منه الحكم البالغة، وتسطع منه الحجج الدامغة لا يصف صاحبه بالجنون إلا من فقد عقله، وصار يرمي بالألفاظ في غير معنى، فتقول: «كيف يحكي القرآن كلام من فقدوا عقولهم، وأطلقوا في الهذيان ألسنتهم؟».

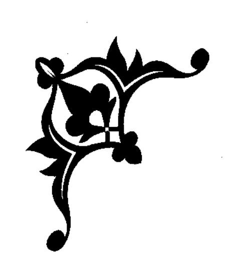
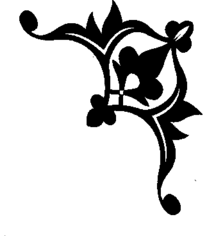
والجواب: أن القوم يعلمون أنه ينطق بالحكمة، ويجادل بالحجة، وإنما رموه بالجنون؛ تناهياً في العناد، وقصداً للإساءة بالقول، وحكى الله عنهم ذلك الزعم البين البطلان؛ ليرينا مبلغهم من العناد، وسقوطهم أمام الحجة، وتخبطهم في تطلب وجه يصرفون به الناس عن إجابة دعوته.

وأي تخبط بعد تخبط من يأتي إلى أرجح البشر عقلاً، وأسناهم خلقاً، وأحسنهم سمتاً، وأجلّهم وقاراً، فيقول عنه: إنه مجنون؟!.

وقد انحدرت من سماء ذلك العقل العظيم حكم أنفسُ من الدرر، وأنفع

من الغيث، وفي وسعي أن أسوق إليكم منها مثلاً، وأنبّه على ما ينطوي تحتها من المعاني السامية، ولكن ضيق الوقت يدعوني إلى أن أقف عند هذا الحد.



هجرة الصحابة إلى الحبشة وأثرها في ظهور الإسلام(١)

يجري اليوم في الصحف والأندية ذكر الحبشة أكثر مما كان، ويقول بعض الكاتبين: إن بيننا وبين الحبشة صلة الجوار والدين، وربما أشار بعضهم إلى هجرة الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة، وما لا قاهم به النجاشي من سماحة وحسن جوار.

أما صلة الجوار: فلأن موقع بلاد الحبشة بمقربة منا، ويحدها من جهة الغرب: السودان المصري.

وأما الدين: فلأن عدد المسلمين من سكانها يقارب عدد النصارى، بل يذهب بعضهم إلى أن عدد المسلمين فيها يزيد على عدد غيرهم.

وأما هجرة الصحابة إلى النجاشي، فذلك موضوع محاضرتنا في هذه الليلة، فمحاضرتنا من قبيل المحاضرات التي نلقيها على وفق المناسبة، ونرجو أن يعود السامعون منها بفائدة.

*** سبب الهجرة إلى أرض الحبشة:**

بُعث محمد ﷺ بهذه الدعوة التي تملأ القلوب نوراً، وتشرق بها

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الحادي عشر من المجلد السابع الصادر في جمادى الأولى ١٣٥٤. محاضرة الإمام في جمعية الهداية الإسلامية مساء يوم الخميس ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤.

العقول رشداً، فسابق إلى قبولها رجال حكماء، ونساء فاضلات، وصبيان لا زالوا على فطرة الله، وبقيت سائرة في شيء من الخفاء، وكفّار قريش لا يلقون لها بالاً، حتى أخذ ﷺ يقرع بها الأسماع في المجامع، ويحذر من عبادة الأصنام، ويسفه أحلام من يعبدونها، فكان ذلك مثيراً لغيظ المشركين، وحافزاً لهم على مناوأة هذه الدعوة، والصدّ عن سبيلها، فوجدوا في أيديهم وسيلة هي أن يفتنوا المؤمنين، ويسومونهم سوء العذاب، حتى يعودوا إلى ظلمات الشرك، وحتى يُرهبوا غيرهم ممن تحدثهم نفوسهم بالدخول في دين القيِّمة.

أما المسلمون، فمنهم من كانت له قوة من نحو عشيرة أو حلفاء يكفون عنه كل يد تمتد إليه بأذى، ومنهم المستضعفون، وهؤلاء هم الذين وصلت إليهم أيدي المشركين، وبلغوا من تعذيبهم كلَّ مبلغ، ومن هؤلاء من يناله العذاب من أقرب الناس إليه نسباً؛ كخالد بن سعيد بن العاص؛ فإنه لما أظهر إسلامه، ضربه أبوه بمقرعة حتى كسرها على رأسه، وحلف أن لا ينفق عليه، فانقطع إلى رسول الله ﷺ.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يقاسيه أصحابه من البلاء، وليس في استطاعته يومئذ حمايتهم، أذن لهم في الهجرة إلى الحبشة، وقال: «إن بها ملكاً لا يُظلم الناس عنده، فلو خرجتم إليه حتى يجعل الله لكم فرجاً».

ولعلك تنظر في الدول المجاورة للأمة العربية يؤمئذ، فلا تجد فيها من يصلح أن يكون موضع هجرة لأهل دين سماوي جديد كالإسلام، أما الفرس، فدينهم المجوسية، والإسلام يحارب المجوسية كما يحارب عبادة الأوثان في البلاد العربية، وأما الروم، فلم يكن لملكهم يومئذ من ضبط

أمور الرعية، وكف الأيدي العادية ما كان لملك الحبشة.

*** الهجرة الأولى إلى الحبشة:**

في شهر رجب من سنة خمس من البعثة، هاجر طائفة من المسلمين إلى الحبشة، ومن هذه الطائفة: عثمان بن عفان، وزوجه رقية بنت النبي ﷺ، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ثم التحق بهؤلاء المهاجرين جماعات من الرجال والنساء، واجتمعوا بأرض الحبشة آمنين على أنفسهم، منقطعين إلى عبادة ربهم.

*** كيف سافر المهاجرون الأولون من مكة؟**

خرج أولئك المسلمون متسللين في خفية، يقصدون الساحل، فوجدوا ـ بتوفيق الله ـ عند انتهائهم إلى مكان يقال له: «الشعيبة»[١] سفينتين تجاريتين[٢]، فركبوهما وراية النجاة تخفق على رؤوسهم. وبلغ خبر سفرهم كفار قريش، فخرجوا في أثرهم حتى بلغوا الساحل، ولم يظفروا منهم بأحد.

*** اغتباط المسلمين بهجرتهم:**

أقام المسلمون المهاجرون بأرض الحبشة في حسن حال وراحة بال، ويدرك قيمة هذه النعمة من ابتلي بأيد قاسية، تبسطها حميَّة جاهلة، وأهواء غالبة، فجعل الله له من ذلك الاضطهاد مخرجاً.

وقد نظم بعض شعرائهم قصائد يصفون بها حال خلاصهم من قريش،

---

(١) مرفأ للسفن من ساحل بحر الحجاز، وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة. «معجم يا قوت».

(٢) وروي: أنهم استأجروا سفينة بنصف دينار.

وما لاقوه من الأمن في هجرتهم، وأذكر من هذا قول عبدالله بن الحارث:

يا راكباً بلِّغَنْ عني مغلغلة[1] | من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرئ من عباد الله مضطهد | ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة | تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذلك الحياة وخز | ي في الممات وعيب غير مأمون
إنا اتَّبعنا رسول الله واطَّرحوا | قول النبي وغالوا في الموازين

*** خروج أبي بكر بقصد الهجرة إلى الحبشة:**

انفتح باب الهجرة إلى الحبشة، فإذا خشي مسلم في مكة أن يناله مكروه، أزمع الهجرة إلى تلك البلاد، ومما نقرؤه في الصحيح: أن أبا بكر الصديق ﷺ خرج ليلحق من سبقه من المهاجرين إلى الحبشة حتى بلغ «بَرْك الغِماد»، فلقيه ابن الدَّغِنة[2]، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد الله، فقال ابن الدغنة: إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخْرَج، إنك تُكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع واعبد ربك ببلدك. فرجع أبو بكر في جوار ابن الدغنة، ولم يلبث أن نبذ إليه جواره، واستبدل به جوار الله.

وأذكر بهذه المناسبة: أني عندما عزمت على الهجرة من تونس إلى

---

(١) مغلغلة: رسالة محمولة من بلد إلى بلد ـ «القاموس».

(٢) بفتح الدال وكسر الغين وتخفيف النون، وقيل: بضم الدال والغين وتشديد النون، وهو سيد «القارة»: قبيلة من بني الهون كانوا حلفاء لبني زهرة من قريش.

دمشق سنة ١٣٣١، وكتب إليّ أحد الأساتذة في تونس خطاباً يشير عليّ فيه بترك السفر، وساق في الخطاب قصة ابن الدغنة هذه مع أبي بكر الصديق ﷺ، فقلت: قد أبعد الأستاذ القياس، وأقام الشاهد على غير أساس، وحالُ أبي بكر الصديق أرفعُ من أن يضرب مثلاً لحال أفراد إن غابوا، وجد الناس كثيراً من أمثالهم، أو ممن هم خير منهم.

*** سعي قريش في رجوع أولئك المهاجرين:**

لما بلغ قريشاً ما لاقاه المسلمون في مهاجرهم من الأمن والسكنية، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي في ردهم عليهم، فبعثوا إليه عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة[١]، وزوّدوهما بهدايا للنجاشي ومَن حوله من البطارقة، فسلما الهدايا، وقالا للنجاشي: أيها الملك! إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم عليهم ـ وأيدهما في هذا الطلب بعض البطارقة ـ، فقال النجاشي: لا أسلِّمهم، ولا يُكاد قوم جاوروني حتى أسألهم عما يقول هذان في أمرهم.

*** دعوة النجاشي الصحابة وسؤالهم:**

دعا النجاشي الصحابة إلى مجلس حضره البطارقة، وسألهم عن حقيقة دينهم، فتولى جعفر بن أبي طالب ﷺ إجابته، فقال: أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام،

---

(١) أسلم بعد، وولاه ﷺ الجند ومخاليفها، فلما حوصر عثمان ﷺ، جاء لينصره، فوقع عن راحلته قرب مكة، فمات.

ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سواك، ورجونا أن لا نظلم عندك.

فلما انتهى جعفر من هذا الخطاب، قال له النجاشي: هل عندك مما جاء به من الله شيء؟ فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم: ١]، فخشع النجاشي لتلاوة القرآن[1]، وقال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجُ من مشكاة واحدة، ثم أقبل على عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة، وقال لهما: لا أسلِّمهم إليكما، ولا يُكادون.

وكذلك تكون عاقبة الحق متى وجد عقولاً تتلقاه في أوضح صورة، وألسنة تعرضه في أصدق عبارة.

*** نصب عمرو لهم مكيدة عند النجاشي:**

يبذل المبعوث في أمر جهده، ويسلك للوصول إليه كل مسلك ممكن

---

(١) ذكر السهيلي في «الروض الأنف» قصة تدل على أن النجاشي يعرف اللغة العربية.

متى بلغ في التعلق به مبلغ من بعثوه فيه، وأشرب ما أشربته قلوبهم من الحرص عليه، فليس من الحكمة أن يعهد في إلغاء البغاء إلى من لا يبغض فاحشة البغاء، ولا أن يبعث إلى مؤتمر المسكرات من يعاقر الصهباء، ولا أن يندب للتحدث عن شريعة الإسلام من يجحد كثيراً من حقائقها، ولا أن يتولى الدفاع عن حقوق الوطن من عرف بموالاة غاصبها، وقد كان عمرو بن العاص في ذلك الوقت يشعر بشعور كفار قريش، وينظر بمثل أعينهم، ويحمل في صدره من الحقد على أولئك المهاجرين ما تحمل صدورهم، فلا عجب أن يخيب سعيه من ناحية، فيدبِّر من نفسه كيف يبلغ الغرض من ناحية أخرى.

بعد أن صرف النجاشي عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة، فكَّر عمرو في مكيدة تثير سخط النجاشي على أولئك المهاجرين، وهو أن جاء من الغد، وقال له:

أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فاسألهم عما يقولون فيه.

فأرسل إليهم النجاشي ليسمع ماذا يقولون، فدخلوا عليه، فقال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبدالله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشي بيده، وأخذ عوداً ثم قال:

ـ والله! ما زاد عيسى على هذا، ولا هذا العود.

ثم إن النجاشي رد على عمرو بن العاص ومن معه هداياهما، فخرجا يتعثران في أذيال الخيبة، ورجعا إلى كفار قريش بخفي حنين.

* رجوع المهاجرين إلى مكة:

بلغ أولئك المهاجرين خبر غير صادق، هو أن قريشاً كفوا أذاهم عن النبي ﷺ والمؤمنين[1]، فسارعوا إلى الرجوع إلى مكة، وعندما دنوا منها، ولم يبق بينهم وبينها إلا ساعة من نهار، عرفوا أن الخبر مفترى، وأن قريشاً في أشد ما يكون من عداوة رسول الله ﷺ، والكيد لأصحابه، ويظهر أن شدة شوقهم إلى وطنهم، وإلى صحبة النبي ﷺ، ولقاء من تركوهم خلفهم من إخوانهم، هي التي جعلتهم يتعلقون بذلك الخبر المفترى قبل أن يتثبتوا.

وعندما عرفوا أن أذى المشركين للمؤمنين ما زال بحاله، بل صار إلى ما هو أشد، انقلب فريق راجعين إلى الحبشة، ودخل آخرون مكة في خفاء، أو معتصمين بجوار[2]، وممن دخل مكة في الداخلين بجوار: أبو سلمة[3]، وزوجه أم سلمة، ولما اشتد به أذى قريش، وبلغه أن بعض الأنصار قد دخل في الإسلام، هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها النبي ﷺ.

ولعلك تدرك الشدة التي وقع فيها من رجعوا على طريقهم ولم يدخلوا مكة؛ فإنهم جاؤوا على أمل أن يدخلوا مكة، ويلاقوا أولياءهم المتقين، ويقيموا في جوار بيت الله الحرام آمنين، فخاب أملهم فجأة، واضطروا بعد فوات هذا الأمل إلى معاناة أتعاب السفر عائدين إلى أرض غربة لا يدرون كم تكون مدة إقامتهم بها. ولكن الإيمان الصحيح يتبعه العزم الصادق،

(١) وقيل: بلغهم أنهم أسلموا.

(٢) كما دخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ثم نبذ إليه جواره، وقال: أرضى بجوار الله.

(٣) دخل بجوار أبي طالب بن عبد المطلب.

فتصغر أمامه الأخطار، وتصير المخاوف عنده برداً وسلاماً.

*** الهجرة الثانية إلى الحبشة:**

اشتد بلاء قريش على من قدموا من مهاجري الحبشة وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً، ومن النساء ثماني عشرة امرأة[١]، وممن هاجر في هذه المرة: عبيدالله بن جحش، وزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان.

ومن أهل السيرة من ذكر في رجال الهجرة الثانية: عثمان بن عفان رضي الله عنه، فيكون ممن هاجر إلى الحبشة في الأولى والثانية، وقدم فيمن قدم من أولئك المهاجرين على النبي ﷺ بالمدينة قبل واقعة بدر، ويؤيده قول عثمان رضي الله عنه: «وهاجرت الهجرتين الأوليين»[٢].

*** هجرة الأشعريين إلى الحبشة:**

خرج أبو موسى الأشعري من اليمن ومعه بضع وخمسون رجلاً قاصدين لقاء النبي ﷺ، فألقتهم السفينة إلى النجاشي بالحبشة، فلاقوا جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين، فأقاموا معهم إلى أن قدموا يوم خيبر على ما نقصه عليكم من بعد.

*** رجوع فريق من مهاجري الحبشة إلى المدينة:**

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وبلغ خبره المهاجرين بأرض الحبشة،

---

(١) وقيل: تسع عشرة امرأة.

(٢) «صحيح الإمام البخاري».

رأى فريق منهم أن الإذن لهم في الهجرة إلى الحبشة كان للخلاص من أذى المشركين، وقد أصبح رسول الله والمؤمنون بهجرتهم إلى المدينة في مأمن من ذلك الأذى، ورأوا أن التحاقهم بجماعة المسلمين في المدينة خير من إقامتهم في بلاد الحبشة، فرجعوا قاصدين دار الهجرة المباركة[1].

وبقي فريق من أولئك المهاجرين على رأسهم جعفر بن أبي طالب، ينتظرون إذن رسول الله ﷺ في الرجوع.

*** وفد الحبشة:**

ورد في بعض كتب السيرة: أن وفداً من نصارى الحبشة قدموا على رسـول الله ﷺ وهو بمكة، فجلسـوا إليه في الحرم، فدعاهم، وتلا عليهم القرآن، فخشعوا، ثم استجابوا له، وآمنوا به، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتبهم من أمره.

وجاء في بعض الروايات: أن طائفة من أصحاب النجاشي قدموا على النبي ﷺ وهو بالمدينة، وشهدوا واقعة أحد.

وأخـرج الطبرانـي عن ابن عبـاس: أن آيـة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ - إلـى قولـه - سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[القصص: ٥٢ - ٥٥] نزلت في هذا الوفد، وهذا أصل قول مقاتل: سورة القصص مكية إلا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ - إلى قولـه - سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى

---

(١) قال ابن سعد: لما سمعوا مهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثمان نسوة، فمات منهم رجل بمكة وحبس بمكة، سبعة، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلاً.

ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[القصص: ٥٢ ـ ٥٥]؛ فإنها مدنية.

* **إسلام عمرو بن العاص على يد النجاشي:**

كان عمرو بن العاص في جانب المشركين، وبعد تفرق كلمتهم في واقعة الأحزاب، وانصرافهم عن المدينة، اختلى برجال كانوا يرون رأيه، ويسمعون منه، وعرض عليهم الالتحاق بالنجاشي، والإقامة عنده إلى أن تتبين عاقبة هذه الحروب القائمة بين المسلمين والمشركين، فسار عمرو ومن معه إلى النجاشي، وأقام في جواره.

ولما قدم عمرو بن أمية الضمري موفداً من رسول الله ﷺ في شأن جعفر ابن أبي طالب ومن معه من بقية المهاجرين، سعى عمرو بن العاص لدى النجاشي ليصل إلى قتل عمرو الضمري، فأبى النجاشي، ودعا عمراً إلى طاعة النبي ﷺ واتباعه، فلم يغادر عمرو مجلس النجاشي حتى سطع في قلبه نور الإيمان، وبايع النجاشي على الإسلام، وفيه يقول بعض المحدثين: أيُّ صحابي أسلم على يد تابعي؟.

ثم رحل عمرو قاصداً المدينة وقدم على رسول الله ﷺ وبايعه على الإسلام.

* **تزوج النبي ﷺ بأم حبيبة وهي بأرض الحبشة:**

كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان، هاجرت مع زوجها عبيدالله بن جحش الأسدي، فمات عبيدالله هنالك بعد أن تنصَّر فيما يقال، فأرسل النبي ﷺ يخطبها، فزوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص بإذنها، وأصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربع مئة دينار، وكان هذا الزواج ـ في أشهر الروايات ـ سنة سبع من الهجرة، وقيل: سنة ست.

* قدوم بقية المهاجرين من الحبشة:

أرسل النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب ومن معه من بقية المهاجرين، فحملهم النجاشي على سفينتين، وقدموا يوم فتح خيبر[١]، ولما قدم جعفر على النبي ﷺ، تلقاه، وقبّل ما بين عينيه[٢]، ويروى أنه قال: «ما أدري بأيهما أسرّ، أبفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»، ثم إن النبي ﷺ كلّم المسلمين في أن يدخلوا هؤلاء المهاجرين في سهامهم من الغنيمة، ففعلوا.

* من ولد من المسلمين بأرض الحبشة؟

هاجر جماعة إلى الحبشة بأزواجهم، وولد لهم هنالك أبناء وبنات، ومن الأبناء: عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وهو أول من ولد بأرض الحبشة من المسلمين، ومنهم: عبدالله بن المطلب، وتوفي أبوه المطلب بأرض الحبشة، وكانوا يقولون: إن عبدالله هذا أول رجل ورث أباه في الإسلام.

ومن البنات: أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص، وكانت قد تعلمت لسان الحبشة، وكساها النبي ﷺ بعد ما قدمت وهي صغيرة خميصة[٣] لها أعلام، وجعل يمسح الأعلام، ويقول: «سناه سناه»؛ أي: حسن حسن، في لغة الحبشة.

---

(١) الجمهور على أن فتح خيبر كان في السنة السابعة من الهجرة، وقال مالك، وبه جزم: إنها كانت في السنة السادسة.

(٢) في بعض رجال هذا الحديث ضعيف، وحديث معانقة النبي ﷺ غير ثابت، وسنده مظلم، كما قال الذهبي في «ميزان الاعتدال».

(٣) الخميصة: كساء أسود مربّع له علمان.

* فضل المهاجرين إلى الحبشة:

كانت أسماء بنت عميس ممن قدموا يوم فتح خيبر، فدخلت على حفصة أم المؤمنين، فدخل عمر بن الخطاب، وقال: من هذه؟ قالوا له: أسماء، فقال لها عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله منكم. فغضبت، وقالت: وايم الله! لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، فلما جاء النبي ﷺ، قصّت عليه قول عمر، فقال: «ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان».

وكان أبو موسى الأشعري وأصحابه يأتون إلى أسماء أرسالاً يسألونها عن هذا الحديث، وما من شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.

لمهاجري الحبشة فضل وأيُّ فضل، ذلك أنهم فارقوا وطنهم مكرهين، ونزلوا في أرض غير أرضهم، وأمة غير أمتهم، ونحن نعلم ما وقع لبعض الصحابة من الحنين إلى مكة بعد الهجرة إلى المدينة، فكان بلال رضي الله عنه وقد أصيب بالحمّى يرفع صوته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادٍ وحولي إذخر وجليل[١]

وهل أَرِدَنْ يوماً مياه مَجِنَّة[٢] ... وهل يبدُوَنْ لي شامة وطفيل[٣]

---

(١) الإذخر والجليل: شجرتان طيبتان تنبتان بأودية مكة.

(٢) موضع قريب من مكة.

(٣) جبلان من جبال مكة.

فلما أُخبر رسول الله ﷺ بذلك، قال: «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدَّ».

*** إخبار النبي ﷺ بوفاة النجاشي، وصلاته عليه:**

في «صحيح البخاري» عن جابر بن عبدالله: أن رسول الله ﷺ قال حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»(١).

وعن جابر أيضاً: أن نبي الله ﷺ صلّى على النجاشي، فصففنا وراءه، فكنت في الصف الثاني أو الثالث(٢).

وعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ نعى لهم النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، وقال: «استغفروا لأخيكم»(٣).

وكانت وفاته سنة تسع عند الأكثر، وقيل: سنة ثمان قبل فتح مكة.

ففي هذه الأحاديث آية من آيات صدق رسالته ﷺ، وهو إخباره بأمر غائب انكشف من بعد أنه كما أخبر، وفيها شاهد على أن النجاشي مات مسلماً، ذلك لأنه وصفه بأنه رجل صالح، وصلّى عليه صلاة الجنازة، وسمّاه أخاً للصحابة، وأمرهم بالدعاء له بالمغفرة.

*** دعوة النبي ﷺ النجاشي إلى الإسلام:**

مما لا نشك فيه: أن النجاشي الذي هاجر إليه الصحابة رضي الله عنهم أسلم،

---

(١) «صحيح الإمام البخاري».

(٢) «صحيح الإمام البخاري».

(٣) «صحيح الإمام البخاري».

ومات على الإسلام، والظاهر أن بعث النبي ﷺ لعمرو الضمري في جملة من بعثهم إلى الملوك كان إلى النجاشي الذي تولى الملك بعد النجاشي الذي أخبر ﷺ بوفاته، وصلى عليه، ففي «صحيح مسلم» عن أنس: «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبّار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ»[1].

*** أثر الهجرة في ظهور الإسلام:**

رأينا كيف كان المشركون يذيقون المستضعفين من المسلمين عذاباً أليماً، فكان من رحمة الله أن فتح في وجوههم طريق الهجرة إلى الحبشة، فكان هذا الفتح من أسباب ثبات أولئك المستضعفين على إسلامهم، وتمكنهم من عبادة ربهم، فوجد منهم الدين رجالاً طبعت نفوسهم على آدابه، ونشطت أعضاؤهم للقيام بواجباته، وعرفوا عن مشاهدة كيف يحمي الله أولياءه من أعدائه، ويجعل لهم مع العسر يسراً، ومن الضيق مخرجاً.

ثم إن وجود موطن لهجرة المؤمنين وخلاصهم من أذى المشركين، يسهل على من تنشرح صدورهم للإيمان ولا يطيقون العذاب، أن ينضموا إلى صفوف المؤمنين، ويصدعوا بإيمانهم ولو كره المشركون، ففي الناس من يعرف الحق، ولا يملك من قوة الصبر على الأذى ما يسهل عليه الشهادة به صراحة، والدخول في زمرة أهله علانية، وقد رأينا في محنة الناس بمسألة خلق القرآن علماء لا يرون رأي المعتزلة من أن القرآن مخلوق، ولم يجهروا بمخالفتهم؛ خوفاً من الضرب بالسياط، وعوتب بعضهم على عدم

---

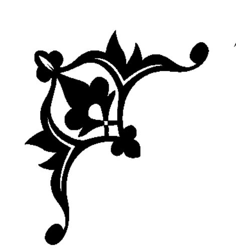
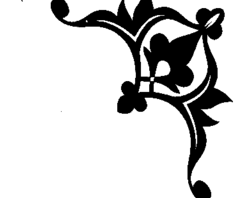
(١) بعث هؤلاء الرسل كان في غزوة تبوك، وهذه الغزوة كانت في رجب سنة تسع.

وقوفه موقف الإمام أحمد بن حنبل في الجهر بالحق، واحتمال الأذى في سبيله، فقال: قَوِيَ أحمد على السياط، وأنا لا أقوى على ذلك.

وكان أولئك المهاجرون؛ لاستقامتهم، وكمال آدابهم، وصدق لهجاتهم، يعرضون الإسلام في أقوم مثال، وأجمل صورة، وذلك مما يقرب قلوب الحبشة إلى الإسلام، ويدعوهم إلى النظر في صحته، وقد عرفتم كيف كانت هذه الهجرة سبباً في هداية ملكهم وأمة من قومه، وقد عرفتم أن صحابياً فاتحاً عظيماً أسلم على يد النجاشي، وهو عمرو بن العاص ﷺ.

ومما استفاده المسلمون من هذه الهجرة: أن كان النبي ﷺ وأصحابه على ثقة من أن الحبشة أمة مسالمة لدعوة الإسلام، فلم يخشوا أن تشغلهم عن الجهاد في سبيل الدين الحق، وبسط ظلال العدل، كماكانوا يشعرون بعداء غيرها من الدول المجاورة للبلاد العربية؛ كدولتي الروم والفرس.



إبادته للأصنام ﷺ[1]

كان العرب على ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ثم دخلهم الشرك، ومن المعروف في التاريخ أن أول من غيَّر دين ابراهيم، وزيَّن للعرب عبادة الأصنام عمرو بن لحي بن عامر، وسبب ذلك ـ فيما يقال ـ: أنه دخل مدينة البلقاء من أرض الشام، فرأى قوماً يعبدون الأصنام، ويقولون: هذه أرباب نتخذها، نستنصر بها فننصر، ونستسقي بها فنسقى، وكل من سألها يعطى. فطلب صنماً يدعونه: «هبل»، فسار به إلى مكة، ونصبه على الكعبة، ودعا الناس إلى تعظيمه وعبادته، ففعلوا.

تفشت في العرب عبادة الأوثان، فأقاموا في جوف الكعبة تماثيل، وكان أعظمها عندهم الصنم المسمى بهبل، ووضعوا حول الكعبة نحو ستين وثلاث مئة نصب (على عدد أيام السنة)، واتخذ أهل كل دار من مكة صنماً يعبدونه في دارهم؛ زيادة على ما يعبدون من التماثيل القائمة في الكعبة، والأنصاب الموضوعة حولها.

وللعرب أصنام في غير مكة يبالغون في تعظيمها نحو: «اللات»[2]،

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» الجزء التاسع من المجلد الثامن ـ ربيع الأول ١٣٥٥هـ.

(٢) صنم لثقيف.

و«العزَّى»[1]، و«مناة»[2]، و«فلس»[3]، و«نهم»[4]، و«ذي الخلصة»[5]، و«الأقيصر»[6]، و«ذي الكفين»[7]، و«ذي الشرى»[8]، و«رضا»[9]، و«عميانس»[10].

ومن أصنامهم: «ود»، و«سواع»، و«يغوث»، و«يعوق»، و«نسر»[11].

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأصنام في الحديث عن قوم نوح ـ عليه السلام ـ.

ويروى عن ابن عباس ﷺ: أن هذه الأصنام كانت لقوم نوح، ثم انتقلت إلى العرب من بعدهم، ومن المحتمل أن تكون أسماء هذه الأصنام قد بقيت إلى ما بعد نوح، ثم اتخذ العرب أصناماً، وسمّوها بهذه الأسماء.

---

(١) سمرة كانت لغطفان.

(٢) كان منصوباً على ساحل البحر بقديد «بين مكة والمدينة»، وأشد تعظيماً له الأوس والخزرج.

(٣) صنم لمزينة.

(٤) بضم النون وسكون الهاء.

(٥) صنم لدوس وخثعم وبجيلة.

(٦) صنم لقضاعة ولخم وأهل الشام.

(٧) كان لأوس أيضاً.

(٨) صنم لدوس أيضاً.

(٩) بيت صنم لربيعة.

(١٠) صنم لخولان.

(١١) ود: في قبيلة كلب، وسواع: في قبيلة هذيل، ويغوث: في قبيلة مراد، ويعوق: في قبيلة همدان، ونسر: في قبيلة آل ذي الكلاع.

ومن هذه المعبودات ما يتخذونه من بعض الأحجار النفيسة؛ كهبل؛ فإنه كان من عقيق على صورة إنسان، ويقال: إن قريشاً أدركته مكسور اليد اليمنى، فجعلوا له يداً من ذهب.

ومنها ما يتخذ من نحاس؛ كصنم خزاعة الذي أقاموه فوق الكعبة، ومنها ما يتخذ من حجارة؛ كمناة؛ فإنه كان صخرة مربعة، ونحو ذي الخلصة؛ فإنه كان مروة بيضاء عليها نقش كهيئة التاج، ومنها من خشب؛ كذي الكفين.

وقد يعبدون شجرة قائمة كالعزّى، فإنها كانت سمرة، أو ثلاث سمرات.

انغمس العرب في عبادة الأوثان، وكانوا يملؤون قلوبهم بتعظيمها، يزورونها، ويطوفون بها، ويسجدون لها، ويتمسَّحون بها، ويتقربون إليها بالذبائح، ولا يتعرضون لمن التجأ إليها، وقد يلبسونها القلائد، ويعلقون عليها بيض النعام؛ كما كانوا يفعلون بذي الخلصة، قال كعب بن مالك رضي الله عنه:

ونسى اللات والعزّى ووَدّاً ... ونسلبها القلائدَ والشنوفا[1]

وكانوا يرون أن سبّها يأتي بأمراض معضلة، جاء ضمام بن ثعلبة رئيس قبيلة سعد بن بكر، فأسلم، وعاد إلى قومه داعياً إلى الإسلام، وأول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزّى، فقالوا له: مه يا ضمام، اتق البرص والجنون والجذام. قال: ويلكم! إنهما لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليكم كتاباً استنقذكم به.

---

(١) جمع شنف، وهو القرط.

ويحلفون بأسمائها؛ كما قال عبد العزيز بن وديعة المزني:

إنــي حلفــت يمــين صــدق بــرة بمنــاة عنــد محــل آل الخــزرج

ويؤلفون أسماء أبنائهم من أسمائها بقصد التبرك بها؛ نحو: عبد العزّى، وعبد يغوث، وعبد نهم، وعبد مناف، وزيد اللات، وزيد مناة.

وقد اشتد تعلق العرب بعبادة الأوثان، وكانوا يحبونها حب المؤمن لله.

ومن شواهد إغراقهم في حبها: أن أبا أحيحة بن العاص أدركه مرض الموت، فبكى، فقيل له: أمـن الموت تبكي، وهو أمر لابـد منه؟ فقال: لا، ولكني أخاف أن لا تعبد العزّى بعدي.

وقد تنبه بعض العرب قبل الاسلام لما في عبادة الأصنام من باطل، وأدركوا أن عقيدة التوحيد حق لا ريب فيه؛ كزيد بن عمرو بن نفيل، ولكنه لم يقم بدعوة تعيد ـ ولو طائفة من عباد الأصنام ـ إلى سيرة التوحيد، ذلك لأن عماية الشرك التي استحوذت على القلوب مرض مزمن لا يبرئ منه إلا حكمة يوحي بها رب العالمين إلى رسول أمين ذي خلق عظيم.

ظلت الأمة العربية تتخبط في هذه العماية، فخسرت الحياة الطيبة، وضلت سبل السعادة، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فجاهد في إخراجها من ظلمات الوثنية إلى عقيدة التوحيد الخالصة، فأصبحت أمة راجحة الأحلام، صافية البصائر، شديدة الثقة بالله، حقيقة بأن تحمل الهداية العامة، والإصلاح الإلهي إلى الشرق والغرب.

وقد جاهد رسول الله ﷺ الوثنية بوسائل كثيرة، أخذ يدعو إلى الاعتقاد بأن خالق الكون ومدبِّره هو الله الواحد القهار، ويقيم البراهين على أن عبادة الأوثان من انحطاط الفكر، وسفاهة الرأي. يقول هذا ويؤيده بالحجة، ويذكر

بما قصه القرآن من أنباء الأقوام الذين كانوا يعبدون الأوثان، وبما كان يعظهم به رسلهم ـ عليهم السلام ـ، وبما نزل بهم من عذاب.

وكان قريش لا يزيدون في مبدأ دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أن يقابلوها بشيء من الاستهزاء والسخرية، حتى سمعوه يعيب أصنامهم، فثار غضبهم، وتحفزوا لمقاومة الدعوة، وانظر إلى أولئك النفر: أبي جهل، وأبي سفيان، والوليد بن المغيرة، ومن معهم إذ جاؤوا إلى أبي طالب، وقالوا له: «إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه». ومشوا إليه مرة ثانية، وقالوا له: «إنا والله! لا نصبر على هذا؛ من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

كذلك كانت سيرته ﷺ بمكة، يجاهد الوثنية بالدعوة والحجة، ولم يكن قد ملك من القوة ما يمكنه من تحطيم تلك الأصنام تحطيماً يقطع دابرها. ثم هاجر ـ صلوات الله عليه ـ إلى المدينة، ولم يكن بها أو من حولها ـ فيما نعلم ـ أصناماً ظاهرة تقصد بالعبادة، وكان غزوه ﷺ إما لقريش في غير موضع أصنامهم؛ كغزوتي بدر وأحد، وإما لليهود؛ كغزوتي خيبر وبني قريظة، وليس لليهود أصنام، وإما لقبائل من العرب قد ينتهي غزوهم بالرجوع عنهم حيث يجدهم بحال من لا يخشى شره.

فلا عجب أن نرى جهاد رسول الله للأصنام بالكسر والتحطيم قد ظهر عند فتح مكة، وتواصل حيث قويت شوكة الإسلام، وصارت يده فوق تلك الأصنام التي هي مبعث الوثنية في الجزيرة العربية.

ولما فتح ﷺ مكة المكرمة، أبى أن يدخل البيت وفيها تلك الأصنام القائمة، والصور المنقوشة على جدرانها، وأمر عمر بن الخطاب أن يخرج منها كل صنم، ويمحو كل صورة، فأخرجت الأصنام، ومحيت الصور، فدخل النبي ﷺ للبيت، وكبّر في نواحيه.

وفي إحدى روايات الصحيح: أنه رأى صورة إبراهيم، فدعا بماء، وجعل يمحوها، وتأويل هذه الرواية: أن هذه الصورة خفيت على من أمره بمحو الصور قبل دخوله.

ثم طاف رسول الله بالكعبة، وجعل يطعن بقضيب في يده تلك الأصنام الموضوعة حولها، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد».

وأمر بهبل، فكسر وهو واقف، وأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يصعد إلى صنم خزاعة، وكان منصوباً فوق الكعبة، فصعد، ورمى به، وكسره.

وجاء في بعض الكتب المؤلفة في تاريخ[1] مكة: أن صورة عيسى وأمه ـ عليهما السلام ـ بقيت في الكعبة إلى أن هدمت في عهد ابن الزبير، والعقل يقف دون قبول هذا الخبر، ولا يجد له مساغاً، وكيف يبقي النبي ﷺ صورة عيسى ومريم في الكعبة، وهو الذي ألح في محو صورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ؟ ثم كيف يبقي هذه الصورة في بيت يستقبله المسلمون في اليوم خمس مرات، وهو الذي يشتد غضبه إذا رأى ستراً قائماً في بيته، وفيه صورة؟ وإذا نظرنا إلى أن عيسى ومريم ـ عليهما السلام ـ ممن بالغ بعض

---

(١) «تاريخ الأزرقي»، و«تاريخ عمر بن شبه».

الطوائف في تعظيمها إلى حد العبادة، ظهر لنا أن بقاء صورتيهما في الكعبة بعيد من سيرة الرسول الذي قطع كل وسيلة إلى عبادة الأوثان.

ثم بعث ﷺ إلى الأصنام القائمة في بلاد العرب من يكسرها، ويهدم بيوتها، فبعث خالد بن الوليد إلى هدم العزّى، فهدمها، وقال:

يا عزّ كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

وبعث المغيرة بن شعبة إلى اللات، فهدمها، وحرقها بالنار، فقال شداد ابن عارض الجشمي ينهى ثقيفاً عن العود إليها، والغضب لها:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها ... وكيف نصركم من ليس ينتصر

إن التي حرقت بالنار فاشتعلت ... ولم تقاتل لدى أحجارها هدر

إن الرسول متى ينزل بساحتكم ... يضعن وليس بها من أهلها بشر

وبعث الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين، فجعل يحثو النار في وجهه، ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ... ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حثوت النار في أحشائكا

وبعث علي بن أبي طالب لهدم فلس، وبعث سعيد بن عبيد الأشهلي لهدم مناة، وبعث عمرو بن العاص لهدم سواع، وبعث جرير بن عبدالله البجلي لهدم ذي الخلصة.

ومن الأصنام ما يتلفه أصحابه عندما يدخل الإيمان في قلوبهم، قدم جرير بن عبدالله البجلي المدينة، فسأله رسول الله ﷺ عن حال من وراءه، فقال: قد أظهر الله الإسلام، وهدمت القبائل أصنامها التي كانت تعبد.

وقدم وفد خولان المدينة، فقال النبي ﷺ: «ما فعل صنم خولان الذي كانوا يعبدونه؟»، قالوا: بدلنا الله به ما جئت به، إلا أن عجوزاً وشيخاً كبيراً كانا يتمسكان به، وإن قدمنا عليه، هدمناه ـ إن شاء الله تعالى ـ، ولما رجعوا إلى قومهم، بادروا إلى هدمه، وهذا الصنم هو الذي يسمى: عميانس.

تختلف العقول في التنبه لباطل الأصنام، والمبادرة إلى البراءة منها، فهذا سادن «نُهْم» بلغه أمر النبي ﷺ، وما فعل بالأصنام، فقام إلى ذلك الصنم، فكسره، وقال:

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده ... عقيرة نسك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها ... أهذا إله أبكم ليس يعقل

ولحق بالنبي ﷺ، ودخل في الإسلام.

وذلك عمرو بن الجموح: كان قد اتخذ صنماً من خشب، فلما أسلم فتيان من قومه، أخذوا الصنم، وربطوا به كلباً ميتاً، وألقوه في بئر، فخرج عمرو يبحث عن معبوده، حتى وجده في البئر مقروناً بالكلب، فقال:

والله لو كنت إلهاً لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر في قرن

وأسلم كما أسلم الفتيان.

وقد عرفتم كيف كسر إبراهيم ـ عليه السلام ـ أصنام قومه، وجعلها جذاذاً؛ ليدلهم على ضعفها، وعجزها عن دفع الأذى والمهانة عن نفسها، فزادهم ذلك طغياناً، وأسرعوا إلى عقاب إبراهيم، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وكذلك كان جهاده ﷺ في هدم الأصنام، ومحو أثرها على الفور، ويأبى أن يبقي مظهراً من مظاهر الشرك بين قوم مسلمين، وهم قادرون على تحطيمه.

قدم عليه وفد ثقيف، وشرح الله صدورهم للإسلام، ولكن سألوه أن يدع لهم صنم اللات مقدار ثلاث سنين؛ مخافة أن يغضب لهدمه سفهاؤهم وبعض نسائهم، فأبى عليهم ذلك، وأرسل المغيرة بن شعبة لهدمه؛ كما ذكرنا آنفاً.

وقال راشد بن عبدالله السلمي يذكر ما صنع رسول الله ﷺ وصحبه بالأصنام:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يــأبى الإلــه عليــك والإســلام

أو مــا رأيــت محمــداً وقبيلــه ... بــالفتح حـين يكـسر الأصـنام

ورأيت نـور الله أضـحى سـاطعاً ... والشرك يغـشى وجهـه الإظـلام

طهر محمد ﷺ جزيرة العرب من عبادة الأوثان، وجرى أصحابه رضي الله عنهم على هذه الطريقة في كل وطن نسجت فيه عناكب الشرك، فأبادوا الأصنام، وما يشبه الأصنام؛ كمعابد النار، وتفقهوا في الدين، فأخذوا في إبعاد الناس عن عقيدة الشرك بطريق الحزم، وسد الذرائع التي قد تفضي إليه، وشاهد هذا: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلغه أن قوماً يأتون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان، فيصلون عندها، فتوعدهم، ثم أمر بقطعها، فقطعت.

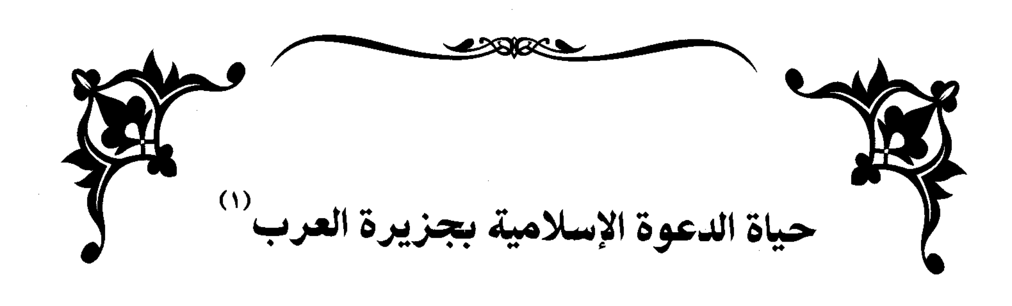
وإنما قطع عمر هذه الشجرة؛ خشية أن يصير الأمر إلى الجهلة، فيبالغوا في تعظيمها إلى حد الاعتقاد بأنها تنفع أو تضر، خصوصاً أن العهد بعبادة

الأشجار لا يزال قريباً.

وختام هذه الكلمة: أن الدعوة إلى التوحيد الخالص أساس كل إصلاح، فمن واجب دعاة الإصـلاح أن يجاهدوا في تقويم العقائـد؛ فإن العقائد السليمة مصدر كل خير، والعقائد الزائغة منشأ كل فساد.

وإذا كـان فـي الأنابيـب حيـفٌ		وقع الطيش في صـدور الـصِّعاد

❐ ❐ ❐



حياة الدعوة الإسلامية بجزيرة العرب(1)

* حكمة ظهورها في العرب:

الإسلام دين عام، لا يختص بأمة دون أخرى، فهو في حاجة إلى دعاة يذهبون به إلى الأمم شرقاً وغرباً، والدعوة إلى الحق والإصلاح تنجح في سرعة، ويعظم أثرها في القلوب، بمقدار ما يكون للداعي من براعة في فنون البيان.

ومن المعروف أن العرب قبضوا على زمام البلاغة، وحسن التصرف في القول ما لم تبلغه أمة من الأمم في عهدهم.

وهذه المزية التي عرفت للعرب تستدعي أن يكونوا أول من يظهر الدين العام في ديارهم، حتى يجد رجالاً تحقق فيهم أهم شرط من شروط القيام بالدعوة الموجهة إلى أمم مختلفة، وطبقات متفاوتة، وهو فصاحة اللسان، وحكمة البيان.

ثم إن الإسلام دين لا يقتصر على مجرد الدعوى والإرشاد، بل يقصد إلى أن تكون أوامره نافذة، وأحكامه بين الأمم جارية، وأن تزاح كل عقبة

---

(1) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الحادي عشر من المجلد التاسع الصادر في جمادى الأولى ١٣٥٦ ـ يولية ١٩٣٧.

تقف في سبيل دعوته، وإنفاذ أوامره، فمن مقاصده: إقامة دولة إسلامية تجري في سياستها على شريعته ونظمه.

وهذه المزية تستدعي أن يكون أول القائمين بالدعوة إليه، والجهاد في إنقاذ ما جاء من إصلاح، ذوي أخلاق عظيمة، من نحو: الشجاعة، والصبر على المشاق، وقلة التعلق بالترف وزخارف الحياة.

وإذا نظرنا إلى الأمة العربية من الوجهة النفسية، نجدها امتازت بأخلاق سامية فاقت فيها غيرها من الأمم؛ فقد كان العرب في الشجاعة والاستهانة بالموت في أقصى ذروة.

تشهد بهذا أشعارهم في الفخر بالإقدام والبسالة، ثم تاريخهم المملوء بوقائع الحروب، وحديث الأبطال الذين يؤثرون الموت في عزّ على الحياة في هون، ويتصل بالشجاعة: ما كانوا عليه من إباء الضيم، وعزة النفس، ومن يأبى الضيم، ويحمل في نفسه عزة، يقف في الدفاع عما يراه حقاً أو إصلاحاً موقف الطود الراسخ، لا يخضع له عنق، ولا يتزلزل له قدم.

*** حياتها بمكة:**

عندما نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١ - ٣]، شمر عن ساق الجد في الدعوة، وأخذ يدعو إلى الحق، وأول من آمن به: خديجة - رضي الله عنها -؛ إذ علمت حين أخبرها بما تلقّى من ملك الوحي: أن أعماله الصالحة، وخصاله الشريفة، لا يناسبها إلا كرامة الله تعالى، وإتمام النعمة عليه.

وفي أول المؤمنين به: علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وزيد ابن حارثة رضي الله عنهم، وأخذ الناس بعد هذا يدخلون في الدين واحداً بعد واحد،

وبقي ﷺ نحو ثلاث سنين يدعو خُفية حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[الحجر: ٩٤]، فصار يدعو إلى الله في علانية، ونادى قريشاً بعيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، في عبادة ما لا ينفع ولا يضر، فناصبوه العداوة، وأرادوا به وبأتباعه الأذى، وكان لأبي طالب يد في حماية النبي ﷺ من المشركين، وأما أصحابه، فمن كان له عشيرة، أو دخل في جوار ذي سطوة، هابوا جانبه، ومن لم يجد حامياً، أطلقوا أيديهم في أذيته، ولما اشتد البلاء على المؤمنين، أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة.

وكان لإسلام عمر بن الخطاب أثر كبير في إظهار الدعوة؛ حيث صار المسلمون يصلّون في الحرم، وكانوا إذا أرادوا الصلاة، خرجوا إلى الشعاب حيث لا يراهم المشركون.

قام النبي ﷺ يدعو إلى الله تعالى بين كفار قريش، وأعظم طرق الدعوة أثراً: تلاوة القرآن الحكيم؛ إذ نرى كثيراً من المسلمين أعلنوا إسلامهم عقب سماعهم للقرآن؛ كما أسلم عمر بن الخطاب عقب سماعه سورة منه، ويضاف إلى هذا: ما كان النبي ﷺ يتحلى به من فصاحة المنطق، وبلاغة القول، واستقامة السيرة، وسماحة الأخلاق، وسمو الآداب، من نحو: الصبر، والرفق، وعدم مقابلة السيئة بمثلها.

وكان ﷺ مجداً في الدعوة، حتى إنه ذهب إلى الطائف من أجلها ماشياً، وكان يعرض نفسه على القبائل في كل موسم، ويدعوهم إلى الإسلام، ويتلو عليهم القرآن، ويكلم كل شريف قوم[1].

---

(١) ممن ذكرت أسماؤهم من القبائل التي دعاها في المواسم، وعرض عليهم نفسه: بنو عامر بن صعصعة، وفزارة، وغسان، ومرة، وبنو حنيفة، وسليم، وعبس، =

وكان أصحابه رضي الله عنهم يؤازرونه في الدعوة؛ كما دعا أبو بكر الصديق عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، فدخلوا الإسلام بدعوته، وكان علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق يخرجان معه عندما يخرج إلى دعوة القبائل في المواسم.

أقام النبي ﷺ داعياً إلى الحق بين كفار قريش ثلاث عشرة سنة، وسبب بطء ظهور الإسلام بمكة بالنسبة إلى ظهوره بالمدينة: أن كفار قريش كانوا يقاومون الدعوة بأشد ما يملكون من القوة، ويصدون عن سبيلها بألسنتهم وأيديهم.

فمن مقاومتهم لها: أنهم كانوا يكثرون من التهكم والاستهزاء بالنبي ﷺ؛ كقولهم له عندما يقرأ عليهم القرآن: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾[فصلت: ٥]. وقولهم عندما يرونه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[الفرقان: ٤١]. وكان كبار المستهزئين نفراً من ذوي الوجاهة في قومهم؛ مثل: الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وفي هؤلاء وأمثالهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾[الحجر: ٩٥]. وكانوا يتعرضون له بالشتم والهجاء؛ كقولهم: إنه ساحر، أو مجنون، ويصفون القرآن بأنه أساطير الأولين.

ومن مقاومتهم له: أنهم كانوا يتبعون أثره، ويصدون عن قبول دعوته؛ كما كان أبو لهب يتتبعه عندما يقوم بدعوة القبائل في المواسم، ويقول لهم: إن هذا يدعوكم أن تخلعوا اللات والعزَّى من أعناقكم، إلى ما جاء به

= وبنو النضر، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة. ولم يستجب له من هؤلاء أحد، ومنهم من كان يرد عليه أقبح رد.

من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه.

ومن مقاومتهم له: تعنتهم في اقتراح المعجزات. قال الله تعالى فيما قصه عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣][١].

ومما قاوموا به الدعوة: تعاقدهم على بني هاشم، وبني عبد المطلب، وبني عبد مناف: أن لا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلِّموهم، ولا يجالسوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة علَّقوها في سقف الكعبة، واستمروا على هذه المقاطعة نحو ثلاث سنين، حتى رجع بعضهم عن هذا التعاقد، فعادوا إلى نقضه[٢].

ومن أشد ما قاوموا به الدعوة: بسط أيديهم إلى المستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ يسومونهم العذاب، مثل: عمار بن ياسر، وأُمه، وبلال بن رباح، بل وصلت أذيتهم إلى رسول الله ﷺ، فوضعوا على ظهره سَلَى جزور[٣] وهو يصلي عند البيت، حتى جاءت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ، فطرحته عنه، وبلغ من أذية أهل الطائف له عندما ذهب إلى دعوتهم: أن

---

(١) والرسول لا يأتي قومه إلا بما يظهره الله على يده حسبما تقتضيه الحكمة.

(٢) بعد نقض الصحيفة ببضعة أشهر توفي أبو طالب. وتوفيت خديجة ـ رضي الله عنها ـ بعده في تلك السنة.

(٣) السلى: جلدة فيها الولد من الناس والمواشي. الجزور: البعير ـ «القاموس».

أغروا به سفهاءهم يسبونه، ويرمونه بالحجارة.

وكانوا ـ مع هذا ـ يوردون على الرسالة شبهاً؛ كقولهم فيما قصه الله عنهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان: ٧][1]، وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[النحل: ١٠٣][2].

وما زال رسول الله ﷺ يلاقي أذاهم بالصبر، ويدفع شبههم بالحجة، ويأتيهم بالآيات البينات، وينبههم إلى ما في القرآن من إعجاز، إلى أن أراد الله تعالى إظهار دينه، وإعلاء كلمته، وإتمام نعمته على رسوله، فهيأ له أمر الهجرة إلى المدينة المنورة.

*** حياتها بالمدينة:**

لبث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يدعو إلى الإسلام، ويخرج إلى القبائل في المواسم، حتى جاء الموسم الذي أراد الله تعالى أن يكون بدء عهد جديد للدعوة، فخرج ـ صلوات الله عليه ـ لدعوة القبائل، شأنه في كل موسم، فلقى ستة من الخزرج، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأجابوه، وقبلوا ما عرضه عليهم، وانصرفوا إلى قومهم، ودعوا إلى الإسلام، وفي العام القابل وافى منهم اثنا عشر رجلاً، فلقوا النبي ﷺ بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوه على الإسلام، وبعث معهم مصعب بن عمير، وعمرو بن أم مكتوم، يعلمانهم القرآن، ويفقهانهم في

---

(١) رد الله عليهم هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان: ٢٠].

(٢) رد الله عليهم هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل: ١٠٣].

الدين، فأسلم على أيديهم خلق كثير.

ثم عاد مصعب بن عمير في الموسم بعد إلى مكة في جماعة من المسلمين مع حجاج قومهم أهل الشرك، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، فلقيهم رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ بالعقبة، وبايعوه على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن يقوموا في الله لا تأخذهم لومة لائم، وعلى أن ينصروه إذا قدم عليهم، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، ولهم الجنة[1]، وتلك بيعة العقبة الثانية.

وأذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً، ثم لحق بهم رسول الله ﷺ، وكان أول ما فعله من وسائل النهوض بالدعوة: أن بنى المسجد الشريف، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وكتب بينه وبين اليهود كتاب موادعة، ونهى عن إقامة المسلم بين المشركين، وجعلت الهجرة من أرض الشرك إلى المدينة فريضة، فكثر عدد المسلمين، وأصبح للدعوة حماة يقومون على نشرها، ويدافعون كل خصم يقف في سبيلها، وناسب وقتئذ أن يأذن الله لهم بجهاد عدوهم، فنزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[الحج: ٣٩]. ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠].

استقر النبي ﷺ بالمدينة، وقام بدعوة اليهود، فأسلم بعض أحبارهم؛ مثل: عبدالله بن سلام، وفريق من غير الأحبار؛ مثل: ثعلبة بن سعية، وأسيد

---

(١) «زاد المعاد» (ج٢ ص٥١).

ابن سعية؛ ولقي من غير هؤلاء الذين أسلموا أشد العداوة، والتقلب في التعنت والمكر، فاشتدوا في مجادلته، وهو يرد عليهم بالحجة، والقرآن المجيد يؤيده، كما قالوا له في بعض مجادلاتهم: ألست تزعم أنك تؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ قال: «بلى، ولكنكم أحدثتم، وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق، وكتمتم ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من إحداثكم»، قالوا: فإنا نأخذ مما في أيدينا فإنا على الهدى والحق، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[المائدة: ٦٨].

وكانوا يقترحون عليه بعض الآيات تعنتاً؛ كما اقترحوا عليه إنزال كتاب من السماء يقرؤونه، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾[النساء: ١٥٣].

وكان بعض أحبارهم يوجهون إليه أسئلة بقصد الإعنات؛ كما سألوه عن الروح، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥].

واتخذوا في وسائل مقاومة الدعوة هجاء النبي ﷺ؛ كما صنع كعب ابن الأشرف؛ إذ كان يهجو رسول الله ﷺ، ويشبب بنساء المسلمين، واتصلوا بكفار قريش وغيرهم يحرضونهم على قتال رسول الله ﷺ، ومنهم من يبذل في ذلك أموالاً؛ كأبي رافع عبدالله بن أبي الحقيق؛ إذ كان يؤذي رسول الله ﷺ، وأعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ـ صلوات الله عليه وسلم ـ.

ولم يستطيعوا أن يكتموا عداوتهم لرسول الله ﷺ، ويكفّوا أذاهم عنه، فوقعوا في نقض العهد، والجهر بالسوء من القول، وموالاة المحاربين؛ كما يظهر ذلك بالنظر في أسباب واقعة بني قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير.

وكان للدعوة في المدينة أثر في فريق من اليهود[1] وغيرهم آمنوا بحق، وطائفة من اليهود، ومن الأوس والخزرج أسلموا بظاهرهم، وبقيت قلوبهم على الكفر، وهم المنافقون، وكان في اكتفاء النبي ﷺ من هؤلاء المنافقين بالإسلام الظاهر، مع معرفته لحال كثير منهم، حكم بالغة، منها: أن اتصالهم بالنبي ﷺ والمؤمنين وسيلة لاطلاعهم على سيرته وسيرة أصحابه، ومشاهدتهم من آيات الرسالة مالم يشهده غيرهم من المخالفين، فيكون ذلك من أسباب انتقالهم من النفاق إلى الإيمان، وكذلك يكون حال أبنائهم الذين ينشؤون مع المؤمنين، ويقومون بشعائر الإسلام، ويأخذون بآدابه.

ومن حكمة الداعي - صلوات الله عليه - في قبول صنف المنافقين، ومعاملتهم بمقتضى ظاهر حالهم: فتح الطريق لكل من يريد الإسلام، ولو أخرجهم النبي ﷺ من المسلمين، أو عاقبهم على ما يعلم من سرهم، لأحجم بعض من تميل نفسه إلى الإسلام مخافة أن يشتبه حاله على المسلمين، ولوجد المخالفون سبيلاً إلى أن يرموا المسلمين بالقسوة، وعدم رعاية العهد،

---

(١) قوله ﷺ: «لو آمن بي عشرة من اليهود، لآمن بي اليهود» المراد من العشرة: رؤساؤهم؛ مثل: كعب بن الأشرف، ورفاعة بن زيد، وعبدالله بن حنيف. وروى البيهقي: أن يهودياً سمع النبي ﷺ يقرأ سورة يوسف، فجاء ومعه نفر من اليهود، فأسلموا.

وإن كانوا يعلمون حال أولئك المنافقين.

* انتشار الإسلام بالجزيرة:

ما زال الناس يدخلون في الإسلام فرادى، أو جماعات قليلة ممن يشهدون مجلس رسول الله ﷺ، ويقوم لهم من محادثاته، أو سماع القرآن آيات على صدق نبوته، إلى أن فتحت مكة، ودانت له قريش، وأسلمت ثقيف، فانتشر الإسلام في بلاد العرب انتشاراً شاملاً سريعاً، فأقبلت وفود العرب تضرب إلى رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ من كل ناحية، وذلك ما أشار إليه القرآن المجيد بقوله تعالى في سورة النصر: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[النصر: ٢].

أقبلت الوفود، فمنهم من يفدون وهم مسلمون؛ كوفد مراد، ووفد بني عبس، ووفد صداء، ووفد محارب، ووفد خولان، ووفد بني أسد، ووفد فزارة، ووفد نجيب، ووفد بني سعد، ووفد كندة، ومنهم من يدخلون في الإسلام عند ملاقاتهم لرسول الله ﷺ؛ كوفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد طي، ووفد بني زبيد، ووفد الأزد.

وكان لإسلام رؤساء هذه القبائل أثر كبير في إسلام من عداهم من العامة، ففي السيرة: أن ضمام بن ثعلبة قدم موفداً من بني سعد بن بكر، فأسلم، وعاد إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فما بقي في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امراة إلا مسلماً.

كان هؤلاء الوفود يدينون بالإسلام، ويعودون إلى قومهم، وهم من أشد الدعاة إليه.

ومن وسائل انتشار الدعوة: أولئك الرجال الذين كان رسول الله ﷺ

يبعثهم إلى القبائل للدعوة إلى الدين الحق؛ مثل: خالد بن الوليد، وممن أسلم على يده: بنو الحارث بن كعب، ومثل علي بن أبي طالب، وممن أسلم على يده: همدان. وبعث رسول الله ﷺ كتباً مع رسل إلى ملوك العرب، فبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعبدالله ملكي عمان؛ وبعث سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي ملك اليمامة، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، والمهاجر بن أمية إلى الحارث بن عبد كلال ملك اليمن، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن شمر الغساني ملك تخوم الشام، وأسلم من هؤلاء في ذلك العهد ملك البحرين، وملك عمان.

انتشر الإسلام في الجزيرة، فلم ينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن دخل عبدة الأوثان من العرب في الإسلام، وأقر اليهود والنصارى والمجوس حين رضوا بإعطاء الجزية.

انتشر الإسلام في الجزيرة، وظهر على الأديان كلها، ولكنه لم يكن قد دخل في قلوب كل من قالوا: إنَّا مسلمون، بل منهم من دخلوا في الإسلام لباعث غير الإيمان، فلما ذاع نبأ وفاة النبي ﷺ في أنحاء الجزيرة العربية، رفع المضللون رؤوسهم، ونشطوا لإلقاء الوساوس في قلوب السذج من الأعراب، وأخذ الذين دخلوا في الإسلام بدافع غير الإيمان يعودون إلى جاهليتهم، وأصبح العرب ثلاث طوائف:

طائفة استمرت على إسلامها الخالص، وهم الجمهور.

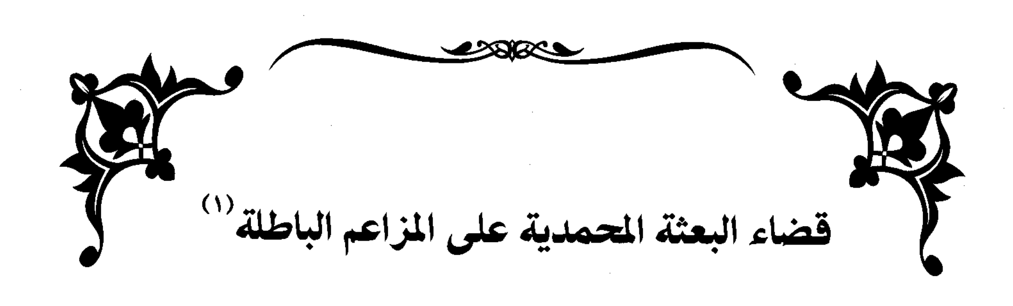
وطائفة بقيت على إسلامها كذلك، إلا أنها جحدت الزكاة على زعم أنها خاصة بزمن النبي ﷺ، وهؤلاء كثير، ولكنهم أقل من الطائفة الأولى عدداً.

وثالثة الطوائف خرجت عن الإسلام، وجاهرت بالردة، وهي قليلة

بالنسبة إلى جاحدي الزكاة.

وقد قام أبو بكر الصديق ﷺ بقتال المرتدين وجاحدي فريضة الزكاة، فلم يحل الحول إلا والجميع قد راجعوا دين الإسلام، وامتدت ظلال الأمن والهداية في اليمين والشمال.





قضاء البعثة المحمدية على المزاعم الباطلة[1]

بُعث الرسول الأعظم ـ صلوات الله عليه ـ بالدعوة إلى الإصلاح الذي تصل به الأفراد والأمم إلى الحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة العظمى في الأخرى، ونواحي هذا الإصلاح ترجع إلى العقائد والأخلاق، والعبادات المقربة إلى الله ـ جلّ جلاله ـ، والمعاملات الجارية بين الناس.

وهناك ناحية أخرى هي: تنقية النفوس من المزاعم الباطلة، والتعلق بالعادات المستهجنة، قد اتجهت إليها دعوة الرسول الذي نحتفل بذكرى ميلاده في هذه الليلة المباركة، وهذه الناحية هي التي نقصد أن نلقي فيها كلمتنا الموجزة:

بُعث رسول الله ﷺ، فوجد العرب في ظلمات من الجهالة، ومن هذه الظلمات: ظلمة التخيلات الزرية، والعادات الممقوتة، فأقبل ينبه على بطلان هذه التخيلات، وقبح ما ابتني عليها من العادات، حتى نبذها المسلمون بحق، وبمثل هذا كانوا خير أمة أخرجت للناس.

وبسط الحديث عن هذه المزاعم والعادات يستدعي مقاماً أوسع من

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء العاشر من المجلد العاشر الصادر في ربيع الثاني ١٣٥٧ ـ ١٩٣٨ . محاضرة الإمام في احتفال جمعية «الهداية الإسلامية» بذكرى المولد النبوي المجيد في مساء يوم الخميس الثاني عشر من ربيع الأول ١٣٥٧ .

هذا المقام، فنكتفي بأن نسوق إلى حضراتكم طائفة منها على سبيل التمثيل، وندع استيفاء البحث عنها إلى فرصة أخرى.

وإذا تحدثت في هذه الكلمة عن العرب، فلأنهم أول أمة تلقت هذه الدعوة الإصلاحية الشاملة، ووقعت منها موقع الدواء الناجع من العلل المزمنة.

ومن حديثي عن العرب، يعرف أثر دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تخليص سائر البشر من التخيلات الضارة، والسمو بها إلى المنزلة العليا في البحث والتفكير؛ فإن الأمم غير العربية لم تكن في تعلقها بالأوهام وانحطاطها في العادات بأقل ولا أحقر من الأمة العربية قبل الإسلام، كما أنها كانت تضاهيها في بطلان عقائدها، واعوجاج سيرتها.

ولعلك لا تجد زعماً باطلاً في العرب إلا وجدته بنفسه، أو وجدت ما يضاهيه في غير العرب، وإذا حط الشرك والاعتقاد بإلهية المخلوق رحاله في قوم، فهنالك ترى البصائر في ظلمة، وهنالك يبيض التخيل ويفرخ، وهنالك تسمع وترى من الأباطيل والخرافات ما يدلك على أن أشخاصاً أو جماعات يعدون في الناس، وهم لا يشبهون الناس إلا بأن أصواتهم تشتمل على حروف متمايزة.

كان العرب يتشاءمون بكثير من الأشياء؛ نحو: الغراب، والبومة، أو مرور الطير من ناحية الشمال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التشاؤم بإطلاق، فقال: «لا طيرة»، ونبه على أن وجوه الخير والشر إنما تعرف من طريق الشرع أو العقل. ومن سوء عواقب التشاؤم بهذه المخلوقات أنها قد تصد الرجل عن وجهة لو مضى فيها، لنال خيراً كثيراً أو قليلاً.

ومن المحزن أن ينهى رسول الله ﷺ عن التشاؤم، ويزيحه من طريق العاملين المجدين، ويضع عقيدة التوكل على الخالق مكانه، ثم لا يلبث وباؤه الخبيث أن يعود، ويتفشى في نفوس كثير من جماعات المسلمين، فهذا يتشاءم بمن يعوده وهو مريض في يوم الأربعاء، وذاك يتشاءم بتناول سكين أو مقراض من يد صديق له، بل لا يزال كثير من الناس يتشاءمون بما كان الجاهلية يتشاءمون به من نحو: رؤية البوم والغراب. والبصائر المشرقة بنور الحكمة لا يحوم عليها التطير في حال.

وكان العرب في جاهليتهم يستقسمون بالأزلام؛ ذلك أنهم كانوا يتخذون ثلاثة أقداح يكتبون على واحد منها: (افعل)، وعلى الثاني: (لا تفعل)، ويتركون الثالث غُفلاً، فإذا أراد أحدهم أمراً يهمه؛ من نحو سفر، أو نكاح، أو تجارة، أجال هذه الأقداح، فإن خرج له قدح الأمر، فعل، وإن خرج له قدح النهي، ترك، وإن خرج له القدح الغفل، أجال الأقداح مرة ثانية. ومن أثر هذا التخيل الفاسد: أن الرجل قد يترك العمل وفيه خير كثير، أو يقدم على عمل وفيه شر عظيم. وكان هذا التخيل مما تناولته الدعوة المحمدية، وجاء النهي عنه في القرآن المجيد، ووضعت السنة الغراء مكانه الاستخارة الشرعية والاستشارة.

وإبطال الشريعة للأزلام يجري حكمه في كل ما يتخذ وسيلة للاطلاع على عواقب الأمور من غير طرقه الشرعية أو العلمية؛ مثل: الاستخارة بالمصحف، أو السبحة، ونحوها، فكل هذا ما عدا الاستخارة الشرعية بدعة لا يجوز التعلق بها.

وكان للعرب غلو في الاعتقاد بتصرف الجن في نفع الناس وضرهم،

وتعرضهم في الفلوات لمن يمر بها، ومن هنا جاء اسم الغول والسعلاة، وذهب بهم هذا الغلو إلى مزاعم باطلة، وعادات منبوذة؛ كزعمهم في بعض الحيوان أنها نوع من الجن، أو من مراكب الجن، مثل: القنفذ، والأرنب، والظبي، والنعام، وزعموا أن الجن قالوا في أشعارهم:

وكل المطايا قد ركبن فلم نجد ... ألذ وأشهى من ركوب الأرانب

وللعرب في الجاهلية رقية يعالجون بها من اعتقدوا أن به مساً من الجن، تسمى: «النشرة»، وقد سئل عنها النبي ﷺ، فقال: «هي من عمل الشيطان». وكذلك ترى القرآن والسنة يحاربان إسراف العرب في الاعتقاد بالجن، وينبهان على ما نشأ عن هذا الإسراف من المزاعم الباطلة؛ كما قال تعالى في نفي أن يكون الجن يعلمون الغيب: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤]. وقال ﷺ في إبطال ما يتخيلونه من الغول: «لا صفر، ولا غول».

ومما يؤسف له أشد الأسف: أن تعود الجماعات غير المهذبة إلى الاكثار من الحديث عن تصرفات الجن، ويتخذوا لمعالجتها أمثال ما كان في عهد الجاهلية؛ كهذا الصنيع الذي يسمونه: «الزّار».

وما كنا لنجد سلفنا الذين تهذبت نفوسهم ببعثة الرسول الأكرم - صلوات الله عليه - ما نجده في أزمنة متأخرة من المزاعم المتعلقة بالجن؛ كزعم اتخاذ زوجات منهم، أو رواية أحاديث نبوية عن بعضهم.

ومن مزاعمهم الفاسدة: أنهم كانوا إذا أجدبوا، وحبس عنهم المطر، عمدوا إلى نوعين من الشجر يقال لهما: السلع والعشر، فحزموهما، وعقدوهما في أذناب البقر، وأضرموا فيها النار، وأصعدوها في جبل وعر يستشفعون

بها، وإلى هذا يشير الشاعر بقوله:

أجاعـــل أنـــت بيقـــوراً مـــسلعة دريعـــة لـــك بـــين الله والمطـــر

وقد أبطلت الدعوة المحمدية هذه العادة المنكرة، ووضعت مكانها صلاة الاستسقاء التي هي عبادة لله خالصة.

ومن البلاء: أن ترى أقواماً من العامة في بعض البلاد يتخذون للاستسقاء وسائل تشبه ما يفعله الجاهلية؛ كالخروج ببعض الأناشيد وآلات الطرب، ونحو ذلك من البدع التي لم يضعها الشارع الحكيم وسائل للاستقاء.

ولنسق إلى حضراتكم مثلاً آخر من المزاعم التي حاربها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، هو: اعتقادهم بنفع خرزات أو أحجار أو أعضاء بعض الحيوان، فكانوا يعلقونها على أنفسهم لأغراض مختلفة؛ مثل: اجتلاب المحبة، أو المنع من الحمل، أو السلو عن الحب، أو الحفظ من مس الجن. وقد نهى رسول الله ﷺ عن تعليق ما يماثل هذا من التمائم، فقال: «من يعلق تميمة، فلا أتم الله له»، وامتنع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مبايعة شخص كانت عليه تميمة، فأدخل الرجل يده فقطعها، فبايعه عند ذلك النبي ﷺ، وقال: «من علق تميمة، فقد أشرك»، وقال: «من علق شيئاً، وكل إليه».

وهذه الأحاديث ـ وإن وردت في تمائم الجاهلية ـ، فإن السلف الصالح لم يعرفوا بتعليق التمائم، وإنما كانوا يستشفون بالقرآن الكريم على وجه الرقية كما ثبت في السنة.

وإذا نظرتم إلى هذه المزاعم والعادات التي أبطلتها الدعوة المحمدية، وجدتم بعضها أثراً من آثار عقيدة الشرك، وبعضها إنما هو أثر الجهل

وضعف الفكر.

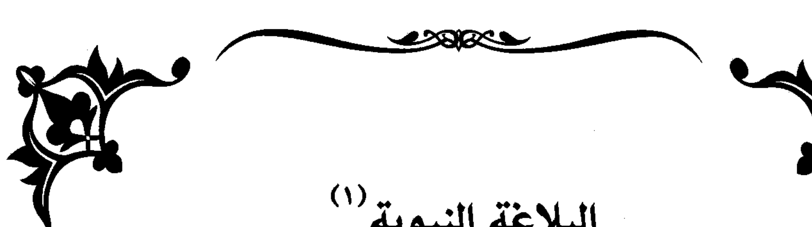
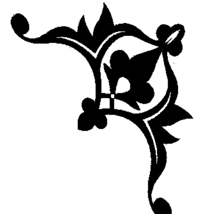
فمن مزاعمهم التي هي وليدة الشرك: أخذ الغلام لسنه إذا سقطت، ورميها في وجه الشمس عندما تطلع، وقوله: يا شمس! أبدلينا سناً أحسن منها. وهذا أثر من آثار الاعتقاد بإلهية الشمس.

ومن المحزن أنا نرى هذه العادة الوثنية بعد أن طردها التوحيد، ونفاها من الأرض، ترجع وتنتشر بين الجماعات الجاهلة ككثير من مزاعم الجاهلية وعاداتهم.

ومن المزاعم الناشئة عن الجهل وضعف الفكر: أن الواحد منهم إذا أراد السفر، عقد خيطاً بشجرة على اعتقاد أنه متى أحدثت امرأته بعده أمراً منكراً، انحل ذلك الخيط. وفي هذا الزعم الساقط ضرر كبير على صلة الزوجية، وعلى عرض المرأة؛ فإن الخيوط التي تعقد في الأشجار، معرضة للحل أو الانحلال في كل وقت.

فالحق أن من وقف على هذه الأوهام والخرافات التي كان العرب وغير العرب منغمسين في أرجاسها، ازداد علماً بعظمة رسول الله ﷺ، وفضل بعثته في إصلاح العقول، وتهيئة الأفكار للبحث في العلوم، والسير بها إلى غايات سامية.



البلاغة النبوية[1]

يقصد كل خطيب أو شاعر ناحية من نواحي كمال الرسول الأعظم ـ صلوات الله عليه ـ، فيصفها، ويذكِّر الناس بها؛ ليزدادوا إيماناً بأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد بلغ الغاية التي لا تدرك إلا بعنايةٍ إلهية خاصة، وليتخذها طلاب السيادة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، المثل الأعلى يتأسون به، ويسيرون في ضوئه.

ومن أعظم ما يبهر العقول من خصال كماله ﷺ: خصلة فصاحته وبلاغته.

لا يدعو رسول الله إلا إلى حق، ولا ينطق إلا بحكمة، وأعطي مع هذه العصمة أسمى ما يمكن أن يصل إليه البشر من فصاحة وحسن بيان؛ فإن الحكمة التي تلقى في أسلوب بليغ، تنفذ إلى القلوب قبل أن تنفذ إليها الحكمة التي تلقى في عبارة غير بليغة، وإن الحق ليعتمد على الحجة، ولكن حسن البيان يسعد الحجة في جعل الحق أقرب إلى النفوس، وأنفذ في القلوب، وقد طلب موسى ـ عليه السلام ـ من الله تعالى أن يرسل معه

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء العاشر من المجلد الحادي عشر الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٥٨ ـ مايو ١٩٣٩. محاضرة الإمام في احتفال جمعية الهداية الإسلامية بذكرى المولد النبوي الشريف.

أخاه هارون؛ ليشد أزره بفصاحة لسانه، وحسن بيانه، فقال: وأرسل معي أخي هارون ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[القصص: ٣٤].

لفصاحة رسول الله وحسن بيانه بعد الفيض الإلهي أسباب، منها: أنه قرشي، وقريش أفصح العرب لساناً، وأبرعها بياناً، وأنه نشأ في بني سعد؛ حيث استرضع فيهم، وبنو سعد من أرقى قبائل العرب فصاحة، وبذلك جمع الرسول الأكرم بين جزالة كلام البادية، ورونق كلام الحاضرة.

ولنزول القرآن الكريم عليه، وهو البالغ مرتبة الإعجاز، أثر كبير في سمو فصاحته، رأى رسول الله ﷺ سحابة في يوم دجن، فقال لمن كان في الحضرة: «كيف ترون بواسقها؟»(١)، قالوا: ما أحسنَها وأشدَّ تراكمها! قال: «كيف ترون قواعدها؟»(٢)، قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها! قال: «كيف ترون رحاها؟»(٣)، قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها! قال: «كيف ترون جونها؟»(٤)، قالوا: ما أحسنه وأشد سواده! قال: «كيف ترون بريقها، أخفياً أو وميضاً، أم يشق شقاً؟»، قالوا: بل يشق شقاً، فقال: «الحيا»(٥). فقال رجل: يا رسول الله! ما أفصحك! ما رأينا الذي هو أعرب منك، قال: «حق لي؛ فإنما أُنزل القرآن عليَّ بلسان عربي مبين».

ولسعة العلم بلهجات العرب دخلٌ كبير في إحراز المرتبة العليا في

---

(١) بواسقها: ما استطال من فروعها.

(٢) ما اعترض من السحاب وسفل.

(٣) رحاها: وسطها.

(٤) الجون: الأسود.

(٥) الحيا: المطر.

الفصاحة، وقد أطلع الله الرسول الأكمل على لهجات العرب، فكانت موضوعة أمامه يتناول منها ما يشاء، ومن الوارد في كتب الحديث والسيرة بروايات ثابتة متعددة: أنه كان يخاطب الوفود، ويراسل القبائل بلهجاتهم، حتى كان بعض الصحابة يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله[1]. وقد جمع الرواة من هذا الباب شواهد كثيرة.

ومن ينظر فيما روي عنه من الخطب والرسائل والمحاورات والفتاوى، وما يلقيه في أثنائها من الحكم، وما يورده فيها من الأمثال والاستعارات، يرى في ذلك من وجوه البلاغة وحسن البيان مالم يره، ولن يراه قد تأتى لأحد البلغاء من غيره.

ووصف الجاحظ فصاحة النبي ﷺ وبلاغته في فصل ممتع، ثم قال: «ولعل بعض من يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره، كلا، والذي حرم التزيد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء! لا يظن هذا إلا من ضل سعيه، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم».

والحق أن فصاحة رسول الله ﷺ وروعة بيانه لا يدركها إلا من تردد بنظره على الحديث الشريف، ودخل في كل باب من أبوابه؛ إذ يرى الكلام الذي يصدر عفواً دون أن يكون للتصنع فيه أثر، ويمر فيما يقرأ على جمل تهتز لروعتها القلوب، ومن لم يسعده الحال أن يطالع كتب الحديث، فلينظر في كتب غريب الحديث، فإنه يطلع في أقرب وقت على جانب عظيم من

---

(١) «الشفاء» للقاضي عياض.

الألفاظ النبوية البالغة منتهى الفصاحة وحكمة الأسلوب.

وفي الناس من تسمو حكمته في بعض نواحي الحياة، وتقتصر في بعض، أما رسول الله ﷺ، فيلقي الحكمة في النواحي المختلفة من شؤون الحياة الفردية أو الاجتماعية، فترد في أعلى طبقة من سمو اللفظ وحسن التصوير، فهو الذي يتكلم في الحقوق مثلاً، فيقول: «ولا يجني على المرء إلا يده». ويتكلم في سياسة الحرب، فيقول: «الحرب خدعة». ويحذر من الخروج عن جماعة المسلمين فيقول: «من خالف الجماعة، فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه». ومن الظلم فيقول: «الظلم ظلمات يوم القيامة». ويشير إلى أن شأن المؤمن أن يكون نبيهاً حازماً، فيقول: «لا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين».

لبلاغته ﷺ مظاهر شتى، ومن أوضح مظاهرها: الأمثال التي يضربها لإخراج المعاني في صورة المحسوسات، أو إخراج المحسوسات الخفية في صورة المحسوسات الجلية.

انظروا إلى قوله في موقع بعثته من بعثات الأنبياء قبله: «إنما مثلي ومثل الأنبياء قبلي مثل رجل بنى داراً، فأكملها وأحسنها إلا موضعَ لبنة، فجعل الناس يدخلونها، ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع تلك اللبنة، فكنت أنا موضع تلك اللبنة». وإلى قوله في محو الصلوات للآثام: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل منه خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟». وإلى قوله فيما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من الإخاء والتراحم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وهكذا نرى في تشابيهه واستعاراته سهولة مأخذ، وبعداً عن التصنع، وإبداعاً في إعطاء المعنى صورة تجعله أوضح ما تكون، أو تزيد النفوس ترغيباً فيه، أو تنفيراً منه، فانظروا إلى قوله يصف الشريعة الغراء: «قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك». وقوله يدل على شدة عزمه وثباته على الدعوة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر، ما تركته».

وفي الناس من إذا خطب في الجمهور، رأيته في درجة عالية من حسن البيان، فإن عرض له حديث مع بعض الأفراد، أو حديث في معان قريبة التناول، رأيته قد انحط إلى درجة دون الدرجة الأولى، أما حديث رسول الله ﷺ مع الأفراد، أو في المعاني السهلة الفهم، فإنه لا ينزل عن مرتبة بلاغته العليا.

يقول ﷺ في بعض خطبه: «من كان همه الآخرة، جمع الله شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كان همه الدنيا، فرق الله أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له».

وهذا طرز فصاحته في المعاني التي تجري على الألسنة كثيراً؛ كقوله في الاستعداد للسفر: «إني على جناح سفر»، وقوله في معنى الموت على الفراش: «من مات حتف أنفه[1] في سبيل الله، فهو شهيد»، وهذه الكلمة من الكلمات التي لم تعرف في حديث قبل حديث رسول الله[2]، وقد عقد

(١) أي: مات على فراشه من غير قتل ولا غرق ولا حرق.

(٢) البيت المعروف:

ومـا مـات منـا سـيد فـي فراشـه ولا طُـلَّ منـا حيـث كـان قتيـل=

ابن دريد في كتاب «المجتبى» باباً للألفاظ التي سمعت من النبي ﷺ، ولم تسمع من أحد قبله.

وبالنظر في أحاديثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تجده ينحو في كلامه وخطبه ومراسلاته نحو الإيجاز، فهو الغالب في أقواله، وربما خطب فأطنب.

قال أبو سعيد الخدري: خطب النبي ﷺ بعد العصر خطبة قال فيها: «ألا إن الدنيا خضرة حلوة، ألا وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون» قال: ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف[1].

ومن متممات الفصاحة: أن لا يعجل الرجل بالكلام، بل يلقي الكلمات مفصلة حتى تقع في الذهن كأنها عقد جيد تنسيقه، وكان ﷺ يلقي الكلام مفصلاً، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا، ولكن كان إذا تكلم بكلام، بيّنه، فيحفظه من يجلس إليه.

وقالت أم معبد تصف حديث رسول الله: حلو المنطق؛ كأن منطقه خرزات نُظِمن.

سمت بلاغة رسول الله ﷺ إلى الذروة، ولكنها لم تبلغ حد الإعجاز الذي هو خاص بالقرآن المجيد، والفرق بين بلاغة الحديث وبلاغة القرآن لا يخفى على ذوي الفطر السليمة، لا سيما الذين دربوا فنون البلاغة،

= وقد روي: «وما مات منا سيد حتف أنفه».

وإنما تصح هذه الرواية إذا قلنا: إن القصيدة لعبد الملك بن عبد الرحمن الحارثي، وهو شاعر إسلامي، لا للسموأل الذي هو شاعر جاهلي.

(١) السعف: جمع سَعَفة ـ بفتحتين ـ، وهو غصون النخل.

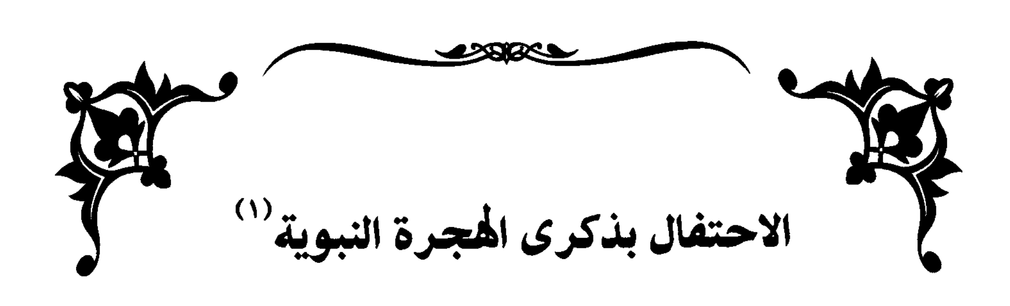
وقلبوا أنظارهم في أساليبها المختلفة، وعرفوا كيف يضعون كل كلام بليغ في مرتبته.

وهذا التفاوت الواضح بين القرآن والحديث من أصدق الشواهد على أن القرآن الكريم كتاب نزل من السماء، لا أنه من صنع النبي ﷺ كما يزعم من يجحدون بآيات الله.

وقد أجاز كثير من المحدثين رواية الحديث النبوي بالمعنى، ولو التزم جميع الرواة نقل الأحاديث باللفظ كما نطق بها ﷺ، لعرفنا من فصاحته، وبراعة بيانه أكثر مما عرفنا.

وهذه الخصلة من خصال كماله ﷺ، وهي الفصاحة، وحسن البيان، تدخل فيما يطلب الاقتداء به فيها؛ فإن دراسة علوم البلاغة، ومطالعة منشآت البلغاء، والتمرين على الخطابة والتحري، كل ذلك مما ينهض بالناشئين إلى أن يكونوا فصحاء بلغاء، حتى إذا تصدوا لبيان حق، أو دعوة إلى خير، استطاعوا أن يسترعوا الأسماع، ويأخذوا بالقلوب.





الاحتفال بذكرى الهجرة النبوية[1]

أيها السادة!

نحتفل الليلة بذكرى قصة خطيرة، كان لها أثر عظيم في إصلاح العالم، وإخراجه من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، ومن الهمجية القاتمة إلى المدنية الزاهرة، وهذه القصة هي هجرة الرسول الأعظم ـ صلوات الله عليه ـ من مكة المكرمة إلى طيبة الغراء.

بُعث رسول الله ﷺ بين مشركي قريش، وقد ملئت صدورهم غواية، ولبسوا من تقليد آبائهم الضالين سرابيل غليظة خشنة، فقام يدعو إلى نبذ عبادة الأوثان، والعود إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي التوحيد الخالص، ويهديهم سبيل العمل الصالح. فقاموا في وجه هذه الدعوة الصادقة يصدون عن سبيلها، ويبالغون في إيذاء من يتقبلها، فكانت مناوأتهم لها، وبذل الجهد في صرف الناس عن قبولها، من أسباب قلة انتشار الإسلام وظهوره أيام مقامه ﷺ بأرض مكة، والآذان التي تألف دعوة الحق لأول ما تطرقها، أو الفطر السليمة التي تعرف من لهجة صاحبها أنه محق، ليس بكثير.

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثامن من المجلد الثاني عشر الصادر في شهر صفر ١٣٥٩ ـ مارس ١٩٤٠.

وما زال المشركون يحاولون أن يطفئوا نور هذه الدعوة النبوية، ويبسطون ألسنتهم وأيديهم في إيذاء معتنقها، أو المتقبل لها، حتى وفق الله تعالى وفوداً من الأوس والخزرج لقبولها، ومبايعة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أن يكونوا أنصاره إلى الله، وعند هذا أذن الله لنبيه الكريم وأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة.

لم يرض النبي ﷺ أن يهاجر قبل أصحابه، ويدعهم يقاسون عذاب المشركين ألواناً، بل أمرهم بالهجرة قبله، فهاجروا فرادى وأرسالاً، ونبهت لهجرتهم المشركون لما ينويه النبي الأعظم من التحول إلى المدينة، وخافوا أن يعظم هنالك أمره، وتسري دعوته في القبائل، ويقضي على وثنيتهم، فائتمر المشركون به ذلك الائتمار المشار إليه بقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[الأنفال: ٣٠]، واستقر رأيهم على قتله، فما كان إلا أن تخلص ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مكة مهاجراً، ودخل المدينة آمناً.

وبين خروجه من مكة، ودخوله المدينة، فروق واضحة: خرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مكة في سواد الليل مختفياً، ودخل المدينة في بياض النهار متجلياً، وخرج من مكة وأهلها يحملون له العدواة والبغضاء، ودخل المدينة وقد استقبله المهاجرون والأنصار بقلوب ملئت سروراً بمقدمه، وابتهاجاً بلقائه، وخرج من مكة ومَنْ حوله يفكرون كيف يصلون إلى قتله، والقضاء على دعوته، ودخل المدينة ومَنْ حوله يتنافسون في الاحتفاء به، والقرب من مجلسه، وقد هيؤوا أنفسهم لفدائه بكل ما يعز عليهم.

أما فضل هذه الهجرة المباركة، فإنها آتت ثمراً طيباً، وأفاضت على

العالم خيرات تنفد الأيام ولا ينفد الحديث عنها.

فالهجرة هيأت للإسلام أن تكون له حكومة ذات سلطان غالب، وكلمة فوق كل كلمة.

والهجرة مكنت الحكومة الإسلامية أن تقضي بشرع الله الحكيم، وبالسلطان الغالب يقهر الأعداء، وبالشرع الحكيم يعيش الناس في أمن وسعادة، وكذلك كان شأن النبي ﷺ بعد الهجرة؛ فقد كان من القوة وتأييد الله تعالى له أن أصبحت الجزيرة العربية في بضع سنين طوع يمينه، وموضع نفاذ أمره، وأصبحت الأمة بما شرعه الله من أحكام المعاملات والجنايات، وبما أنار به النفوس من الحكم السامية، تتمتع بسياسة عادلة، وحياة زاهرة.

وإذا شئتم مثلاً واضحاً لما جاءت به الهجرة من الخير العظيم، فانظروا كيف خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً، وكيف دخلها فاتحاً، فما ذلك الفتح المبين إلا وليد الهجرة التي نحتفل بذكراها هذه الليلة، وبفتح مكة انكسرت شوكة خصوم الإسلام في الجزيرة، وأقبل العرب على الدخول في الدين أفواجاً، حتى تألفت أمة مسلمة رفعت راية سيادة في أقصى الشرق، وأخرى في أقصى الغرب.

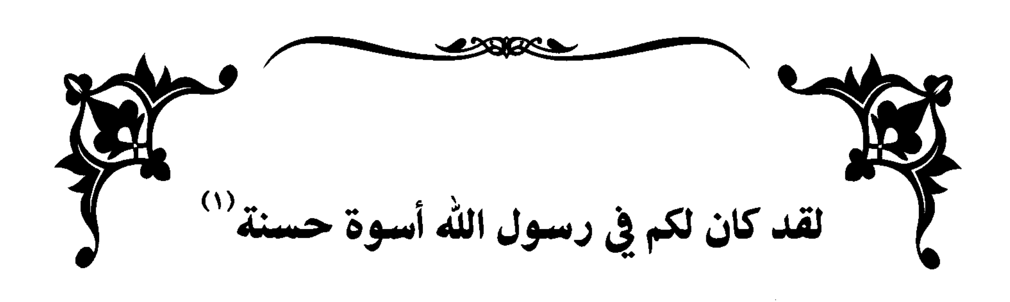
وانظروا إلى القرآن المجيد إذ أشار إلى ما أنعم الله به على نبيه الكريم من النصر والتأييد، تجدوه ابتدأ بنصره وقت الهجرة، وعطف على ذلك ما اتصل بالهجرة من ظهوره على أعدائه، وبلوغ رسالته غايتها؛ من اعتلاء ذكر الحق، وانحطاط الباطل، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ

تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾[التوبة: ٤٠].

وما أصدق نظرَ عمر بن الخطاب إذ جعل سنة الهجرة مبدأ التأريخ في الإسلام، وقال: «الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فأرخوا بها».

فإذا احتفلنا بذكرى الهجرة النبوية المباركة، فإنما نحتفل بذكرى الأساس الذي قامت عليه عزّة الإسلام وسيادته، بل نحتفل بذكرى اليوم الذي خرج فيه كوكب الإصلاح من سراره، وألقى أشعته على العالم شرقاً وغرباً، والسلام عليكم ورحمة الله.





لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[1]

هذه الآية الكريمة من جوامع الكلم التي تحمل تحت ألفاظها القليلة معاني جميلة غزيرة؛ فقد أرشدت إلى الاقتداء برسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وأومأت إلى أنه أقوم الخليفة منهجاً، وأشرفهم حالاً، وأطيبهم كلماً، وأفضلهم أعمالاً.

وإذا نظرنا إلى ما كان عليه من صفات الشرف وأفعال الحمد، وجدناها على قسمين: قسم لا يدخل في الأمر بالاقتداء به فيه، إما لكونه غير داخل في اختيار الإنسان، وإنما هو موهبة من الخالق ـ جلَّ شأنه ـ؛ كجمال طلعته، وشرف نسبه، وبراعة بيانه، وإما لكونه معدوداً في خصائصه؛ كجمعه بين تسع زوجات، وإما لكونه عائداً إلى أمر الجبلَّة أو العادة، ولم يظهر فيه معنى التشريع؛ نحو: جلوسه، أو وقوفه في بعض الأمكنة، وتناوله لبعض المطعومات، وامتناعه من تناول بعضها؛ كما امتنع من أكل الضب، وقال: «ليس بحرام، ولكن لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه». ففعْله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما كان من هذا القبيل ـ وإن دل على الإباحة ـ لا يدخل فيما يطلب التأسي فيه، ولا يتناوله قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول من المجلد الثالث عشر. الصادر في رجب ١٣٥٩هـ أغسطس ١٩٤٠م.

رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١]. فالمقصود في الآية: التأسي به ﷺ في الأحوال والأفعال الاختيارية غير الجبلية والعادية، وغير ما قام الدليل الواضح على أنه من خصائصه.

نتأسى به ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما كان يتقرب به إلى الخالق من العبادات، وهذا يقتضي البحث عن العبادات التي كان يؤديها تقرباً إلى الخالق تعالى؛ مثل: الصلوات، والصيام، والحج، والأذكار؛ حتى نتبين كيفيتها، وأوقاتها، ومبلغ اجتهاده في القيام بها، وبهذا يسلم الرجل من أن ينحدر في البدع، أو يضع العبادة في غير وقتها، أو يقع في حرج التنطع[١] في الدين.

فالبدع إنما دخلت في الدين على أيدي قوم لم يدرسوا سيرة النبي ﷺ دراسة تكسبهم تمييز فاسد العبادات من صحيحها.

ويتأسى به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في احتماله لما كان يصيبه من صروف الأقدار، وتلقيه لها بصبر تتزلزل الجبال الرواسي ولا يتزلزل، وقد اقتدى به المستقيمون من المؤمنين في هذا الخلق العظيم، فيتلقون الخطوب من نحو: فَقْد المال، أو موت الولد بمتانة عزم، ورسوخ في الصبر، وقد عرفت أستاذاً في تونس يقال له: الشيخ محمد بن عيسى، توفي له ولده الوحيد البالغ سن العشرين، فتركه مسجًّى في المنزل، وجاء على عادته لإقراء درس في الأصول بين المغرب والعشاء[٢]، وبعد أن أتم الدرس، قال للطلاب: إن أخاكم فلاناً قد توفي، وغداً صباحاً تشيع جنازته.

(١) التشدد.

(٢) في جامع الزيتونة.

ويتأسى به ـ عليه الصلاة والسلام ـ في احتماله لما كان يلاقيه في سبيل الدعوة إلى الحق من العناء والمكاره؛ كما لاقى من المشركين في مكة أذى كثيراً، ولم يفلَّ ذلك من عزمه فتيلاً. وانظر ماذا ناله في واقعة أحد؛ من شج وجهه، وكسر رباعيته، وجرح شفته السفلى، حتى صلّى الظهر من الجراح التي أصابته قاعداً، ومن الغد نادى بطلب العدو، وقال: «لا يخرج معنا إلا أحد حضر بالأمس». ودرسُ هذه الناحية من سيرته السنية، يرفع همم علماء الدين ودعاة الإصلاح عن التملق لأولي الأمر، ومجاراة أهوائهم الجامحة عن قصد السبيل؛ إذ يجعل رضا الله، وظهور الحق والفضيلة، هما الغاية التي يعملون لها في حياتهم، فلا يبالون سوء العذاب، أو العزل من المناصب الذي ينذرهم به المستبدون الظالمون.

غضب أحد أمراء تونس على أحد علمائها، فقال له: عزلتك من الإمامة والفتوى والتدريس، فقال له العالم: بقيت لي وظيفة لا تستطيع أن تعزلني منها أنت ولا غيرك، هي مكانتي العلمية، وهذه المكانة أعزّ لدي من كل وظيفة.

وظهر لرئيس محكمة أهلية في عهد وزارة (نوبار باشا) الأرمني كشفُ وجه امرأة من المخدَّرات، فامتنعت عن الإسفار؛ محتجة بعدم إباحته في الشريعة الغراء، واستفتى الشيخ محمد العباسي المهدي شيخ الأزهر والمفتي الأكبر لذلك العهد، فأفتى بعدم الجواز، وشدد في المسألة، فسعى (نوبار باشا) في عزل الشيخ المهدي قائلاً: إن الشيخ أصبح عقبة أمام القضاة معارضاً لأحكام القضاء، ولما فهم الشيخ المهدي أن مساعي (نوبار باشا) قد أصبح لها أثر، استقال من مشيخة الأزهر والفتوى في مجلس واحد

غير آسف عليهما[١].

ويتأسى به ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صلته بالأفراد والجماعات، ومعاملته لهم؛ من نحو: الرفق بهم، والإحسان إليهم، ودعوتهم إلى الحق، وإرشادهم إلى وجوه الخير، وسبل السعادة، ومعاقبة الجناة على قدر جناياتهم، ودرس هذه الناحية من سيرته الطاهرة يفتح أمام الناظر الطريق التي يتوسل بها إلى امتلاك قلوب فضلاء الناس على اختلاف طبقاتهم، وتباين مواطنهم، بل يفتح أمامه الطرق التي تعرف بها كيف يسوس النفوس الواقعة في أسر الشهوات، ويعيدها إلى سيرة الطهر والعفاف؛ إذ يجد الناظر في حكمة أساليب دعوته، وحسن معاملته حتى لخصوم دينه، معالم لا ينجح صاحب دعوة صادقة إلا أن يهتدي بها.

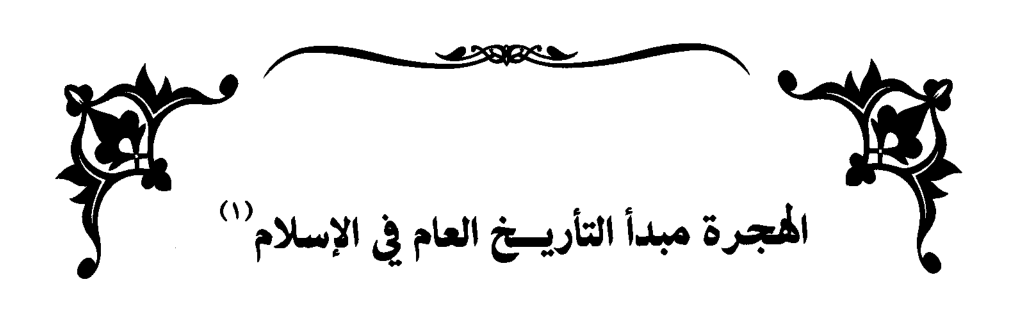
ويتأسى به ـ صلوات الله عليه ـ في احتماله الأذى من الناس، ومقابلته بالعفو، وهو قادر على مقابلته بالانتقام. ومن درس هذه الناحية في السيرة، عرف أن لحلمه وعفوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مواضع، ولأخذه بالحزم مواضع. وقد أشارت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى ذلك بقولها:

«وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله ﷻ». وفي رواية: «إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله ﷻ».

وصفوة المقال: أن هذه الآية أرشدت إلى التأسي بأفضل الخليقة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وهذا يقتضي البحث عن سيرته، وفي البحث عن سيرته مرقاة إلى معرفة خصال الشرف الإنساني، وصالح الأعمال التي يعرج بها الإنسان إلى الحياة الطيبة في الأولى والآخرة.

---

(١) كتاب «تراجم أعيان القرن الثالث» للمرحوم أحمد تيمور باشا (ص٧٥).



الهجرة مبدأ التأريـخ العام في الإسلام[1]

كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب ﷺ كتاباً يقول فيه: «إنه يأتينا منك كتب ليس لها تأريخ». فجمع عمر الناس يستطلع رأيهم فيما يكون به التأريخ، فقال بعضهم: أَرِّخ بالمبعث، وقال بعضهم: أرخ بالهجرة، فقال عمر: «الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فأرّخوا بها».

يقول عمر بن الخطاب: «الهجرة فرقت بين الحق والباطل»، وهذا إشارة منه إلى المزية التي استحقت بها الهجرة أن تكون مبدأ التأريخ العام في الإسلام، فإن الدعوة إلى الإسلام كانت تلاقي في مكة معارضة، وعقبات توضع في سبيلها، وأخذت بعد الهجرة حريتها كاملة، ولم يستطع أحد أو جماعة الوقوف في طريقها، وكانت الدعوة بمكة تسير في طريق النجاح رويداً رويداً، وأخذت بعد الهجرة تنتشر بسرعة، فلم يمض عليها عشر سنين حتى عمت الجزيرة، وانضوى إلى الإسلام ملوكها ورؤساؤها وقبائلها فوجاً عقب فوج، وكان المشركون يسطون ألسنتهم وأيديهم إلى المسلمين بالأذى، بالهجرة تخلصوا من ذلك الأذى، وأصبحوا في أمن ليس لذي قوة عليهم من سبيل.

---

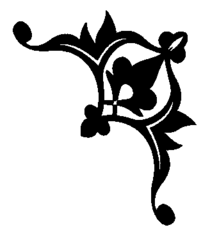
(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن السابع والثامن من المجلد الرابع عشر الصادران في المحرم وصفر ١٣٦١هـ.

وكانت الدعوة في مكة تتدرَّع بالصبر واحتمال المكروه من أولئك الطغاة، أما بعد الهجرة، فقد رفعت الدعوة رأسها، وأذن للقائمين بها أن يجردوا الحسام في وجه كل من يناوئها ويروم إطفاء نورها.

فبالهجرة ظهر الاسلام في ثوب عزته الضافية، وتمكن من أن يفيض على العالم هداية ورحمة.

ومن مآخذ العبرة في قصة الهجرة: أن الداعي إلى الاصلاح متى أوتي حكمة بالغة، وإخلاصاً نقياً، وعزماً صارماً، هيأ الله لدعوته بيئة طيبة فتتقبلها، وزينها في قلوب قوم لم يلبثوا أن يسيروا بها في البلاد، ويطرقوا بها الآذان، فتسيغها الفطر السليمة، والعقول التي تقدر الحجج حق قدرها.



المعجزات الكونية[1]

نحتفل بذكرى مولد أفضل الخليفة محمد ﷺ، وقد جرت عادة المحتفلين بهذه الذكرى الطيبة أن يتحدثوا عن سيرته الزاهرة، أو دلائل صدق رسالته الشاملة الخالدة، أو عما أفاضته على العالم من هداية وإصلاح، ولو كان في وقت سعة، لأرسلنا القول في كل ناحية من هذه النواحي الثلاث، فنزداد يقيناً بأن سيرة محمد ﷺ أكمل من كل سيرة، وأن دلائل نبوته أوفر من دلائل كل نبوة، وأن آثار دعوته أوسع مدى من آثار كل دعوة، فأكتفي بكلمة موجزة أخصّ بها ناحية من نواحي دلائل رسالته، وهي آيات نبوته الكونية، فأقول:

ترجع دلائل رسالة المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ إلى أربعة وجوه: القرآن المجيد ـ وبشارة الرسل والأنبياء من قبله ببعثته ـ وسيرته البالغة في الكمال حداً تقف دونه سيرة كل عظيم ـ وخوارق عادات هي من جنس المعجزات على صدق الرسالة من وجوه كثيرة.

ومن هذه الوجوه: ما يوجد في بعض آياته؛ كإخباره عن أمور مستقبلة، ووقوعه على نحو ما أخبر به.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن العاشر والحادي عشر من المجلد الخامس عشر والصادران في ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٦٢هـ.

ومنها: ما يوجد في كل سـورة، أو ما يكون بمقدار سورة، وهو بيانه البديع، وأسلوبه الرائع، ونظمه الحكيم.

وأما بشارات الأنبياء، فقد أخبرت التوراة والإنجيل بمجيء رسول عظيم، ووصفت هذا الرسول العظيم بصفات لا تنطبق إلا على حال محمد - صلوات الله عليه -، ونبه لهذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[الأعراف: ١٥٧].

وأما سيرته، فقد بلغت من الكمال حداً لا تبلغه سيرة من يطلب الكمال بنفسه، ولو فاق الناس عبقرية، وقضى في تلقي الحكمة العشرات من السنين، وإلى هذا يشير حسان ﷺ بقوله:

لـو لـم تكـن فيـه آيـات مبينـةٌ كانـت بديهتـه تأتيـك بـالخبر

وأما دلائل نبوته من خـوارق العادات، فقد ورد منها في الأحاديث الصحيحة وقائع كثيرة؛ كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام القليل، وإشباعه نحواً من سبعين أو ثمانين رجلاً. وانشقاق القمر حتى رآه المشركون بمكة رأي العين، وحنين الجذع الذي كان يخطب عليه عندما اتخذه - عليه الصلاة والسلام - منبراً.

وقد ظهر في هذا العصر إنكار هذا النوع من دلائل النبوة، وممن سبق إلى إنكاره طائفة القاديانية اللاهورية؛ فإنا نرى زعيمهم محمد علي الذي ألَّف ترجمة القرآن إلى اللغة الإنكليزية، يأتي إلى كل معجزة يقصها الله تعالى في أنباء الرسل - عليهم السلام -، ويعلق عليها بآخر الصحيفة متأولاً لها على وجه يخرجها عن أن تكون معجزة. ونحا بعض الكاتبين في مصر

هذا النحو من تأويل آيات المعجزات، وخف على آخرين أن يتكلموا في الدين بآراء لا تمت إلى أصوله الصحيحة بصلة، فأنكروا الأحاديث المتضمنة لبعض خوارق من عادات جرت على يد النبي ﷺ دون أن ينقدوها بقوانين علم الحديث، أو قوانين المنطق السليم.

ولمنكري المعجزات وخوارق العادات شبهتان:

إحداهما: أن الله تعالى وضع هذا الكون على سنن لا تتبدل، وربط أسبابه بمسبباته ربطاً لا يتغير، وربما استشهدوا على هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ويرد هذا: بأن الذي خلق الأسباب والمسببات، وعقد بينهما رابطة السببية والمسببية، هو الفعال لما يريد ـ سبحانه وتعالى ـ، فله أن ينزع من بعض الأسباب وجه سببيتها؛ كأن ينزع من النار حرارتها التي كانت سبباً في الإحراق، وله أن يخلق سبباً آخر يخفى عن أعين الناس، ويظهر له مثل أثر السبب المعروف في العادة؛ كأن يخلق في العصا ما يكون سبباً لانقلابها ثعباناً، كما خلق في ماء الرجل ما يكون سبباً لتحول ذلك الماء حيواناً.

وإذا لم ير الفيلسوف سبباً تخلف عن سببه، أو لم ير سبباً لم يترتب عليه مسببه، فعدم رؤيته لذلك لا يدل على عدم إمكانه، فتخلف المسببات عن أسبابها الظاهرة، أو وجود المسببات مع فقدان أسبابها، هو في مرتبة الإمكان لا محالة، وإذا كان ممكناً في نفسه، وورد الخبر الصادق بوقوعه، أصبح الاعتقاد به ضربة لازب، ولم يكن لمنكره من الأدلة النظرية ولي ولا نصير.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، فحق لا غبار عليه،

وسنن الله منها ما عرفه الناس، ومنها ما لم يعرفوه، وإذا وقعت واقعة غريبة عند تحدي النبي لقومه، فهي جارية على سنة، ولكنها سنة خفية لا يعلمها البشر، ولا يستطيعون أن يأتوا بمثلها، ومن هنا كانت هذه الواقعة الغريبة علامة على أن هذا الداعي مبلغ عن الله.

وأخرى الشبهتين: أن العلوم في هذا العهد قد كشفت عن أسرار أمور كانت تُظن من خوارق العادات، فلو بلغ العلم بصاحبه أن يأتي بأشياء هي من أمثال ما كان يعد خارقاً للعادة، لم يبق ذلك الذي صدر على وجه التحدي معجزة.

وتدفع هذه الشبهة: بأن من معجزات الرسل ـ عليهم السلام ـ ما لم يصل إليه العلم، ولن يصل؛ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه، ونبع الماء الحقيقي من بين أصابع الإنسان، وإذا وجد من المعجزات التي جرت على أيدي الرسل ما يمكن الوصول إلى مثله من طريق الفن؛ كما يدعى من الإخبار عن بعض الأشياء الغائبة، وكما ظهر من قطع المسافة البعيدة في وقت قريب، فإن أمثال هذه الأشياء نجدها قد صدرت عن الرسول مضمومة إلى معجزة أخرى لا يصل إليها العلم. ثم إن الفرق بين ما وقع عند التحدي، وما وقع من طريق الفن: أن الأول وقع بإذن الله من غير أن يكون للرسول فيه عمل، أما الثاني، فإنما يقع بعد اتخاذ الوسائل الفنية.

هذا هو الفرق بين ما كان معجزة، وما كان أثر حركة فنية، فما يذكره الله تعالى في كتابه الحكيم من هذا النوع من المعجزات إنما هو أمر واقع بإذنه تعالى من غير أن يكون للرسول فيه أثر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

وأذكر أني كنت في الآستانة سنة ١٢٣١ نازلاً بدار المرحوم خالي الشيخ محمد المكي بن عزوز أستاذ علم الحديث بدار الفنون، فعاد من الدرس يوماً، وأخبرني أنه كان مع طائفة من المدرسين في غرفة ناظر المدرسة، فجرى ذكر هذه الآية الكريمة، فنسب بعض الحاضرين إلى سليمان ـ عليه السلام ـ العلم بفن الطيران، فقال له الناظر ـ وكان من الأتراك المؤمنين المستنيرين بهدى الله ـ: «تلك معجزة».

أما الذين أنكروا أن يكون للنبي ﷺ معجزة غير القرآن، فشبهتهم قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾[الإسراء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

وليس في هاتين الآيتين ما يثير إشكالاً؛ فإن كفار قريش كانوا يقترحون على النبي ﷺ آيات يصفونها، وإنما يقترحونها على وجه التعنت؛ مثل: الآيات التي حكاها الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾[الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

وذكر تعالى في جوابهم: أنه لا يرسل هذه الآيات التي اقترحوها تعنتاً؛ حيث علم أنهم سيلاقونها بالتكذيب، ودل على هذا: بأن قوماً يماثلونهم في طبائعهم النفسية قد أرسلت لهم آيات من جنس الآيات التي يقترحها

المشركون، وكانوا مطبوعين على التعنت، فتلقوها بالتكذيب، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[الإسراء: ٥٩]. فهذه الآية تفهم على معنى أن الأولين قد كذبوا بآيات من جنس الآيات التي اقترحها هؤلاء الآخرون، فكان تكذيبهم كأنموذج لتكذيب أمثالهم المتعنتين من كفار قريش للآيات التي اقترحوها لو وقعت.

وأما الآية الثانية، فإن كفار قريش قالوا على وجه التعنت أيضاً: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[يونس: ٢٠]. ولما كان المقصود من إنزال الآيات: توجيه النفوس إلى الإيمان بصدق الرسول من طريق الاستدلال، كان الأمر في اختيار الآيات يرجع إلى مشيئته تعالى؛ إذ هو العالم بما يوافق حكمة الدعوة، ويكفي في دلالة النفوس غير المتعنتة على أن دعوة الرسول حق، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[العنكبوت: ٥٠]. وقد أراهم آيات كافية في الدلالة على أن محمداً رسول حق، فلو كان قصدهم الوصول إلى الحق، لاكتفوا بها، ولما كان القرآن الحكيم أعظم هذه الآيات وأوضحها دلالة، وأبقاها نصب أعينهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[العنكبوت: ٥١].

وخلاصة هذه الكلمة: أن من دلائل النبوة خوارقَ عادات جرت على يد النبي ﷺ، وقد اشتملت كتب السنة الصحيحة على نصيب منها، ولو سلمنا أن حديث كل واحد منها لم يبلغ حد التواتر، فإن مجموعها قد بلغ هذا الحد بلا ريب.

❑ ❑ ❑



من آداب
خطب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ[1]

للدعوة إلى الإصلاح طرق، ومن أقرب هذه الطرق نجاحاً، وأبلغها أثراً: الخطابة، ولهذا شرعت في يوم الجمعة من كل أسبوع، وفي يومي عيد الفطر وعيد الأضحى من كل سنة، بل في كل وقت يقتضي الحال فيه تذكير الناس بحكمة، أو أمرهم بمعروف، أو نهيهم عن منكر، وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينهض للخطابة عند كل أمر هام، وكتبُ الحديث والسيرة عامرة بأنباء وقائع يقوم فيها خطيباً، فيأمر أو ينهى، أو يزيح أوهاماً علقت ببعض الأذهان.

ولقد كانت خطبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مُثلاً عليا، يحق على كل داع إلى الإصلاح أن يقتدي بها، ويقتبس من آدابها، ويسوس النفوس بمثل أساليبها.

يحرص ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تطرق مواعظه آذان المستمعين متمايزة الحروف، مفصلة الكلمات، فكان يلقي الخطبة قائماً، رافعاً بها صوته، وإنما يخطب على مكان مرتفع، ولذلك اتخذ المنبر في مسجده بالمدينة.

ويحرص على أن تقع الموعظة في قرارات النفوس، فكان يلقي الخطبة

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الحادي عشر والثاني عشر من المجلد السادس عشر. جمادى الأولى وجمادى الثانية ١٣٦٣هـ.

بألفاظ مأنوسة، وتأليف محكم، ومعان بارزة في صور بارعة، فانظروا إلى قوله في بعض خطبه: «من كان همه الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كان همه الدنيا، فرق الله أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»، وهكذا ترون خطبه مصوغة بألفاظ مألوفة، ومعان قريبة المأخذ، وهي ـ مع سهولة ألفاظها، وقرب معانيها من أذهان الجمهور ـ قد حازت في مراقي البلاغة الأمد الأسمى.

وربما أعاد الجملة، فنطق في ثلاث مرات، يدل على أنها موضع اهتمام، ويخشى أن تمر على أذهان المستمعين دون أن تستقر في نفوسهم، كما قال في خطبة التشريق: «ألا لا تظالموا»، وكررها مرتين بعد الأولى.

ولم يكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ يلتزم السجع في خطبه، وإنما يأخذ فيها بطريقة الترسل، إلا أن يجيء السجع عفواً، وذلك أن السجع الملتزم لا يخلو من تكلف تفقد به صور المعاني جانباً من الوضوح، وإن شئت مثلاً يشهد بأن خطبه لم تنسج على منوال السجع، فإليك قوله في إحدى خطبه: «فليأخذ العبد عن نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت».

وقد أولع أكثر الناس منذ عهد بعيد بتسجيع الخطب، إما لقصر باعهم في البيان، وإما لأنه الأسلوب الذي تلذّه الأذواق لتلك العهود، وقد تحولت الأذواق اليوم ـ فيما يظهر ـ إلى استحسان الكلام المرسل، وإيثاره على السجع؛ حيث يبرز المعاني في صور تصل إلى القلوب عندما تصل الكلم إلى الآذان.

ولم يكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليطيلَ الخطب، يخشى على الناس الملل، فلا ينتفعون بالموعظة انتفاعهم بها وهم يصغون إليها بإقبال ونشاط،

وكان يقول: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته من فقهه».

وكانت خطبه ـ مع قصرها ـ ممتعة بالحكمة والموعظة الحسنة، إذ تجيء حافلة بجوامع الكلم، والجمل التي تجري على الألسنة مجرى الأمثال إيجازاً وبلاغة.

وقد يطيل الخطبة في غير يوم الجمعة متى اقتضى الحال الإطالة، روى أبو سعيد الخدري: «أن النبي ﷺ خطب بعد العصر، ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف».

وكان يفتتح الخطبة بحمد الله، والثناء عليه، ويصلهما بالتشهد، ويقول: «أما بعد» متنقلاً بها إلى حكمة أو موعظة، وقد يدع الخطبة العامة، ويتجه في أثنائها إلى إرشاد شخص بعينه متى خشي فوات الفرصة. جاء رجل والنبي ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «صليت يا فلان؟»، فقال: لا، فقال: «قم فاركع»، ثم عاد إلى الخطبة.

وقد يستعين ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تثبيت المعنى بالإرشاد بيده إشاره مناسبة للمعنى كما قال في إحدى خطبه: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى، وروي أنه كان يشير بأصبعه السبابة عند ذكر الله تعالى ودعائه.

فالإشارة باليد لا تنافي وقار الخطيب متى استعملت في أثناء الخطبة استعمالاً مناسباً للمعنى. ومما يجعل للخطبة أثراً بليغاً في النفوس: أن يكون الخطيب مخلصاً في وعظه، حريصاً على أن يأتي بثمرات طيبة من المسارعة إلى الخير، والإقلاع عن الشـر، وقد يظهر لهذا الإخلاص أمارات في وجه الخطيب أو صوته؛ كاشتداد الغضب عند الإنذار، وورد في الصحيح: أنه

ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كان إذا خطب، احمرت عيناه، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش».

والناس يعرفون الغضب المتصنَّع، والبكاء الذي لم تبعثه خشية، فينبغي للخطيب أن يترك نفسه على فطرتها، ولا يهزها إلى مظهر الخشوع والغضب هزاً؛ ليري الناس أنه حريص على إصلاحهم. ومن شواهد الرياء أن يأمرهم بالخير وينسى نفسه.

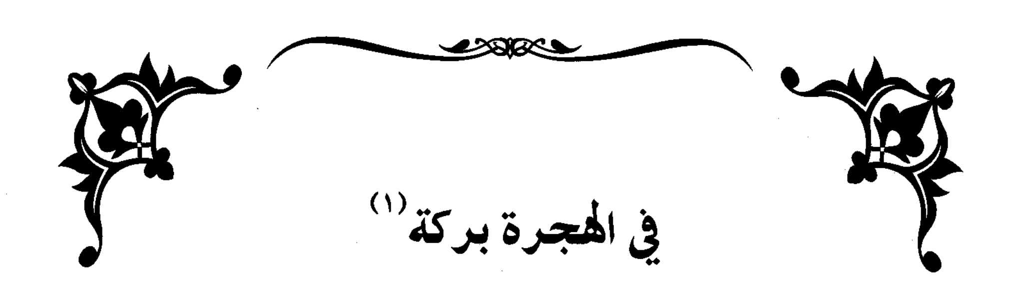
وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينظر إلى حال القوم يوم الخطبة، فيلقيها على مقتضى حالهم، فيأمر بمعروف أخلُّوا به، أو يحذر من مكروه اقتربوا منه، وجرى على هذا الخلفاء الراشدون، والخطباء المصلحون. وهذا منذر بن سعيد قاضي قرطبة رأى الخليفة عبد الرحمن الناصر قد أسرف في تشييد المباني وزخرفتها؛ كما صنع في بناء «الزهراء»، فاتجه بخطبته إلى هذا الغرض، وأنكر فيها الإسراف في البناء والزخرفة، وإنفاق الأموال في غير مصلحة.

وشأن الخطب التي تلقى على طبقات من الناس متفاوتة في العلم والفهم: أن لا يتعرض الخطيب فيها إلى المسائل التي قد يتعثر فهمها على كثير منهم، أو يتناولونها على غير وجهها، وكانت خطب النبي ﷺ جارية على هذا الشأن؛ بحيث يستوي في فهمها الطبقات المختلفة دون أن يجدوا فيها ما ينبو عنه الفكر، أو يحار فيه العقل. وكان الصحابة رضي الله عنهم يراعون هذا الأدب الحكيم، فقد روى البخاري: أن عمر بن الخطاب أراد أن يخطب أيام الحج في أمر عرض له، فقال له عبد الرحمن بن عوف: «لا تفعل؛ فإن الموسم يجمع رعاع الناس يغلبون على مجلسك، فأخاف أن لا ينزلوها على وجهها، فيطيروا بها كل

مطار، فأمهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة، فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين والأنصار، فيحفظوا مقالتك، وينزلوها على وجهها».

وطالما حاد أكثر الناس بالخطب عن سيرتها في عهد النبوة، فبعد أن كان الخطيب يصور المعاني بفكره، ويكسوها ألفاظاً من عنده، ثم يلقيها مقبلاً على الناس ببصره؛ كما كان يفعل النبي ﷺ والخلفاء من بعده، صار الخطيب يبحث عن خطبة صدرت عن قريحة غير قريحته، وكتبت بقلم غير قلمه، فيقف ممسكاً لها بيده، مقلباً فيها وجهه. ولا مرية أن الخطبة التي تصدر من قلب الخطيب، مصوغة في عبارات من صنعه، هي أجدى نفعاً، وأعظم في النفوس أثراً، من خطبة يستعيرها من غيره.

❑ ❑ ❑



في الهجرة بركة[1]

هاجر النبي ﷺ وأصحابه الخيار من مكة إلى المدينة، فظهرت بركة هذه الهجرة من المهاجرين أنفسهم، وفي البلاد التي هاجروا إليها، وفي انتشار الدين الذي هاجروا من أجل التمكن من الدعوة إليه.

أما أثر بركة الهجرة في المهاجرين أنفسهم، فلأنهم بعد أن كانوا يلاقون في مكة أذى كثيراً، أصبحوا في أمن وسلامة، ثم إن الهجرة ألبستهم ثوب عزة بعد أن كانوا مستضعفين، ورفعت منازلهم عند الله درجات، وجعلت لهم لسان صدق في الآخرين، وقد سمّى الله تعالى الصحابة الذين فرّوا بدينهم إلى المدينة بالمهاجرين، وصار هذا اللقب أشرف لقب يدعون به بعد الإيمان.

وأما أثر بركة الهجرة في البلاد التي هاجروا إليها، فإن فضل مكة كان معروفاً عند العرب من قبل بعثة الرسول ﷺ، وجاءها الفضل من جهة أن الله اختارها لأن يقام فيها بيته المحرم، وأمر رسوله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ببناء ذلك البيت، ودعوة الناس إلى حجّه، والتقرب إلى الله بالطّواف به، وقد ازداد هذا الفضل بميلاد النبي ـ صلوات الله عليه ـ، ونشأته فيها، ثم نزول

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السابع من المجلد السابع عشر الصادر في شهر المحرم ١٣٦٤ هـ.

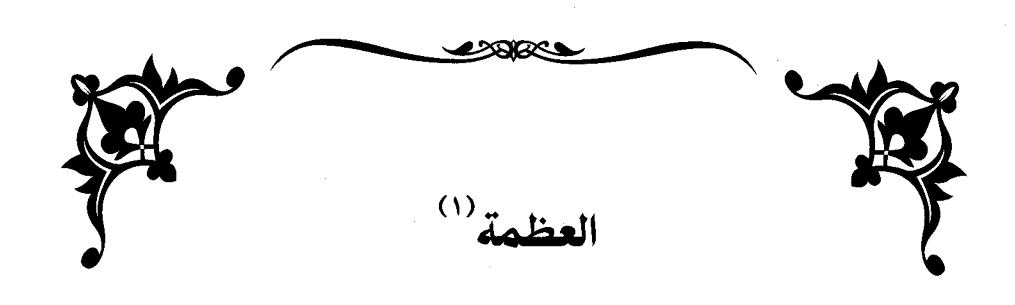
القرآن في أرجائها.

وأما المدينة فلم تكن معروفة قبل الإسلام بشيء من الفضل على غيرها من البلاد، وإنما أحرزت فضلاً بهجرة النبي ﷺ وأصحابه المؤمنين بحق، وبهجرة الوحي معهم إلى ربوعها، حتى أكمل الله الدين وأتم عليهم النعمة.

وأما أثر بركة الهجرة في انتشار الإسلام، وإعلاء كلمته، فلأن الإسلام كان بمكة في شيء من الخمول، ولم يكن الجهاد قد شرع؛ إذ لم تتهيأ أسبابه، أما بعد الهجرة إلى المدينة، فقد نزلت آيات في القتال؛ كقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾[الحج: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾[البقرة: ١٩٠].

فإذا احتفلنا بذكرى الهجرة الشريفة، فإنما نحتفل بذكرى اليوم الذي ابتدأت فيه الهداية تسير سيرها الحثيث في الشرق والغرب، وذهبت فيه العزّة تمد ظلالها على كل جماعة تنادي بأرفع صوت: «حي على الصلاة، حي على الفلاح».

❐ ❐ ❐



العظمة[1]

نود من صميم أفئدتنا أن نفرغ بأقلامنا ومحاضراتنا للعمل على رقي شعوبنا، وإصلاح شؤوننا، ونود من صميم أفئدتنا أن نقضي صباحنا ومساءنا في البحث عن وسائل خلاصنا من أذى السلطة الغربية عن أوطاننا، ولكن نفراً جلسوا على رأس الفتنة وهي نائمة، وجلسوا يهمزونها بنزق وغرور، ولو صرفنا النظر عن ناحيتهم، وتركنا حبلهم على غاربهم، لهبطوا بكثير من شبابنا في خسار يهتز له قلب عدوهم شماتاً وفرحاً، والنفوس التي تتزحزح عن الايمان قيد شعرة تبعد عن مراقي الفلاح سبعين خريفاً.

فلا بد إذن من أن نكون على مرقبة من دعايتهم، وننفق ساعات في التنبيه على أغلاطهم؛ لعلهم ينصاعون إلى رشدهم، أو لعل الأمة تحذر عاقبة هذا الذي يبدو على أفواههم.

ننسى ولا ننسى كاتباً صنع في العظمة مقالاً لا أصفه في مقامي هذا إلا أنه خواطر لم تبلغ من أدب البحث سؤلها.

---

(١) مجلة «الفتح» ـ العدد ٦٨ من السنة الثانية ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م. محاضرة الإمام في دار جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بالقاهرة يوم ١٢ ربيع الأول ١٣٤٦ تضمنت الرد على مقالة على عبد الرازق التي كان نشرها في جريدة «السياسة»، ونشرت المحاضرة في رسالة مستقلة.

تحدث الكاتب عن العظمة، وعبادة الناس لها، ورجع يناقش في أن يكون لرسول الله ﷺ عظمة، وتعلق في إنكار هذا بعلّة أن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ لم يكن ملكاً، ولا غنياً، ولا فيلسوفاً، ولا فاتحاً عظيماً، ولا مخترعاً أو مكتشفاً، ثم قال: من يبتغي عظمة محمد، فإنما هي كلمة واحدة جاء بها، وهي: «لا إله إلا الله».

ثم جعل يضع كلمة «لا إله إلا الله» ذات اليمين وذات الشمال، ويضعها على جانب البطلان مرة، وعلى جانب الصحة مرة أخرى، وقال: إن العلم والعقل سيقضيان في شأنها، فإما أن تكون باطلاً، وإما أن تكون حقاً، وأورد خلال هذا وعقبه كلمات مختلفاً ألوانها، وقد اخترنا أن نسوق إليكم قطعاً من هذا المقال، وننقدها بين أيديكم، لعلنا نزيح عن ذوي الفطر النقية سوء أثرها.

وحقيق علينا أن نفتح البحث بكلمة في مبنى العظمة حتى ندخل نقد المقال على بينة.

تضاف العظمة إلى الإنسان، فيرادفها: التجبر، والخُيلاء، وهذا المعنى لا يحوم على نفس رسول الله ﷺ يقيناً، ولا ينزل بساحته في حال، وقد يراد من العظمة: الجلال الذي هو أثر سمو القدر، وبلوغ المنزلة الكبرى في خصال الشرف، وهذا المعنى يتحقق في أكمل الخليقة، فقد كان جلاله يبهر العيون، ويذيب القلوب.

وقد يقصد من العظمة: عِظَم القدر، والتناهي في خصال السؤدد والكمال، ورسول الله ﷺ أوسع الناس في هذه العظمة مجالاً، وأبعدهم فيها أمداً، وأرسخهم فيها قدماً.

فلا جناح على من ينفي عن رسول الله ﷺ العظمة قاصداً معنى التجبر والأبهة، أما من ينفي عنه العظمة ـ يقصد الجلال، ويقصد بلوغه في الكمال الأمد الأقصى ـ، فقد تنكَّب عن الحقيقة جانباً.

ولنأخذ ـ بعد هذا ـ في عرض القطع الموعودة على أسماعكم، وانظروا ماذا ترون.

قال صاحب المقال: «اليوم يذكر الناس مولد محمد ﷺ، ولا يذكر الناس محمداً إلا اتجهوا في البحث عن عظمته، ودرجته بين العظماء».

يريد صاحب المقال من الناس «الذين يذكرون محمداً ﷺ، فيبحثون عن عظمته» القوم المسلمين، فإنه وصل هذه الفقرة بالحديث عن إيمان الناس بالعظمة، وافتتانهم بها، وعبادتهم لها في صور من العبادات، يرمز بهذا إلى حال المسلمين في إيمانهم بعظمته ـ صلوات الله عليه ـ، ونظرهم إلى مقامه الكريم بعين التوقير والإجلال. والناس الذين يذكرون محمداً ـ صلوات الله عليه ـ، فيتجهون إلى البحث عن عظمته صنفان: مؤمنون برسالته، وغير مؤمنين.

فأما الذين أشربوا في قلبهم الإيمان بأنه رسول الله حقاً، فإنهم يرفعون مقامه الأسمى عن أن يعقدوا بينه وبين العظماء ـ في نظر كاتب المقال ـ مقارنة ومقايسة، والميزان الذي يحمل في إحدى كفتيه النبوة والرسالة، تبقى كفته الأخرى طائشة إلا أن تحمل فيه سيرة نبي أو رسول.

وإنما ينظر المؤمنون في سيرة محمد ـ صلوات الله عليه ـ؛ ليزدادوا إيماناً فوق إيمانهم، أو ليكون لهم فيها أسوة حسنة، أو ليلقوا الارتياح الذي تلقاه النفوس الزكية تجتلي شيئاً من مظاهر الكمال والعظمة.

وأما من لم يهتدوا بدلائل، فإنهم يتجهون للبحث عن عظمته ودرجته بين العظماء، ولا نشك في أن الذين يدخلون البحث عن طريقه الحر لا ينصرفون عنه إلا وقد شهدوا من سيرة المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ عظمة فائقة.

قال الفيلسوف (تومس كارليل) في كتاب «الأبطال»: «وظنّي أنه لو أتيح للعرب بدل محمد قيصرٌ من القياصرة بتاجه وصولجانه، لما كان مصيباً من طاعاتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده، فكذلك تكون العظمة، وكذلك تكون الأبطال».

فالصنفان من المؤمنين وغير المؤمنين يبحثان عن عظمة محمد ـ صلوات الله عليه ـ، غير أن المؤمنين يبحثون عن وجوه عظمته؛ ليزدادوا إيماناً، أو ليظفروا بموضع قوة، أو ليسلكوا قلوبهم في لذة، وغير المؤمنين يبحثون عن وجوه عظمته؛ ليتعرفوا عظمته ودرجته بين العظماء.

قال صاحب المقال: «ذلك بأن الناس ما برحوا منذ القدم يؤمنون بعظمة العظماء، ويعبدون في صور من العبادات، شتى مظاهر العظمة التي تخيلوها».

يؤمن القوم المسلمون بعظمة محمد ـ صلوات الله عليه ـ، ولا يكادون يتعدون بإيمانهم مقامه الذي شهدت به آثاره، ورسمت الآيات البيّنات حدوده، فهم ما برحوا يتهجدون بكتاب الله، ويتلون فيما يتهجدون أمثال قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[الكهف: ١].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨].

والسنة الصحيحة مملوءة بالأحاديث التي تعلم المسلمين أن لا يغلوا

في عظمته، وأن لا يبالغوا في تعظيمه ساحة ما يسمى عبادة، فهم يدرسون فيما صحت روايته مثالَ قوله ﷺ ـ وهو يتحدث عن عثمان بن مظعون ـ: «أما هو، فقد جاءه اليقين، والله! إني لأرجو له الخير، وما أدري والله وأنا رسول الله ما يُفعل بي».

فالناس يتخيلون لمحمد ـ صلوات الله عليه ـ عظمة غير العظمة التي يَسَّره الله لها، وخلع عليه رداءها، فذكر العظمة المتخيلة وعبادتها غير لائق بمقام الحديث عن عظمة رسول الله، واتجاه الناس إلى البحث عنها عندما يذكر مولده الكريم.

وإن وجد في الناس من يكبو في غلو، أو تصدر عنه كلمات جامحة عن السبيل، فهذا لا يسيغ لكاتب المقال أن يطلق القول في الذين يؤمنون بأن لمحمد ـ صلوات الله عليه ـ عظمة؛ فإن السواد الأعظم من المسلمين يشهدون بعظمة رسول الله ﷺ على النحو الذي سنلقي إليكم حديثه بعد قليل، وما كانوا يعبدونه في أي صورة من صور العبادات، ولعل الكاتب اشتهى أن يرمي المسلمين بشأن أهل ملة أخرى، فلم يتحرج من أن يذكر بحث الناس عن عظمة رسول الله ﷺ، ويلصق به على وجه التعليل الحديث عن إيمانهم بالعظمة المتخيلة، وعبادتهم لمظاهرها في صور من العبادات.

ذكر صاحب المقال أن هذه العبادة المتخيلة على أشكال متباينة، وقال: «فلكلٍّ في فهمها مذهبه، وله ما يهديه إليه الخيال، فللحكم ونفاذ الكلمة عظمةٌ يؤمن بها الملوك والحكام، ويعبدها الأذلاء والطامعون، وللغنى عظمة يؤمن بها الأغنياء، ويعبدها أشياعهم وأتباعهم، وللعلماء عظمة، ولها أيضاً عبادها، وللجمال عظمة يؤمن بها الغواني، وتهوي الجباه لها سجداً، وللصّ

الفاتك عظمة تخشع لجلالتها قلوب الملتفين من حوله، وبقيت بعد ذلك عظمة يؤمن بها أهل النبوغ في كل فن، وفي كل صفة، ولكل منها عبادها».

من ينازع المسلمين في أن لمحمد ـ صلوات الله عليه ـ عظمة لا سبيل له في البحث إلا أن يستبين المعنى الذي يسميه المسلمون عظمة، ويقيم الدليل على أنه خارج عن حد العظمة الصادقة؟.

وهل استبان كاتب المقال المعنى الذي يسميه المسلمون عظمة عندما يُذكر محمد ـ صلوات الله عليه ـ، ثم أقام الدليل على أنه ليس بعظمة؟!

كاتب المقال سرد أمثلة يتخيلها بعض الناس عظمة؛ كجمال الغواني، واللصوصية، ولم يستبن معنى العظمة في نظر المسلمين حين يضيفونها إلى المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ.

والحقيقة أن الناس الذين يذكرون محمداً ﷺ، إنما يتجهون إلى البحث عن العظمة التي هي فخامة القدر، وبلوغ المنزلة الباهرة في الشرف والكمال. فعدُّ كاتبِ المقال اللصوصية، وجمال الغواني في مظاهر العظمة، وهو يتحدث عن العظمة التي يتجه إليها الناس عندما يذكر المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ تظاهرٌ بذوق غير مألوف، وغفلة أو تغافل عن معنى العظمة التي تتجه إليها أنظار الباحثين عن سيرة نبي عظيم كسيرة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قال صاحب المقال: «لعل أحداً لا يستطيع أن يحدد ذلك المعنى المبهم المضطرب الذي يسميه الناس عظمة، ولكنه ـ على ذلك ـ لم يزل منذ القدم فتنة الناس كلهم، يتخذونه غاية يعملون لها، ويحسبونه ميزاناً يزنون به بين الرجال».

إذا فسدت أذواق فريق من الناس، فضلُّوا عن حقيقة العظمة الصادقة

حتى أصبحوا يتخيلونها في الخصال الدّنيئة كاللصوصية، فإن الناس الذين يبحثون عن عظمة رسول الله ﷺ، إنما يذهبون إلى وجوه السيادة والكمال، والفرق بين ما يعدّ كمالاً وشرفاً في الإنسان، وبين ما لا يدخل في هذا القبيل، سهل المأخذ، وما هو من الباحث المنصف ببعيد.

توصف الأشياء بالفضل، فيقال: هذا السيف أفضل من ذلك السيف، وهذه اللؤلؤة أفضل من تلك، وهذا الإنسان أفضل من ذلك الإنسان، ووجوه الفضل بين هذه الأنواع الثلاثة مختلفة. والمعروف لدى أهل العلم أن الفضل في كل شيء زيادته فيما هو كمال فيه، وكل شيء يكمل بالوصف الذي يمتاز به، ويراد منه، فكمال السيف في صرامته، وكمال اللؤلؤة في إضاءتها وصفائها، وكمال الانسان في علمه الصحيح، وعمله الحكيم، ومنطقه البليغ.

فالعظمة التي يسمو بها قدر الإنسان بين العقلاء، وتوجُّه الناس إلى البحث عنها عند ذكر محمد ـ صلوات الله عليه ـ هي العظمة القائمة على الحكمة، وفصل الخطاب.

وإذا التبس الحال على بعض الناس، فحسب شيئاً من الآراء الباطلة علماً صحيحاً، أو تخيل بعض الأعمال المكروهة عملاً مستقيماً. أو عدَّ بعض الهذيان قولاً بليغاً، فقد وضعت النظم المنطقية، وفتحت بعض المناظر لكشف مثل هذا الالتباس.

على أن من الخصال والأعمال ما لا يختلف أولو الأحلام في كماله وحكمته، ومن هنالك رأينا كثيراً ممن لم يهتدوا بنبوة محمد ـ صلوات الله عليه ـ يشهدون بعلو شأنه، ويذكرون عظمته بمنتهى الإعجاب.

جرى ذكر (لوثر) لدى الفيلسوف (فولتير)، فقال: «إنه لا يستحق أن

يكون صانع أحذية عند محمد».

وقال الفيلسوف (توماس كارليل) في كتاب «الأبطال»: «أتبين في محمد عقلاً راجحاً عظيماً، وعيناً بصيرة، وفؤاداً صادقاً، ورجلاً قوياً عبقرياً».

قال صاحب المقال: «لولا أن الناس قد فتنوا بدين العظمة، وعبادة العظماء، لما ساغ إذا ذكرت رسل الله، ومحمد خاصة، أن يبحث باحث في أنهم من العظماء، فذلك بحث ليس له موضع في مقام التحدث عن رجال النبوة والرسالة، والدعوة الخالصة إلى الله».

لو أراد صاحب المقال أن يخوض البحث في سيرة أهل العلم، لشرح معنى العظمة، ثم أقبل على الناس يبين لهم كيف لم يتحقق هذا المعنى في رسل الله، أو في محمد خاصة، وقد عرفتموه بأنه لم يزد على أن ذكر أن هناك عظمة متخيلة، وساق عليها أمثلة بعضها يدخل في حد العظمة؛ كالعلم، وبعضها لا يتصل بأسباب العظمة؛ كاللصوصية، ثم قال: إن معنى العظمة مبهم مضطرب، ليس في استطاعة أحد أن يحده، ووثب من هنا إلى دعوى أنه لا يسوغ لباحث أن يبحث في أن رسل الله، ومحمداً خاصة من العظماء، وزعم أن هذا البحث ليس له موضع في مقام التحدث عن رجال النبوة والرسالة والدعوة إلى الله.

لنتساءل عن العظمة التي يحاول كاتب المقال أن ينفيها عن رسل الله، وعن محمد ﷺ خاصة.

لا يصح تأويل هذه العظمة بمعنى: التجبر والخيلاء؛ إذ لم يبحث باحث في أن محمداً ـ صلوات محمد عليه ـ من العظماء، ويعني: العظماء الجبارين المتكبرين، فكاتب المقال ينفي عن رسول الله ﷺ العظمة التي يتجه

إليها الناس حين يذكرون مولده الكريم، وما كان ليخفى عن كاتب المقال أن العظمة التي يتجه إليها الناس في ذلك الحين إنما هي البلوغ في خصال الكمال وعظم القدر مرتبة قصوى.

قال صاحب المقال: «وما أبعدَ رسلَ الله الداعين إليه، وما أبعدَ محمداً خاصة، من أن يبالوا بتلك العظمة التي يعبد الناس، ومن أن يبالوا أكانوا عند الناس في مقام العظماء، أم دون ذلك».

لا تبالي رسلُ الله ـ ومحمد خاصة ـ بالعظمة التي تُتخيل في نحو اللصوصية، أما العظمة التي تتمثل في خصلة من خصال الشرف؛ كالعلم والشجاعة، فعظمة داخلةٌ في هداية الرسل ـ عليهم السلام ـ، وقد سمعتم كاتب المقال يذكر في مظاهر العظمة: العلم، وهذا المظهر مما عني به الإسلام جهد العناية، فلا يلبق برجل فتح بصره في القرآن ـ ولو قليلاً ـ أن يزعم أن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ لا يبالي بعظمة العلم، ففي التنزيل الحكيم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩]. ولتجدن محمداً ﷺ عظيماً في علمه، وما علمه النافع إلا مظهر من مظاهر عظمته البالغ حد الإعجاز.

قال صاحب المقال: «ومحمد هو الذي أبى للناس إلا أن يكونوا سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وإلا أن يكونوا على قدم المساواة، فكلهم لآدم، وآدم خلق من تراب، وأبى أن يكون في الناس عظماء وغير عظماء، وسواء فيهم من تزدريه الأعين، ومن يروق مناظره، وسواء فيهم السوقة والملوك».

ما كان لكاتب المقال أن يجلس للفصل في العظمة قبل أن يولي وجهه

شطر العظمة، يقول: إن محمداً أبى للناس إلا أن يكونوا سواسية، وإلا أن يكونوا على قدم المساواة، وسواء فيهم السوقة والملوك، وهذا القول لا يتصل بالعظمة التي يتجه الناس إلى البحث عنها عندما يذكر المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ، ولا يقوم دليل أو شبه دليل على أنه ـ عليه السلام ـ لا يبالي بالعظمة الداخلة في حدود الشرف والكمال، بل كان ـ صلوات الله عليه ـ يجل هذه العظمة، ويدعو إلى التنافس في مثل هذه العظمة، وإنما كان ليمقت العظمة التي هي الزهو والأبهة، وهي التي كان ينهى عنها، وينذر سوء عاقبتها.

فمن الافتراءات على الإسلام: أن يقول قائل: إن النبي ﷺ يأبى للناس أن يكون فيهم عظماء على معنى: أنه يكره أن تكون فيهم العظمة التي يمتاز بها بعض الرجال، ويسميهم الناس من أجلها عظماء، فصاحب المقال نفسه يذكر في مظاهر العظمة: العلم، والنبوغ في الفنون والصنائع، أفيصح بعد هذا أن يزعم أن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأبى للناس أن يكون فيهم عظماء؛ أي: بالغون في العلم مراتب سامية، أو نابغون في بعض الفنون والصنائع؟!.

لا يزعم هذا إلا من يجهد فكره بحشر حجج يطمع في أن يغير حقيقة الإسلام، ويعرضها في صورة خالية من كل حكمة وعظمة.

نعم، جاء الإسلام ليجعل الناس على قدم المساواة، ويجعل الملوك والسوقة في مستوى واحد، ومعنى هذا، أن يتمتع الناس بالحرية في نفوسهم وأموالهم، وأعراضهم وسائر حقوقهم، وأن يكون السوقة والملوك في نظر السلطة القضائية أو التنفيذية على السواء، وليس من المعقول أن تحمل المساواة في الإسلام على معنى عدم التمايز بالعظمة التي تدرك بنحو العلم

النافع، والعمل الجلل، والخلق الكريم. فالإسلام ليس هو الدين الذي يرضى لمعتنقه أن يكون كعجوز في محرابها بيدها سبحة، بل هو الدين الذي يسير بأوليائه في سبيل العزة والسيادة والعظمة، وقد جرت سنة الله بأن يكون الناس في هذا السبيل على درجات متفاوتة.

يسوق كاتب المقال حديث: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» مستشهداً به على أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأبى أن يكون في الناس عظماء، والحديث إنما ورد في مقام النهي عن العظمة التي هي بمعنى الفخر والكبرياء، وذلك لم يرده كاتب المقال؛ لأنه يجعل مدار حديثه على العظمة التي يبحث عنها الناس عند ذكر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لقد عرفتم وجوه هذه العظمة، ومن تفقه في التقوى، عرف أنها الوسيلة الكبرى للعظمة الصادقة؛ فإنها بذل الإنسان جهده وسعيه في طرق الفلاح، ومن تقوى الرجل الذي رزق ألمعية متوقدة، وهمة سامية: أن يقتحم الأخطار، ويقذف بنفسه في معالي الأمـور، فإذا هو في جلال وعظمة، وإن لم يجد الزهو والكبر إلى نفسه منفذاً.

قال صاحب المقال: «لم يكن محمد بن عبدالله يؤمن بتلك العظمة الأرضية التي يؤمن الناس بها، وهي ذل للنفوس العالية، وشرك بالله رب العالمين».

لا نفتأ نذكر أن كاتب المقال يتحدث عن العظمة التي يتجه الناس إلى البحث عنها عندما يذكر محمد ـ صلوات الله عليه ـ. والناس لا يتجهون عندما يذكر محمد إلا إلى العظمة القائمة على معالي الأمور، وعظمة هذا شأنها، عظمة يأذن بها الله، ويدعو إليها رسله، وسموها بعد هذا أرضية إن شئتم، أو سماوية،

وليست هذه العظمة ذلاً للنفوس العالية، ولا شركاً بالله رب العالمين، وإنما ذلك شأن العظمة بمعنى: الكبرياء أو الأبهة، وهذا المعنى لا يتجه الناس إلى البحث عنه عندما يذكر المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ.

ولا ننسى أن كاتب المقال قد ذكر في مظاهر العظمة: العلم، والنبوغ في فن أو صناعة، ومن ذا يستطيع أن يقول أو يتصور أن العلم والنبوغ في الفن أو الصناعة ذلّ للنفوس العالية، وشرك بالله رب العالمين؟!

كلا، ليس العلم والنبوغ في فن أو صناعة ذلاً للنفوس العالية، وشركاً بالله رب العالمين. وهذا شأن كل عظمة تقوم على شرف وخير.

قال صاحب المقال: «من كان يريد من عبّاد الملْك وعظمته أن يضع محمداً بين عظماء الملوك، فما كان محمد ملكاً، ولا رضي أن يكون ملكاً، فإن أصر العائدون من أشباه العلماء على أن يعدُّوه مع الملوك، فهل يستطيعون أن يعدوا مملكة محمد إلا تلك الجزيرة الصغيرة جزيرة العرب؟ وأين جزيرة العرب من ملك الأقاصرة والأكاسرة؟ وأين ملك تلك الجزيرة بين ملوك الإمبراطوريات العظمى الذين بسطوا أيديهم فوق مشارق الأرض ومغاربها، وبحورها وجزائرها؟!».

الناس في واد، والكاتب في واد، يرى الناس أن رسول الله ﷺ جاء بعقائد وآداب وشريعة، وإن هذه العقائد والآداب والشريعة هي سبيل الله الذي قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وكانت بعثته تتناول القيام على هذه الآداب والنظم الاجتماعية، وحمل الناس عليها بالقضاء والتنفيذ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[المائدة: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

جاء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بآداب ونظم اجتماعية، وكان يسوس الناس بهذه الآداب والنظم، ومن يدبر شؤون أمة، ويجري عليها قانون شريعة، فهو ولي أمرها، وبيده مقاليد سياستها، وهذه حقيقة جلية جلاء الشمس في رونق الضحى، ولكن كاتب المقال يرغب في أن تكون الأذهان خالية من هذه الحقيقة، فما كان إلا أن جاء إلى كلمة عهدها الناس محفوفة بالأبهة والزينة، وهي كلمة (ملك)، وأخذ يدعي أن أشباه العلماء يعدون رسول الله ﷺ ملكاً، ونحن لا نعلم في العلماء أو أشباه العلماء من قال: إنه كان ملكاً، أو أطلق عليه اسم ملك. بل كان الناس يتحامون بهذا الاسم خلفاءه الراشدين.

وإنما كانوا يذكرون تلك الحقيقة الثابتة بالقرآن والسنة والإجماع، وهي أن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ مبعوث بشريعته، وأنه كان يقوم على تنفيذ هذه الشريعة.

ذهب كاتب المقال ينفي عن رسول الله ﷺ عظمة الحكم؛ بعلة أنه لم يكن له سلطان إلا على تلك الجزيرة الصغيرة جزيرة العرب. يقول هذا، كأنه لا يدري أن العظمة التي يتجه الناس إلى البحث عنها في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول إنما هي العظمة التي تطمح إليها همم الفضلاء، وتجلها قلوب الحكماء.

يعلم الناس أن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ لم يقم ليشيد ملكاً، ولم

يخطر على باله أن ينافس الملوك في عظمتها الأرضية، ولكن بعثه الله بالدين القيم، والشريعة الوسطى، وجعله القائم على هذه الشريعة لعهد نزول الوحي، وبعد أن تناسق عقدها، وتكاملت نجوم هدايتها، التحق ـ عليه السلام ـ بالرفيق الأعلى، وقد أورث القوم المسلمين شريعة قيمة، وسياسة رشيدة، فكانت دولتهم ذات عظمة تتضاءل أمامها كل عظمة.

أراد الله تعالى أن تكون حياة رسوله الأكرم بمقدار ما تدرك الهداية غايتها، وتملك الأمة قوة تحمي الدعوة من خصومها، واتفق أن جمعت الهداية أمرها، وبلغت القوة الكافية نصابها، يوم أصبحت راية الإسلام تخفق على ربوع تلك (الجزيرة العربية) يوم نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[المائدة: ٣].

وإذا خطر على بال أحد أن يضع بين محمد ـ صلوات الله عليه ـ، وبين بعض الملوك مقايسة، فإنه يذهب إليها من طريق العدل والمساواة، وينظر فيها من ناحية إخلاص الرعية، وما تحمله لولي أمرها من حسن الطاعة، مع رعاية بيئة الأمة وطبائعها، وتقدير السبيل الذي سلكها والي الأمر حتى أصبحت مقاليد أمة من الناس في قبضته.

فليبحث كاتب المقال هل يجد في تاريخ العالم رجلاً قام في أمة كهذه الأمة العربية في صعوبة مراسها، واختلاف قبائلها، وكثرة زعمائها، قام وليس بيده سلاح يفوق سلاحها، ولا جند أعرف بفن الحرب من رجالها، ولا مال أوفر مما في أيدي زعمائها. فجاهدها، وأخذها من جميع أطرافها في بضع سنين، ثم سار بها في خطة عدل ومساواة تشبه خطة سيدنا محمد الذي يقول:

«وايم الله! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطع محمد يدها». ثم هو بعد ذلك يملأ العيون جلالاً، وتلقي إليه القلوب بالمودة وحسن الطاعة. إلى مثل هذا ينظر الذين يعدون في وجود عظمة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حكمه العادل، وسياسته الحكيمة، وهم أكيس من أن ينظروا إلى سعة المملكة، وكثرة الجنود.

قال صاحب المقال: «ومن كان يريد أن يضع محمداً بين عظماء أهل المال والغنى، فما كان فيهم إلا فقيراً مقلاً».

إن الذين يتجهون إلى البحث عن عظمة محمد ﷺ، لا يعدون المال في مظاهر العظمة. وليس المال إلا وسيلة، إما إلى خير، وإما إلى شر، ولو أوتي رجل سعة من المال، فركض به في شهواته، ولم ينفقه إلا في لذة أو زينة، لكان البائسُ الفقير الذي يزيد عليه بمثقال من علم أو فضل أقربَ منه إلى العظمة.

وإذا لم يكن المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ في ثروة وأموال تحف به في كل وقت، فإن الحال التي تمر عليه، وهو في كفاف من العيش، لا تختلف عن حاله يوم تنساق إليه الأموال ركاماً، فهو في حالتي كفافه ويساره يمثل الصبر والسكينة، والزهد والسخاء.

فالذين يبحثون عن عظمة رسول الله ﷺ يجدونها في حال كفافه بمقدار ما يجدونها في حال يساره، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. ولا يخدش الفقر والإقلال في عظمة الرجل إذا نهضت به الحكمة والعزم والإخلاص، وأرغم أنوف الطغاة أو الأغنياء الذين يمشون في الأرض مرحاً.

قال صاحب المقال: «ومن كان يريد أن يضعه بين القواد الفاتحين،

فإنما بلده مكة، وهي أكبر ما فتح محمد من البلاد».

يتجه أولو الأبصار إلى البحث عن عظمة رسول الله ﷺ، ولا يخطر لهم على بال أن يوازنوا بينه وبين الفاتحين في عدد ما فتحوا من المدن أو الممالك، وإذا عدوا فتح مكة من مواقفه الشريفة، ومظاهر عظمته السامية، فلأنه عاقبة جهاد وصبر وثبات، ولأنه الفتح الذي أخذ به الإسلام مهيباً به، وقطعت به الدعوة إلى الحق شوطاً واسعاً. والذي يفتح مدينة، فيملؤها إيماناً بعد شرك، وعدلاً بعد جور، وإصلاحاً بعد فساد، تكون عظمته في قلوب سراة الناس وحكمائهم فوق عظمة من يفتح المشرق أو المغرب، وهو يحمل في نفسه غطرسة، وفي يده إرهاقاً.

قال صاحب المقال: «ومن كان يريد أن يعده من كبار الفلاسفة والمخترعين والمكتشفين، فقد كان محمد أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وما كان بمخترع ولا مكتشف».

الاختراع والاكتشاف مما يناله الناس بالذكاء والمثابرة على البحث، وإنما جاء محمد ـ صلوات الله عليه ـ بحكمة وقفت دونها أنظار الأذكياء، وتخبطت في البحث عنها عقول الفلاسفة، وهي هذه الحقائق والآداب والنظم التي هي قوام الحياة الراقية، وملاك السعادة الخالدة، هذه هي العلوم التي اختار الله لها محمداً، فألقاها على الناس دروساً زاكية، وليس من زينتها سيرة غراء، ولا يضره بعد هذا العلم وهذه السيرة أن لا يخترع من الحديد غواصة، أو لا يستكشف أثراً كان تحت الأرض غائباً.

وإذا اعترف الناس للفيلسوف الكاشف عن شيء من غوامض الطبائع المادية بالعظمة، فإن عظمة من يكشف عن الحقائق العقلية والفضائل النفسية

والصلات الأدبية والقواعد العمرانية أسنى مطلعاً، وأجلى مظهراً.

وتمادى صاحب المقال يخوض في لهو، ويجادل بعنف، ثم عاد فقال: «من كان يبتغي عظمة محمد، فإنما هي كلمة واحدة جاء بها محمد، وفيها كل عظمة يلتمسها الباحثون: لا إله إلا الله».

عظمة المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ في كلمة واحدة جاء بها، وهي لا إله إلا الله!!!

إن صاحب المقال يحاول أن يريكم القمر الزاهر في شكل درهم، فدعوه يتحدث عن أكرم الخليقة كيف يشاء، واتجهوا في البحث عن عظمة الرسول الأكرم إلى سيرته المشهودة في القرآن والأخبار الثابتة.

من يبتغي عظمة الرجل بحق، فليبحث عنها في ناحية عقله وعلمه، وخلقه وإخلاصه، وعزمه وعمله وحسن بيانه، ولقد كان محمد ـ صلوات الله عليه ـ راجح العقل، غزير العلم، عظيم الخلق، خالص الإرادة، صادق العزم، جليل العمل، رائع البيان.

أما رجحان عقله، فمن دلائله ـ بعد اختصاص الله له بالرسالة ـ: أنه نشأ بين قوم يعبدون الأصنام، يتنافسون في مظاهر الأبهة والخيلاء، ينحطون في شهواتهم إلى المنزلة السفلى، فلم يكن لهذه البيئة المظلمة من أثر في نفس محمد ﷺ قليل أو كثير، فانتبذ بين هذه الظلمات المتراكمة مكاناً يخلو فيه بنفسه، ويقدح فيه زناد فكره، ويناجي فيه ربه، فإذا نور النبوة يتلألأ بين جنبيه، وحكمة الله تتدفق بين شفتيه.

وأما علمه، فهو ما يزكي النفوس، وينقي الأبصار، ويرفع الأمم إلى ذروة العز والشرف، حتى تحرز الحياة الطيبة في الأولى، والسعادة الباقية في

الأخرى. ومن يتدبر القرآن والأحاديث الثابتة حتى يتفقه فيما انطويا عليه من حقائق وحكم وآداب، يلف رأسه حياء من أن ينفي عن المصطفى ﷺ عظمة العلم تحت اسم الفلسفة، متكئاً على أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. وقد خرج من بين يدي محمد ﷺ رجال عظماء، ولم يتلقوا من العلم غير ما كانوا يتلقونه في مجلسه من حكمته، فكانوا منبع علم وأدب، وأدركوا في حصافة الرأي وقوة الحجة الأمد الأقصى.

وأما خلقه، فهذه السيرة المستفيضة في القرآن، وعلى ألسنة الرواة وأقلامهم تنطق وتلوح بأنه كان ﷺ المثل الأعلى في كل خلق كريم، وبَسْطُ القول في هذا الصدد لا يغني فيه سفر، فضلاً عن محاضرة.

وأما إخلاصه، فقد كان صافي السريرة، لا يبغي إلا هدياً، ولا ينوي إلا إصلاحاً، والإخلاص روح العظمة، وقطب مدارها. وأقرب شاهد على إخلاصه في دعوته: أنه لم يحد عن سبيل الزهد في هذه الحياة قيد أنملة. فعيشه يوم كان يتعبد في غار حراء كعيشه يوم أظلت رايته البلاد العربية، وأطلت على ممالك قيصر من ناحية تبوك.

وأما صدق عزيمته، فقد قام ﷺ يدعو إلى العدل ودين الحق، ويلقى من الطغاة والطغام أذى كثيراً، فيضرب عنه صفحاً أو عفواً، ويمضي في سبيل الدعوة، لا يأخذه يأس، ولا يقعد به ملل، ولا يثنيه جزع، وقد ظهر دين الله، وعلت حكمته بهذا العزم الذي تخمد النار ولا يخمد، وينام المشرفي ولا ينام.

وأما عمله، فتهجد وصيام، وتشريع وقضاء، ووعظ وإرشاد، وسياسة وجهاد، وهل من سيرة تبتغي لعظمة يرضى عنها الله، ويسعد بها البشر،

غير هذه السيرة؟!.

وهل يستطيع كاتب المقال أن يدلنا على رجل كان ناسكاً مخلصاً، ومشرعاً حكيماً، وقاضياً عادلاً، ومرشداً ناصحاً، وواعظاً بليغاً، وسياسياً أميناً، ومجاهداً مصلحاً، وفاتحاً ظافراً، وسيداً تذوب في محبته القلوب، غير المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟.

وأما حسن بيانه، فقد أحرز ـ عليه الصلاة والسلام ـ من خصلتي الفصاحة والبلاغة الغاية التي ليس وراءها لمخلوق غاية، فانظروا إن شئتم إلى مخاطباته وخطبه، وما يضربه من الأمثال، وينطق به من جوامع الكلم، تجدوا جزالة اللفظ، ومتانة التركيب، وسهولة المأخذ، إلى رفعة الأسلوب، إلى حكمة المعنى.

عظمة انتظمت من هذه المزايا العالية، فبلغت حد الاعجاز، وكل درة في عقد حياة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ معجزة.

وأذكر بهذه المناسبة بيتين ينسبان إلى صاحبنا الأستاذ محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل لهذا العهد، وهما:

سيد الرسل ومن بعثته ... كست الكون بهاء وفخارا

قم إلى النور الذي جئت به ... أفترضى أن يصير النور نارا؟!

وكان أحد فضلاء الشام قد اقترح عليَّ تشطيرهما، فكان التشطير:

«سيد الرسل ومن بعثته» ... سطعت فانقلب الليل نهارا

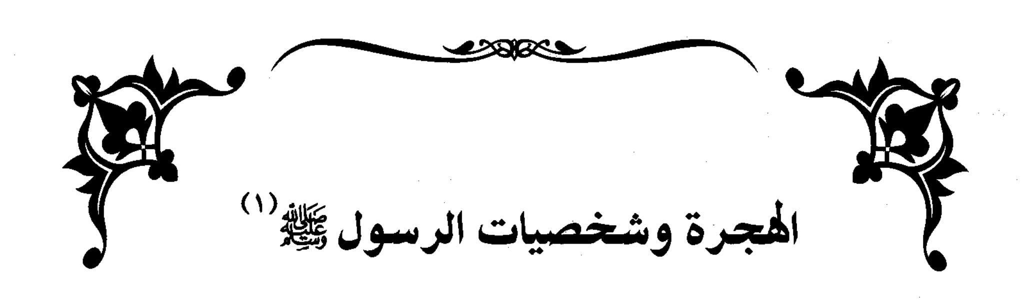
سُلبت أمتك العز وكم ... «كست الكون بهاء وفخارا»

«قم إلى النور الذي جئت به» ... والورى في غسق الجهل حيارى

تلـق نـار الغـيِّ تـسطو حولـه «أفترضـى أن يـصير النـور نـارا»

هذه منتهى المحاضرة، وندع دفع ما وسوس كاتب المقال في حكمة التوحيد إلى فرصة أخرى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١].

❐ ❐ ❐



الهجرة وشخصيات الرسول ﷺ[1]

وقع في يدي الجزء الصادر في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٢ من مجلة «الرسالة»، فأخذت أقلب صفحاته، حتى أتيت على عنوان كلمة استوقف نظري، والعنوان هو: «التشريع الإسلامي الدائم والمؤقت»، فقرأت ما كتب تحته، فإذا هو الجمل التالية:

«كتب صديقي الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت مقالاً في عدد «الرسالة» الممتاز تحت عنوان: «الهجرة وشخصيات الرسول»، وليس المهم في هذا المقال تقسيم شخصيات الرسول، فذلك أمر يعرفه كل العلماء، وإنما المهم والجديد في هذا المقال: ما جاء فيه من توزيع أحكام الشريعة الإسلامية على تلك الشخصيات، ومن جعل التشريع الدائم والمؤقت تابعاً لهذه الاعتبارات، وهذا أمر جديد لم يظهر إلا في عصرنا، وإذا أمكن الاتفاق عليه بيننا، أمكن حل مشاكلنا التشريعية، وزالت أكبر عقبة في سبيل وضع تشريع إسلامي يفي بحاجات المسلمين في هذا العصر، ولا يمكن أحداً أن يوجه إليه أي طعن.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثاني عشر من المجلد الرابع عشر الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٦١، والجزء الأول من المجلد الخامس عشر الصادر في رجب سنة ١٣٦١.

«وخلاصة ما يرمي إليه المقال (يعني: مقال الشيخ شلتوت): أن الذي يعد شرعاً دائماً: هو ما يرجع إلى شخصيات الرسول من العقائد، وأصول الأخلاق، والعبادات، وما عدا ذلك مما يرجع إلى شخصية الإمام أو المفتي أو القاضي، فليس بشرع دائم، وإنما هو شرع مؤقت يمكن أن يتأثر بالاجتهاد، وأن يترك العمل به لسبب من الأسباب». والتوقيع «عالم».

قرأت هذه الكلمة، فدعتني بإلحاح إلى أن أطلع على مقال الأستاذ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء، ووكيل كلية الشريعة؛ لأتبين أمر هذا الذي يعزوه إليه كاتب تلك الكلمة، فأحضرت ذلك المقال المنشور تحت عنوان: «الهجرة وشخصيات الرسول»، وقرأته قراءة خالي الذهن مما قيل فيه، فما لبثت أن لاقتني جمل صيغت في قالب ذي وجهين، وأطلَّت عليَّ آراء قلت لما لمحتها: أما وجدت هذه الآراء وادياً غير هذا الوادي، أو عهداً غير هذا العهد؟ وأمسكت بالقلم ناقداً لها بعدل، مناقشاً لها بإنصاف.

وسأرسلك ـ بتوفيق الله تعالى ـ الطريقة التي اخترتها لنفسي في مناقشة ما يبدو لي أنه جدير بالمناقشة، فأنقل عبارات كاتب المقال بأعيانها؛ لأسير أنا والقارئ في النقد جنباً لجنب، ولا أظلم صاحب المقال، ولا أظلم الحق أو العلم.

*** اتجاه الوحي بمكة:**

ذكر كاتب المقال: «أن الوحي كان له اتجاهان: اتجاه قبل الهجرة، واتجاه بعدها، وأن النبي ﷺ كان يساير الوحي في هذين الاتجاهين، ويحتفظ بما يؤدي إلى الغاية منهما، وابتدأ بالحديث عن اتجاه الوحي في مكة، ثم

اتجاه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيها، فقال:

كان الوحي يدور أولاً حول تحديد الدعوة، وبيان الغرض منها، ولفت الأنظار إلى أدلتها، وذكر ما ينفع فيها من قصص الأولين، وعبر الماضين، وتسلية الرسول، وتحري عوامل القوة الروحية في نفسه، وتعويده عدم الاكتراث بما يجابه به من الإيذاء والتكذيب والاضطهاد، وقد اتجه النبي ﷺ إلى هذه الناحية في تفكيره وأعماله وأقواله وسائر تصرفاته، يبلغ الدعوة، ويعالج الصبر على الإيذاء في سبيلها، ويحاول جمع القلوب حولها، ويرسم للناس دائرتها، ويركز أصولها في النفوس، ويعمل على إيجاد بيئة إسلامية صالحة لما يرد عليها فيما بعد من مبادئ التشريع».

تحدث الكاتب عن اتجاه الوحي بمكة، وذكر أنه كان يدور حول تحديد الدعوة، وحدثنا عن اتجاه النبي ﷺ، وذكر أنه كان يرسم دائرة الدعوة، ولم يفصح الكاتب هنا عن وجه تحديدها، أو رسم دائرتها، وستمر بنا جمل من مقاله تلوح إلى حدود وظيفة الرسول السماوية، وتجعلها في دائرة أضيق من دائرتها، وسنناقشها برفق، وندفع شبهتها بحجَّة.

قال الكاتب: «إن الوحي في مكة كان يدور حول تحديد الدعوة، وبيان الغرض منها، ولفت الأنظار إلى أدلتها». وهذه الجمل تخيل إلى القارئ أن الوحي في مكة وقف دون شرع الأحكام العملية، وأن مبادئ التشريع إنما تناولها الوحي بالمدينة، والواقع أن الوحي بمكة قد شرع أحكاماً ترجع إلى العبادات، وأخرى إلى العادات أو المعاملات: شرعت هنالك الصلوات الخمس، ونزل الوحي فيما يحل ويحرم من المطعومات، ووردت آيات وأحاديث في الأمر بأعمال صالحة؛ كسد حاجات الفقراء، وأخرى في النهي

عن أعمال خاسرة؛ كالظلم، وقتل النفس، والزنا، وما يشبه الزنا، والسرقة والنهب، ونقص الكيل والميزان، والإسراف في الإنفاق، والتصرف في مال اليتيم بغير حق.

وكانت المعاملات من نحو النكاح والعتق والبيع والإجارة والهبة تقع من العرب على وجوه، فإذا صحت الرواية بأن شيئاً منها وقع من النبي ﷺ، أو من غيره من الصحابة بمكة، وهو يعلم، عدَّ الوجه الذي وقعت عليه تقريراً من الشارع، وساغ لمن يبحث في تاريخ التشريع أن يدخله في حساب المشروعات المكية، ونرى علماء الشريعة يستشهدون بأحاديث مكية على طائفة من أحكام المعاملات؛ كما استشهدوا على صحة عقد نكاح غير البالغة بعقد النبي ﷺ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي بنت ست سنين، واستشهدوا على صحة عمل المسلم لغير المسلم على وجه الإجارة دون أن يتخذه خادماً في منزله الخاص، بصنع خباب الصحابي سيفاً للعاص بن وائل.

ونزل الوحي في مكة بأوامر ونواه تم تفصيل ما أمرت به أو نهت عنه في المدينة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف: ٣٢].

وقد تنزل آيات في نحو الوعيد أو الوعد أو الامتنان، متضمنة بطريق الاقتضاء أحكاماً شرعية يقصد إليها المجتهدون بالاستنباط، ويذكرونها في

مآخذ الأحكام، وقد اشتمل الوحي بمكة على طائفة من الأحكام الواردة على هذا الوجه من الدلالة؛ كما يستنبط عدم مؤاخذة الرجل بجريرة قريب من نحو والد أو ولد من قوله تعالى فيما نزل بمكة: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾[الأنعام: ١٦٤].

ونبهت الآيات المكية على قواعد يرجع إليها المجتهدون في تقرير أحكام كثير من الوقائع؛ كقاعدة: سد الذرائع المنبه لها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾[الأنعام: ١٠٨]، وقاعدة: العفو عما يقال أو يفعل تحت إكراه، المنبَّه لها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل: ١٠٦]، وقاعدة: الضرورات تبيح المحظورات المنبَّه لها بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ﴾[البقرة: ١٧٣].

ولو تمسكنا بكل آية قال فيها طائفة من أهل العلم: إنها نزلت بمكة، وخالفهم فيها آخرون، لجمعنا أحكاماً كثيرة، وأصولاً غير ما ذكرنا.

والأئمة الذين يرون أن شرع من قبلنا ـ الذي يقصه علينا القرآن، أو الحديث الصحيح ـ شرع لنا، ما لم يرد في شرعنا ما ينسخه، يجدون في قصص الأنبياء التي نزلت بمكة أحكاماً وأصولاً ترجع طائفة منها إلى المعاملات، وشؤون الاجتماع، وسياسة القضاء.

ويستبين من هذا: أن الوحي بمكة لم يمض عهده إلا وقد قطع شوطاً واسعاً فيما جاء له من التعبد والتشريع، فلا يحسن من المتحدث عن ذلك العهد أن يصرف النظر عما بناه الوحي فيه من أحكام وأصول، ولا ينبه له في حديثه عن سيرة الدعوة.

ذكر الكاتب أن للوحي اتجاهاً، وللنبي ﷺ اتجاهاً، وجعل من آثار اتجاه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ العمل على إيجاد بيئة إسلامية صالحة لما يرد عليها بعد من مبادئ التشريع، والواقع أن للوحي في هذا العمل فضل الآمر به، وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد قال: «لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى»، وذكر كيف كانوا يأتون مجالس العرب[1].

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينتظر بالهجرة من مكة إلى المدينة إذن الله فيها، ولم يقدم عليها حتى جاءه الوحي، وهذا ابن عباس رضي الله عنه قد قال: «بُعث رسـول الله ﷺ لأربعين سـنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى إليه، ثم أُمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين[2]». وهذه عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: «تجهز أبو بكر قِبَلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك؛ فإني أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: «وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟» قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وقالت: «ولما جاء النبي ﷺ إلى أبي بكر في نحر الظهيرة متقنعاً، ودخل عليه، قال له: «فإني قد أُذن لي في الخروج[3]»، وقد صرح النبي ﷺ أن الله أمره بالهجرة إلى المدينة، أو بسكناها إذ قال: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة»[4].

---

(١) أخرجه الحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) «صحيح البخاري».

(٣) «صحيح البخاري».

(٤) «صحيح البخاري».

* اتجاه الوحي بالمدينة :

قال كاتب المقال : «لما تمت الهجرة، دخلت الدعوة في عهد جديد تكونت به للمسلمين وحدة اقتضت معاملات ونظماً اجتماعية تمتاز بها عن سائر الجماعات».

«وبعد ذلك الحين اتجه الوحي إلى جهة أخرى تسير مع مقتضيات الحالة الجديدة، وتلبي مطالب هذه الأمة الناشئة، واتجه النبي ﷺ هذا الاتجاه نفسه، فأضيف بذلك إلى وظيفته في التبليغ وظائف أخرى، فكان إماماً للمسلمين، يسوسهم، ويرعى دولتهم، وينظم شؤونهم، وكان مفتياً يجيبهم عما يسألون، ويعلمهم ما يجهلون، وكان قاضياً يفصل في خصوماتهم، ويقضي بينهم معتمداً على ما يظهر به الحق من البينات والأدلة».

ذكر الكاتب العهد الجديد الذي تكونت به للمسلمين وحدة معاملات، ونظم اجتماعية، ووصف الوحي بأنه اتجه إلى جهة تسير مع مقتضيات هذه الحالة الجديدة، ثم وصف النبي ﷺ بأنه اتجه هذا الاتجاه نفسه، وتخلص من هذا إلى أنه قد أضيف إلى وظيفته في التبليغ وظائف أخرى هي: الإمامة والفتوى والقضاء، وإليك ما نفهمه من تلبية الجهة التي اتجه إليها الوحي لمطالب هذه الأمة الناشئة:

أراد الله تعالى أن يهدي الناس ـ أينما وجدوا ومتى وجدوا ـ طريق الحق والإصلاح، وأن تكون هدايتهم بطريق رسالة عامة، لباسها الحكمة، وزينتها البلاغة، ونصيرها الحجة، واصطفى لهذه الرسالة محمداً ﷺ، وأخذ يمده بالوحي الفينة بعد الفينة، إلى أن تكامل الدين، وانتظمت الشريعة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[المائدة: ٣]، وكان من حكمة الوحي

أن يلقن الناس أحكام العبادات والمعاملات وشؤون الاجتماع رويداً رويداً؛ ليخف عليهم أمرها، ويسهل عليهم حفظها، فيصلحوا بها سير حياتهم، ويسوسوا بها غيرهم من الجماعات ما استطاعوا السبيل إلى إبلاغها وإنفاذها، وكان من حكمة الوحي: أن اتخذ من حالة الأمة الناشئة لذلك العهد أسباباً لورود الأحكام التي جاء بها؛ لتكون شريعة عامة خالدة، فإذا لبّى الوحي مطالب هذه الأمة الناشئة، فقد لبَّاها بتشريع ذي نصوص وأصول يقصد منها إصلاح حال كل أمة أينما وجدت، ومتى وجدت.

ثم إن الكاتب إذ ذكر اتجاه النبي ﷺ في مقابلة اتجاه الوحي يريد: الاتجاه الذي يصدر عنه «بحق بشريته»، وقد انتقل من ذكره اتجاه النبي - عليه الصلاة والسلام - في المدينة بطريق حرف الترتيب والتعقيب إلى أنه أضيف له وظائف أخرى، ولا ندري: أيريد الكاتب أن هذه الوظائف أضيفت إليه من اتجاهه خاصة، أو يريد: أنها أضيفت إليه من اتجاهه واتجاه الوحي؟ فإنه يقول: «فأضيف بذلك إلى وظيفته في التبليغ وظائف أخرى»، فاسم الإشارة في قوله: «بذلك» ظاهر في عوده إلى اتجاه النبي - عليه الصلاة والسلام - وحده، ومحتمل لأن يعود إلى اتجاهه واتجاه الوحي بحمل ما يشار به إلى المفرد على أنه مشار به إلى اثنين، أما جعل هذه الوظائف صادرة من اتجاهه وحده، فغير معقول، والقرآن شاهد بأنه تولى الإمامة والقضاء بوحي؛ على ما نحدثك به من بعد، وليست الفتوى إلا تعريفاً للحكم الشرعي، فهي ظاهرة في معنى التبليغ المأمور به في مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[المائدة: ٦٧].

وإذا أراد الكاتب أن هذه الوظائف أضيفت إلى النبي ﷺ من اتجاهه

خاصة، فقد التقى من قريب بمن حاول أن يقصر مهمة الرسول السماوية على البلاغ دون التنفيذ، وقال: «إن عمله السماوي لا يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان»[1].

ومن الحق أن تكون هذه الوظائف الثلاث موصولة بالاتجاهين على معنى: أن الوحي اتجه إليها اتجاه تشريع، والنبي ﷺ اتجه إليها اتجاه الفاهم لنصوص الوحي ومقاصده، والمنفذ لها بحق.

قال كاتب المقال: «وقد صدرت عنه ﷺ في جو هذه الحياة الجديدة أقوال وأفعال وتصرفات مختلفة، عني بها المسلمون عناية فائقة هي مضرب الأمثال في عناية الأمم بتاريخ عظمائها، وتتبع آثارهم، دوَّنوها، وشرحوها، وضبطوا ألفاظها، وألَّفوا المعاجم في شرح غريبها، واهتموا بتفهم أسرارها، وتبين أغراضها، حتى كان من آثار ذلك: أن نشأت علوم خاصة تعرف «بعلوم السنَّة»؛ من رواية ودراية، وتجريح وتعديل، وناسخ ومنسوخ، وغير ذلك».

يقول الكاتب: إن المسلمين عنوا بما صدر عن النبي ﷺ في جو تلك الحياة الجديدة، والمعروف أن المسلمين عنوا بما صدر عنه في حياته قبل الهجرة وبعدها، وكتب السنّة عامرة بأقوال وأفعال صدرت منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمكة قبل الهجرة، وهذه الأقوال والأفعال داخلة فيما دوَّنوه، وشرحوه، وضبطوا ألفاظه، واهتموا بتفهم أسراره، وتبين أغراضه، ولا يغيب عن أحد تتبعَ السيرة في مواردها الصحيحة: أن كثيراً من أقواله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأفعاله بمكة كان لها أثر كبير في بناء عظمته، وتثبيت رسالته،

---

(١) كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق. وللإمام كتاب الرد عليه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم».

وتأسيس شريعته، فالواقع أن علوم السنة ناشئة عن تدوين ما صدر في حياته بمكة والمدينة.

قال كاتب المقال: «يهم الناظر في التشريع الإسلامي أن يعرف هل كان النبي ﷺ في كل ما يروى عنه من هذه الأقوال وتلك الأفعال والتصرفات مصدراً عن الوحي، ناطقاً بلسانه، أو كان له ـ إلى جانب الوحي ـ فيها تفكير ونظر واجتهاد؟ ذلك ما نريد معالجته في هذا البحث».

قد عالج علماء الإسلام هذه الناحية من السيرة، وأسهبوا فيها القول حتى بلغوا الغاية، ورأيناهم قد قسموا أقواله وأفعاله إلى ما كان صادراً عنه من حيث إنه رسول يوحى إليه، وما كان صادراً عنه من ناحية أنه بشر يفكر ويجتهد، وسنتناول هذه المسألة فيما بعد بتفصيل حتى تستبين وجهة نظر العلماء فيها، ويتضح الفرق بين معالجتهم لها، ومعالجة كاتب المقال.

قال كاتب المقال: «يرى بعض العلماء أن النبي ﷺ مبلّغ عن الله فقط، تنحصر مهمته في تبليغ الوحي، وما يتصل به من بيان على الوجه الذي ضمنه الله بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٨ ـ ١٩]. ويرون أن صفة الرسالة فيه غلبت على صفة البشرية، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تمحض في استعداده لحمل الرسالة وتبليغ الأمانة، معتمدين في ذلك على ما فهموا من قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٤] بعد قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[النجم: ٣]».

لا ندري مَن هؤلاء العلماء الذين يرون أن النبي ﷺ مبلّغ عن الله فقط، وأنه تمحض في استعداده لحمل الرسالة وتبليغ الأمانة؛ فإن علماء الإسلام مجمعون على أن من أقواله وأفعاله ما لم يصدر عن وحي، وسنقيم على هذا

شواهد من بعد.

وهذا الذي نسبه كاتب المقال إلى بعض العلماء، قد نسبه الدكتور زكي مبارك إلى المسلمين، فقال في مقال نشر في مجلة «الرسالة»[1]: «إن المسلمين يجعلونه رسولاً في جميع الأحوال، فهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي من الله، ولا يأخذ ولا يدع إلا بإشارة من جبريل، ومعنى ذلك: أن شخصية محمد في جميع نواحيها شخصية نبوية لا إنسانية».

قال كاتب المقال: «رأوا هذا، ورتبوا عليه أن كل ما أثر عن النبي ﷺ شريعة من الله رب العالمين، لها صفة الدوام والبقاء إلى يوم الدين، والناس مخاطبون بها في كل زمان ومكان، لا يجوز لهم أن يحيدوا عنها، قيد شعرة، ومن حاد عنها أو سوغ لنفسه أن يتصرف فيها، فذلك خارج على شريعة الله، مخالف عن أمر الله، غير جدير بأن يكون من المؤمنين».

من المحتمل أن توجد طائفة من العلماء يقولون: إن كل ما أثر عن النبي ﷺ شريعة من الله رب العالمين، وليس من المحتمل أن توجد طائفة من العلماء يجعلون كل ما أثر عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من قبيل ما لا يجوز للناس أن يحيدوا عنه قيد شعرة، ويحكمون على من حاد عنه بأنه خارج عن شريعة الله، غير جدير بأن يكون من المؤمنين.

أفلا يعلم هؤلاء العلماء أن في الشريعة واجبات ومندوبات ومباحات، وأن المندوبات والمباحات لا يصح أن يقال فيمن تركها: إنه خارج على شريعة الله، غير جدير بأن يكون من المؤمنين؟!

---

(١) جزء المحرم سنة ١٣٥٨.

قال كاتب المقال: «يقولون ذلك، ويتشدودن فيه، ولا يفرقون بين أقواله وأفعاله، وأحكامه وأقضيته وسائر تصرفاته في العبادات والمدنيات، والجنايات والطب والسياسة والحروب والعادات، والزي واللباس، وآداب الطعام والشراب، والجلوس والسير في الطريق، وما يكون من الأحوال الشخصية والمسائل الجنسية، وغير ذلك، فكل هذا وحي من الله، بعضه ظاهر، وبعضه باطن، وكله شرع محكم، ودين متبع، لا يجوز الخروج عليه، والتصرف فيه».

من ذا يعقل أن طائفة من العلماء يقولون: إن جميع أقواله ﷺ وحي من الله، وشريعة محكمة، وهم يجدون أمامهم ـ متى كانوا من العلماء ـ أحاديث يخبر فيها النبي ﷺ عن أشياء شاهدها بعينه، أو سمعها بأذنه، أو أحسها بوجدانه؛ كالحب والبغض، والسرور والحزن، والعطش والجوع، وأحاديث يوجهها الأشخاص في صيغة استفهام، وأحاديث يقول فيها: أظن كذا، إلى غير ذلك مما لا يقول عالم أو غير عالم: إنه لا يصدر إلا عن وحي.

وأما أفعاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإنا نجد علماء الأصول يفرقون بين ما كان جبلَّة، أو عادة، وبين ما كان فيه معنى القربة، ويقولون: ما كان جبلّة، فهو غير داخل فيما يطالب الناس بالاقتداء به، ومنهم من يذكر هذا، ولا يحكي فيه خلافاً؛ كما فعل إمام الحرمين في «البرهان» إذ قال: «والأفعال الجبلية؛ كالسكون والحركة، والقيام والقعود، وما ضاهاها من تغاير أطوار الناس، فإذا ظهر ذلك، فلا استمساك بهذا الفن من فعل رسول الله ﷺ»، قال هذا، ولم يحك فيه خلافاً، مع عنايته بذكر ما يقع في مسائل الأصول من اختلاف،

ومنهم من يذكر هذا النـوع من أفعالـه، وينفي أن يكون فيه نزاع؛ كما فعل الآمدي، والأسنوي، ومنهم من ينفي أن يكون فيه خلاف؛ كما فعل عبد العزيز البخاري شارح «أصول البزدوي»، ومنهم من يحكي الاتفاق عليه كما فعل صاحب «مسلم الثبوت».

وحكى بعض الأصوليين أن فيما ظهر فيه أمر العادة قولاً بأنه مندوب إليه، وهو قول شـاذ، ولشذوذه أهمله كثير من الأصوليين، فلم يذكروه في كتبهم، وروي عن ابن عمر: أنه كان يحاكي النبي ﷺ في مثل هذا النوع من العاديات، كما كان يتحرى مواطن وقوفه ومشيه، ويتحرى منازله وطرق سيره في الحج، ولهذه المحاكاة وجه آخر غير الندب، وهو التبرك بالتشبه بالنبي ﷺ، ولو فيما يفعله على أنه عادة.

والراسخون في علم الشريعة يفرقون في أفعاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين ما كان من قبيل الشرعيات، وما كان من قبل الجبلَّةِ أو العادات، ويبنون على هذه التفرقة: المطالبة بالاقتداء، وعدم المطالبة به، وقد تختلف أنظارهم في بعض أفعاله ﷺ، فيراها بعضهم من قبيل الشرعيات، فتكون موضع القدوة، ويراها آخرون من الجبلاَّت أو العادات، فلا تدخل في قبيل ما يقتدى به، وكثيراً ما يجري هذا الاختلاف في أفعال تقترن بعبادات؛ كضجعته ﷺ بعد صلاة الفجر، وركوبه في الوقوف بعرفه، وجلسة الاستراحة بين السجدة والقيام لركعة ثانية أو رابعة. وقد تختلف أنظارهم في فعل من أفعاله لا يتصل بعبادة؛ كإرساله ـ عليه الصلاة والسلام ـ شعر رأسه إلى أذنيه، إذ ذهب طائفة إلى أن هذا الفعل من السنَّة، وذهب آخرون إلى أنه من قبيل العادة، وهو الراجح فيما نرى.

وإذا كان العلماء قد فرقوا بين ما يفعله على أنه شرع، وما يفعله على أنه جبلَّة وعادة، فإن التفرقة في أقواله بين ما يصدر على أنه عادة، وما يصدر على أنه شرع، أيسر وأقرب إلى الفهم، والاشتباه فيها أقل من الاشتباه في الأفعال؛ فإن في الأقوال التصريح بحرمة الشيء أو الإذن فيه، وفيها صيغتا الأمر والنهي، وفيها مدح الأفعال أو ذمها، وفيها الوعد بالثواب على الفعل، والوعيد بالعقاب على الترك، وقد يجيء القول في صيغة الخبر، وهو مقترن بلفظ أو حال يصرفه إلى الطلب أو النهي، وهذه طرق معروفة في التشريع، وإنما يجري الخلاف في وجه الطلب: هل هو الإيجاب، أو الندب؟ أو في وجه النهي: هل هو الحرمة، أو الكراهة؟

فإن قال الكاتب: أنكر على هذه الطائفة أن تعمد إلى الأقوال التي تحتمل أن تكون عن اجتهاد، فيجعلوها كلها من قبيل الوحي، قلنا له: المعروف في كتب الأصول: أن طائفة ينكرون أن يكون النبي ﷺ متعبداً بالاجتهاد، ويذهبون إلى أنه لا يقول إلا عن وحي، ويستدلون لهذا المذهب بآية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٤]، وإيراد الأصوليين كلمة التعبد في طرح المسألة، ظاهر في أن موضع الخلاف هو الاختلاف العائد إلى الأحكام الشرعية دون الأمور الدنيوية، وقد صرح بذلك الإمام الغزالي في كتاب «المستصفى» عند ذكر الخلاف في اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وسوقه لأدلة القائلين باجتهاده التي من جملتها: واقعة نزوله دون المياه في غزوة بدر، فقال: «أما المنزل، فذلك اجتهاد في مصالح الدنيا، وذلك جائز بلا خلاف، إنما الخلاف في أمور الدين».

وتحدث كاتب المقال عن هذه الطائفة التي تقول: إن كل أفعاله وأقواله

وسائر تصرفاته وحي، ونسب إليها أنها تقول: «كل هذا وحي من الله، بعضه ظاهر، وبعضه باطن». وتقسيم الوحي إلى ظاهر وباطن اصطلاح معروف عند بعض الأصوليين الذين يقولون: إن النبي ﷺ كان يجتهد، ويفسرون الوحي الظاهر بما ينزل به المَلَك بلفظه، أو ما يقذفه المَلَك في القلب، وهو المشار إليه بقوله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي»، أو ما يبدو للقلب بإلهام من الله تعالى؛ ويفسرون الوحي الباطن بما ينال باجتهاد الرأي بالتأمل في الأحكام المنصوصة؛ وإنما جعل اجتهاد النبي ﷺ وحياً باطناً؛ لأن إقراره عليه يدل على أن الأحكام الصادرة عنه حق لا مرية فيه؛ كالأحكام الثابتة بطريق من طريق الوحي المشار إليها آنفاً، ومن هؤلاء من يجعل الوحي الباطن: الإلهام والاجتهاد.

فتقسيم الوحي إلى ظاهر وباطن صادر ممن يقولون باجتهاد النبي ﷺ، والكاتب ينسبه إلى الطائفة التي تقول: إن كل أفعال النبي ﷺ وحي من الله.

قال كاتب المقال: «وقد تجد قوماً منهم يستثنون من ذلك بعض الأشياء التي لا تتصل بالنواحي التشريعية؛ كرأيه ﷺ في تأبير النخل، أو في اختيار مكان ينزلون فيه للحرب، أو نحو ذلك، ولكنهم حين يتحدثون عن هذا الاستثناء يحتاطون في الأمر تمام الاحتياط، فيضيقون دائرته، ولا يتسعون فيه».

الذين يقولون: إن النبي ﷺ لا يتكلم إلا عن وحي يجعلون موضوع كلامهم الأحكام الشرعية، ولا ينكرون أن يتكلم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما يراه من أمور الدنيا أو أمور الحرب؛ كما نرى هذا في مؤلفات ابن حزم، فهم يستثنون الأشياء التي لا تتصل بالنواحي التشريعية، وقد اختار الكاتب

أن يأتي لاجتهاد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في غير الشرعيات بمثالين، هما: تأبير النخل، واختيار مكان للنزول في الحرب، والمثالان يساقان على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد يعرض لاجتهاده في غير الشرعيات خطأ، ولكن هذا الخطأ لا يستمر، بل ينقطع بتنبيهه له ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو بتنبهه له من نفسه.

أما واقعة تأبير النخل: فحديثها: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مر على قوم بالمدينة يلقحون[1] نخلاً، فقال: «ما يصنع هؤلاء؟»، فقالوا: يلقحون، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظن يغني ذلك شيئاً»، فأُخبروا بذلك، فتركوه، فخرجت شِيصاً[2]، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إن كان ينفعهم ذلك، فليصنعوه؛ فإني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً، فخذوا به». وفي رواية أنه قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

فالحديث لم يأت فيه أنه نهاهم عن التأبير، وإنما قال: «ما أظن يغني ذلك شيئاً»، وفي رواية: «لعلكم لو لم تفعلوا، كان خيراً». والتعبير بالظن، أو بحرف الترجي المفيد للظن، صريح في أنه لم يكن بصدد تقرير حكم شرعي، وإنما هو إبداء رأي في أمر دنيوي، وعدم موافقة ظنه لما يعرفه أهل فن الفلاحة، لا يمس مقام نبوته الرفيع بشيء؛ إذ ليس من شرط صحة النبوة أو كمالها أن يكون صاحبها عارفاً بالشؤون الدنيوية البحتة، مصيبَ الظن في كل ما يتكلم فيه على وجه الظن.

وأما واقعة اختياره مكاناً للنزول في الحرب، فسيأتي بحثها حيث

---

(١) يجعلون الذكر في الأنثى، فتلقح.

(٢) الشيص: تمر لم يتم نضجه؛ لسوء تأبيره.

أوردها الكاتب شاهداً على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ نزل على اجتهاد غيره.

يقول الكاتب: «ولكنهم حين يتحدثون عن هذا الاستثناء يحتاطون في الأمر تمام الاحتياط، فيضيقون دائرته، ولا يتوسعون فيه».

قد رأيت أن هؤلاء القوم ينكرون اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الأحكام الشرعية، ويقولون: إنه قد يتكلم في أمور الدنيا وأمور الحرب عن رأي، لا عن وحي، ولا ندري ماذا يريد الكاتب منهم إذا أنكر عليهم الاحتياط في أمر هذا الاستثناء، ووصفهم بأنهم ضيقوا دائرته، ولم يتوسعوا فيه؟

قال كاتب المقال: «لقد جاءت الشريعة الإسلامية بالاجتهاد، وأمر الله عباده أولي الأبصار بأن يعتبروا، وينظروا ويتدبروا كتابه، وقد كان الاجتهاد سنة الأنبياء والمرسلين من قبل، والقرآن يحدثنا بذلك عنهم؛ كما في شأن يحيى إذ آتاه الحكم صبياً. وكما في قصة داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، وقد ذكر الله جملة من أنبيائه ورسله، وأثبت لهم جميعاً هذا المعنى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[الأنعام: ٨٩]. ثم قال لنبيه محمد ﷺ في الآيات نفسها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].

لما أراد الكاتب أن يتحدث عن اجتهاد النبي ﷺ، ذكر طائفة وصفها بأنها تقول: إن أفعاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأقواله وسائر تصرفاته وحي، وأطلق لقلمه العنان حتى أظهرها للناس أنها متغالية إلى حد بعيد، ثم ذكر أن قوماً من العلماء يستثنون من ذلك بعض الأشياء التي لا تتصل بالنواحي التشريعية، ثم أخذ في هذه الجمل يتحدث عن اجتهاد النبي حديث من يحاول

أن يكون له فيه رأي، ولم يذكر الكاتب مذهباً مشهوراً في الأصول هو أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد يجتهد في الأحكام الشرعية، بَلْهَ أمورَ الدنيا وأمور الحرب.

ونحن لا نطالب الكاتب في مسألة أن يحكي كل قول جرى فيها، ولا نطالبه في كل رأي أراد إفادته للناس أن ينسبه إلى من سبقه به، ولكنا نؤاخذه بأن يأتي إلى مسألة ذات أقوال، ويعمد إلى القول الذي يراه ضعيفاً، فيخصه بالذكر، ويصب عليه عبارات تزيده ضعفاً على ضعفه، ويدع أن يذكر بجانبه القول الذي يرى له وجهاً من الرجحان، ثم يقبل على الناس، ويقرر لهم القول الراجح كأنه ابتكره، أو يقرر لهم رأياً ابتدعه، على أمل أن يكون لتشويهه الرأي الذي عرضه أولاً أثر في تلقي رأيه بالقبول.

أما اجتهاد النبي ﷺ، فإما أن يكون في مصالح الدنيا، وهذا ما لا نزاع فيه، وإما أن يكون في تقرير حكم شرعي، وهذا ما اختلفت فيه أنظار الأصوليين والفقهاء، فمنعته طائفة، منهم: ابن حزم، وأجازته طائفة، بل قالت بوقوعه، وهو المشهور بين أهل العلم، وتوقفت فيه طائفة، منهم: الإمام الغزالي؛ إذ تشابهت عليهم الأدلة، ولم تسفر مناظرة المانعين والمجيزين ـ فيما تراءى لهم ـ عن قول حاسم.

ونحن لا نمانع من أن يكون النبي ﷺ قد اجتهد في تقرير بعض الأمور الشرعية، وإنما ننازع في أشياء كثيرة يوردها القائلون باجتهاده في أحكام الشريعة مورد الأدلة، ونراها غير جديرة بأن تساق لتثبيت هذا الأصل العظيم.

ذكر الكاتب: أن الشريعة الإسلامية جاءت بالاجتهاد، وأن الاجتهاد كان سنة الأنبياء والمرسلين، ذكر هذا، وجعل من مقتضاه أن يكون النبي

ـ عليه الصلاة والسلام ـ ممن يجتهدون.

أما أن الشريعة جاءت بالاجتهاد، فهذا مالا شبهة فيه، ولكنه شرع لحاجة الناس إليه حيث ينقطع الوحي، أو حيث يكونون على بعد من مهبطه، والنبي ﷺ في غنى عن الاجتهاد بما يوحي به الله إليه.

وأما اجتهاد الأنبياء والمرسلين، فهو موضع اختلاف المختلفين، فمن يمنع اجتهاد النبي ﷺ في الأحكام الشرعية ينكر أن يكون غيره من الأنبياء قد اجتهدوا في ذلك، وعلى هذا التعميم درج ابن حزم في كتاب «الأحكام»؛ إذ جعل موضوع البحث: هل الأنبياء يجتهدون في أحكام الشريعة، أولا يجتهدون؟.

وأما الآيات التي أوردها الكاتب مستدلاً بها على أن الأنبياء كانوا يجتهدون، فليس فيها ما ينبئ عن الاجتهاد الذي هو موضع الخلاف، فآية: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم: ١٢]، وآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[الأنعام: ٨٩] ليس فيهما سوى أن الله آتى أولئك الأنبياء الحكم، والحكم يراد منه: الحكمة، أو فصل الأمر على وجه الحق، وليس في أحد المعنيين ما يقتضي الاجتهاد في تقرير أمر من أمور الدين.

وآية: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٩] يسهل فهمها على أن داود ـ عليه السلام ـ حكم في القضية على نحو ما سمع، وجرى في حكمه على ما يقتضيه ظاهر حال الشهود، وهو مأمور بأن يحكم على هذا الوجه، أما سليمان، فقد أطلعه الله تعالى على ما خفي على داود من باطن أمر القضية حتى عرف صاحب الحق، فداود قضى على نحو ما أمره الله به، وسليمان قضى على نحو ما أطلعه الله عليه، فكل منهما آتاه الله حكماً

وعلماً، ومن أهل العلم من يذهب في تأويل هذه القضية إلى أن داود ـ عليه السلام ـ أصاب الحكم، وسليمان ـ عليه السلام ـ أشار بالصلح، والصلح بين المتخاصمين متى رضيا به كان أرجح من تطبيق الحكم المقرر للقضية.

قال كاتب المقال: «فالنبي إذاً مأمور بالسير على سنّة الأنبياء والمرسلين من قبله، مأمور بأن يقتدي بهديهم، وهذا أمر تقضي به طبيعة الأشياء؛ لأنه لا يعقل أن يرسل الله رسولاً في وقت نبغت فيه الإنسانية، واشتد ساعد الفكر البشري، ثم يحرمه النظر والتفكير الذي أباحه لإخوانه الأنبياء في طفولة الدهر وشباب الزمان، وأباحه ـ أيضاً ـ لمتبعيه الذين يدعوهم إلى دينه، ويأمرهم بالعمل بشريعته، كيف يسوغ لأحد أن يقول بحرمان النبي ﷺ من الاجتهاد، وهو مرتبة علمية من أسمى مراتب الفطنة البشرية، والبصيرة الإنسانية؟ أيمنحها الله لذوي العقول وأرباب البصائر، ثم يحرمها على الإنسان الكامل؟».

هدى الأنبياء الذي أمر الله النبي ﷺ بالاقتداء به ظاهر في معنى ما يكون حقاً وكمالاً مما لا تختلف فيه الشرائع؛ كأصول الدين، وما يرجع إلى الأخلاق الكاملة، والآداب الرفيعة، من نحو: الصبر والشكر، والحلم والزهد والعزم، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والتضرع إلى الله في كل حال.

والاجتهاد في الدين خير من جهة أنه وسيلة لتقرير أحكام شرعية، وكمال من جهة أنه دليل قوة العقل والفهم، ومن قالوا: إن النبي ﷺ لا يجتهد في الأحكام الشرعية، إنما يقصدون: أنه في غنى عن هذه الوسيلة بما يسره الله له من الوحي، وإذا نفوا عنه الاجتهاد في الأحكام لا يعنون أنه ليس له قوة التفكير

الكافي لاستنباط الأحكام، بل قصدهم: أن الأصل في الشرائع أن تكون بطريق الوحي، فيحمل الحكم الذي يصدر من النبي ﷺ على أنه ورد من هذا الطريق حتى يقوم الدليل على أنه صدر عن اجتهاد، وليس في التمسك بهذا الأصل حرمان له من مرتبة علمية من أسمى مراتب الفطنة البشرية والبصيرة الإنسانية، ولا تفضيل لمن أذن لهم في الاجتهاد عليه بهذه المرتبة.

والفطنة البشرية والبصيرة الإنسانية يظهران في نواح كثيرة من نواحي التفكير غير الاجتهاد في أخذ الأحكام الشرعية من طريق القياس، وقد ظهرت رجاحة عقله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذكاء لبه في أساليب دعوته، وسمو حكمته، وحسن تصرفه في سياسة الناس على اختلاف طبقاتهم، وتكاثر مذاهبهم، وتباين مشاربهم، وتفاوت مداركهم، وفي معرفة المنافقين في لحن أقوالهم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[محمد: ٣٠]. ولهجةُ خصوم الحق بين أهل الحق لا يكشف أسرارها، ويتنبه لمراميها إلا ذو بصيرة نافذة.

قال كاتب المقال: «كأني بهؤلاء يرون رسالة الرسول أمراً يتعارض مع بشريته، وقد كان رسول الله ﷺ مع رسالته، وقبل رسالته، بشراً اكتملت فيه جميع معاني البشرية الفاضلة، ولم يشأ الله أن يرسله حتى بلغ أربعين عاماً؛ لتنضج بشريته، وتكمل رجولته، فلا تطغى عليها الرسالة، ولا تسلبها خصائصها، وقد عني القرآن الكريم بأن يؤكد هذا المعنى في كثير من آياته: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٣]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[الكهف: ١١٠]».

لم يقل المنكرون لاجتهاد النبي ﷺ: إنه لا يجتهد؛ لأن الاجتهاد شأن البشر، بل قالوا: إنه في غنى عنه بالوحي، فلو اقتنع هؤلاء بأن الحاجة داعية

إلى أن يجتهد النبي ﷺ، لم يجدوا في صدورهم حرجاً من أن يقولوا باجتهاده، فرميهم بأنهم يرون رسالة الرسول أمراً يتعارض مع بشريته، لا يصيب غرضاً، ولا يجدي في تحقيق هذا البحث العلمي كثيراً ولا قليلاً.

يقول الكاتب: «وقد كان رسول الله ﷺ مع رسالته، وقبل رسالته بشراً»، وكذلك يقول الدكتور زكي مبارك في مقاله المشار إليه آنفاً: «كان محمد إنساناً قبل أن يكون نبياً»، تواردت خواطر الشيخ الكاتب، والدكتور على حشر هذا المعنى في الكلام عن تفكير النبي ﷺ، والقوم ـ كما رأيت ـ لم يقولوا قولاً يمس بشريته الفاضلة بشيء.

يقول كاتب المقال: «ولم يشأ الله أن يرسله حتى بلغ أربعين عاماً؛ لتنضج بشريته، وتكمل رجولته، فلا تطغى عليها الرسالة، ولا تسلبها خصائصها».

ونحن يمكننا أن نفهم أن من حكمة إرساله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في سن الأربعين أن تطول مدة مشاهدة قومه لأحواله قبل الرسالة، حتى إذا عرف بينهم بالصدق والأمانة ونقاء السيرة، كان نظرهم في آيات رسالته أيسر، وقبولهم لدعوته أقرب، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[يونس: ١٦].

ويمكننا أن نفهم أن من حكمة تأخير إرساله إلى بلوغه هذه السن: كمال استعداده لأداء الرسالة عامة، ففي الأربعين تكون النفوس قد أخذت كمالها الخلقي من أطرافه، وبلغت في قوة إدراك الحقائق غاية قصوى.

نستطيع أن نفهم هذا وذاك، ولا نستطيع أن نفهم كيف تطغى الرسالة على البشرية، وتسلبها خصائصها، فهل تطغى الرسالة على البشرية، وتسلبها

الفطنة والألمعية، أو تطغى الرسالة على البشرية، وتسلبها الاستعداد للتخلق بالأخلاق الفاضلة، أو تطغى الرسالة على البشرية وتسلبها العزم والقدرة على القيام بجلائل الأعمال؟!. فهل لحضرة الكاتب أن يقيم لنا شاهداً على أن هذا الطغيان والسلب من طبيعة الرسالة؟!

فنحن نذهب إلى أن سن الأربعين تساعد الرسالة على تأدية مهمتها، وكاتب المقال يذهب إلى أن سن الأربعين تكف طغيان الرسالة على البشرية، وتجعل خصائص البشرية في أمن من هذا الطغيان.

قال كاتب المقال: «ومن زعم أن رسالة النبي ﷺ قد غلبت على بشريته، وقضت على لوازمها السامية، فقد تلاقى في رأيه من قريب أو من بعيد بالذين يقولون: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٤]».

النبي ﷺ بشر رسول، وللبشرية الراقية لوازم، وللرسالة لوازم، والمعروف أن لوازم البشرية الراقية لا يقع بينها وبين لوازم الرسالة تعارض، فإذا قيل: هذا الوصف من لوازم الرسالة، لم يكن منافياً للبشرية الراقية قطعاً، وإذا قيل: هو من لوازم البشرية الراقية، لم يكن منافياً للرسالة البتة؛ فإذا رأى طائفة أن هذه الصفة، أو أن هذا الحال لم يوجد في الرسول، نظرنا في هذا الأمر الذي نفوه عن الرسول، فإن كان من مقتضيات البشرية الراقية في كل حال، قلنا لهم: قد زعمتم أن رسالة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد طغت على بشريته الراقية، وقضت على لوازمها، وإن كان هذا الذي أبوا أن يثبتوه للرسول لا تقتضيه البشرية الراقية في حال، بل يرجع الأمر فيه إلى اقتضاء المصالح، كان مجال النظر هو أن المصلحة تقتضي أن يكون هذا شأناً من شؤون الرسول، أو لا تقتضي.

والاجتهاد في أحكام الشريعة من هذا القبيل؛ إذ لم يكن من مقتضيات البشرية الراقية في كل حال، وإنما هو تفكير خاص تتوسل به أنظار الفقهاء إلى استخراج الأحكام الشرعية عند الحاجة، وليس للرسول من حاجة إليه؛ حيث يتيسر له الوصول إلى الحكم الشرعي من طريق أسمى منه، وهو الوحي، فشتان بين من يقولون: إن الرسول غني بالوحي عن الاجتهاد في تقرير الأحكام الشرعية، وبين أولئك الذين ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٤].

قال كاتب المقال: «إن النبي ﷺ بشر، وفي أسمى مراتب البشرية، وقد اكتسب شخصية الفقيه المجتهد، كما منح شخصية الرسول المبلغ عن الله، وهو أول الفقهاء، كما أنه خاتم الأنبياء، فلينظر إذن فيما ورد منه ﷺ على هذا الأساس الذي يجمع بين الرسول والفقيه».

النبي ﷺ في أسمى مراتب البشرية عقلاً وفطنة، وخلقاً واستقامة، وهذا السمو لا يستلزم أن يكون مجتهداً في أحكام الشريعة؛ فإن الوحي هو الذي شأنه أن يأذن في هذا الاجتهاد، وقد أذن فيه لعلماء الأمة حيث تقوم الحاجة إلى ذلك، ويبقى البحث في أن النبي ﷺ أذن له في الاجتهاد، أو لم يؤذن، فمن يقول: لم يؤذن له فيه، لا يبني قوله على دعوى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يستوف وسائل الاجتهاد؛ من نحو الفهم والعلم، بل يقول: لم يؤذن له فيه؛ لفقدان شرط راعاه الوحي هو: أن تدعو إليه الحاجة، فما كان لمناظر المنكِر أن لاجتهاد الأنبياء في أمور الدين، أن يتحدث في مناظرتهم عن البشرية الراقية، ومراتبها العالية، ولوازمها السامية.

قال كاتب المقال: «اقتضت حكمة الله أن يسوس عباده، ويحقق مصالحهم بنوعين من التشريع: نوع يتولاه بنفسه، وينص فيه على ما يريد،

ويرسل به الوحي إلى نبيه، ونوع آخر يسكت عنه، فلا ينص عليه غيرَ نسيان ولا إهمال، ولكنه رحمة بعباده يكله إلى أصحاب الرأي والنظر؛ لاختلاف المصلحة فيه باختلاف الظروف والأحوال».

ساس الله عباده بنوعين من التشريع: نوع دلت عليه نصوص الكتاب والسنّة بأحد طرق الدلالات الصحيحة المقررة في الأصول، ونوع آخر لم يظهر في النصوص ما يدل عليه، وهذا ما وكله الله إلى أصحاب الرأي والنظر بعد أن رسم له خططاً، ووضع له أصولاً تتراءى للناظرين في كثير من موارد النصوص، فأصحاب الرأي والنظر الذين وكل الله لهم أن يجتهدوا، هم الذين يستطيعون أن يصوغوا الأحكام في صور يتحرون بها ما أراده الشارع من إصلاح شؤون الأفراد والجماعات.

ذكر الكاتب النوع الأول، وهو ما نص عليه الشارع، وأرسل به الوحي، وجعل مقابله ما تختلف فيه المصلحة باختلاف الظروف والأحوال، ومعنى هذا: أن الاجتهاد إنما يجري فيما تختلف فيه المصلحة باختلاف الظروف والأحوال.

والواقع أن الاجتهاد قد يجري في هذا النوع؛ كالاجتهاد في حكم واقعة تندرج تحت قاعدة رعاية العرف، أو قاعدة ارتكاب أخف الضررين، أو قاعدة سد الذرائع؛ فإن العرف قد يتغير، وربَّ شيء يخف ضرره في وقت، ويشتد ضرره في وقت، ومن الأشياء ما يكون ذريعة إلى فساد في وقت، ولا يكون ذريعة إلى فساد في وقت.

وقد يجري الاجتهاد فيما لا تتغير فيه المصلحة؛ كقياس واقعة غير منصوص على حكمها على واقعة نص على حكمها، فحيث كان القياس ينبني

على اتحاد الواقعيتين في علة الحكم، كان حكم الواقعة المقيسة تابعاً لحكم الواقعة المقيس عليها، في دوامه بدوام العلة.

قال كاتب المقال: «وقد قام محمد النبي بحق رسالته، فبلغ النوع الأول كما أمره بتبليغه، وقام محمد الفقيه الأول بحق بشريته، فرسم طريقة الاجتهاد، وعني بالتطبيق العملي عليها، وبأن يعبرها لمن يجيء من بعده من الخلفاء والقضاة والأئمة».

ليست البشرية هي التي أملت على محمد ﷺ أن يجتهد في أحكام شريعة إلهية، وليست البشرية هي التي أرته كيف يرسم طريقة الاجتهاد في هذه الأحكام المقدسة، وأحكامٌ ينبني على قبولها ورفضها المصيرُ إلى الجنة أو النار، لا تُترك للبشرية تتصرف فيها كما ترى، بل الاجتهاد الفقهي هو وليد الرسالة، فالرسالة هي التي أعدت وسائله العلمية، ومنها عرف النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كيف يرسم طريقته العملية.

قال كاتب المقال: (اجتهد، وقاس، وحكم، وأفتى بالحاجة وتقدير المصلحة، وساس الأمة بما أراده الله، كما هو الشأن في المجتهدين والحكام».

الذين يقولون: إن النبي ﷺ قد يجتهد في أحكام الشريعة، يفرقون بين اجتهاده، واجتهاد غيره من المجتهدين والحكام؛ بأن غيره يجتهد في تفهم النصوص، ودفع ما يقع بين الأدلة من التعارض، ويجتهد في قياس بعض الحوادث على أمثالها المنصوص على أحكامها، أما اجتهاد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإنما هو قياس بعض الحوادث على نظائرها، ذلك أن النصوص قد وكِل إليه بيانها، فلا تخفى عليه منها خافية، وتعارضُ الأدلة

إنما يقع في أذهان قد يفوتها فهمُ النصوص حق فهمها، أو يفوتها أن تضع كل دليل موضعه، أو تهتدي إلى معرفة الناسخ من المنسوخ، وذلك ما يصان عنه اجتهاد مَن جعله الله مهبط وحيه، ومطلع شريعته.

ويفارق اجتهاده اجتهاد غيره من المجتهدين والحكام: أن اجتهاد غيره محتمل للخطأ، فلمجتهد آخر أن يعيد النظر فيه، ويعمل على ما أداه إليه اجتهاده، أما اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فهو بمنزلة الوحي يجب الوقوف عنده، والإيمان بأنه حكم مَن لا معقب لحكمه.

وهذا ما لا يختلف فيه المسلمون، وإذا قال الفقهاء: لا تجوز مخالفة اجتهاد الإمام الأعظم أو نائبه، وهم يعنون الإمام أو نائبه البالغَ رتبة الاجتهاد بحق، فإنهم لم يقولوه على معنى أن اجتهاده عين الصواب، وإنما قالوه لمعنى آخر، هو انتظام أمر السياسة، وإبقاء الأمن في قرار، ولو ظهر لأهل العلم أن في اجتهاده خطأ، لكان لهم أن يحاوروه، ويرشدوه إلى ما هو الصواب؛ لعله يأخذ به في إصلاح ما صدر منه، أو يأخذ به فيما يفصل فيه من بعد، فلا نجوز مخالفة اجتهاد رسول الله ﷺ في حال؛ لأن اجتهاده عين الحق، ولا نجوز مخالفة اجتهاد الإمام الأعظم؛ حفظاً لنظام السياسة، واتقاء للفتنة.

قال الإمام الغزالي في «المستصفى»: «قام الدليل من الإجماع على تحريم مخالفة اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ كما دل على تحريم مخالفة الأمة كافة، وكما دل على تحريم مخالفة اجتهاد الإمام الأعظم والحاكم».

قال كاتب المقال: «اجتهد في الحروب، وفي الأمور الدنيوية، واجتهد في الأحكام الشرعية».

الاجتهاد لغة: استنفاد الجهد في طلب الشيء المرغوب إدراكه، حيث

يرجى وجوده فيه، أو حيث يوقن بوجوده فيه[1].

وتجري كلمة الاجتهاد على ألسنة الأصوليين، ويقولون: هذا اجتهاد في أمر الحرب، وهذا اجتهاد في أمر دنيوي، وهذا اجتهاد في حكم شرعي.

أما الاجتهاد في الحروب، فيراد منه: النظر في نحو منازل الجيوش، أو الطريق التي يسار منها إلى العدو، أو القبيلة التي يبتدأ بقتالها، إلى نحو هذا من التصرفات التي يدرك خيرها وشرها المتدربون على قيادة الجيوش.

وأما الاجتهاد في الأمور الدنيوية، فيتعلق بأفعال أذن فيها الشارع على وجه الإباحة، وفوض أمرها إلى الإنسان؛ ليأخذ فيها بما ترجح عنده من صلاحها أو فسادها؛ كفنون الزراعة والصناعة والتجارة، إلى نحو هذا من الأمور التي تعرف مصالحها ومفاسدها بالمشاهدات والتجارب.

وأما الاجتهاد في الأحكام الشرعية، فهو بذل الوسع في تحصيل حكم حادثة تعرض؛ من نحو: الوجوب، أو الحرمة، أو الاباحة، أو الصحة، أو البطلان، والرجوع في تحصيل أحد هذه الأحكام إلى أصول الشريعة، وتحري مقاصدها في الإصلاح.

وقد يطلق الاجتهاد على إعمال النظر في تعرف ما ينطبق عليه الحكم الشرعي، وهذا ما يسميه الأصوليون: «تحقيق المناط»، ومثاله: أن الشارع قضى بأن على المدعي البينة، وعلى المدعى عليه اليمين، وقد تطرح بين يدي القاضي قضية يشتبه فيها الأمر، فلا يدري لأول ما تطرح: من المدعي، ومن المدعى عليه؛ إذ قد يكون المطلوب هو المدعي، والطالب هو المدعى

(١) «الأحكام» لابن حزم.

عليه، فيُعمل القاضي فكره في حالهما حتى يدرك أن هذا مدَّعٍ، وهذا مدعى عليه، وإن شئت إيضاح هذا، فالبالغ سنَّ الرشد يرفع شكوى إلى القاضي بأن الوصي لم يدفع إليه ماله، فالوصي هنا هو الذي يدعي أنه دفع المال، فيطالَب بالبينة، والبالغ سن الرشد مدعى عليه بأنه تسلَّم ماله، فهو المطالَب باليمين.

واجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أمور الحرب، وأمور الدنيا ـ بالمعنى الذي بيناه، وسقنا له الأمثال ـ ليس موضع النزاع بين أهل العلم.

وأما اجتهاده في الأحكام الشرعية، فذلك موضع اختلاف الأنظار، وهو الذي يشتد فيه النضال، وتقوم فيه الأدلة وتقعد، ومنشأ هذا الخلاف: أن النبي ﷺ لم يقل عند تقرير حكم شرعي: هذا قلته عن وحي، وهذا قلته عن اجتهاد. وكذلك الصحابة رضي الله عنهم عندما يروون أحاديث الأحكام لا يقولون: هذا صدر عن وحي، وهذا صدر عن اجتهاد، وإنما وردت آيات فيها عتاب للنبي ﷺ عن بعض تصرفاته، وأحاديث فيها أحكام يقرنها ـ عليه الصلاة والسلام ـ بضروب من الأقيسة، وأحاديث قد يتبادر إلى بعض الأذهان أنه انتقل فيها من حكم إلى آخر دون أن يكون بين الحكمين مهلة، وأحاديث قال فيها: «إنما قلته عن ظن»، وأذن للناس في عدم العمل بها من بعد.

فمن ألقى نظره على ناحية من ظواهر هذه الآيات والأحاديث، قال: إن النبي ﷺ قد يجتهد في الأحكام الشرعية، ومن رأى أن النبي ﷺ في غنى عن الاجتهاد بما يلقيه الله عليه من الوحي قال: إنه لا يجتهد، وأخذ يفسر تلك الآيات والأحاديث على وجوه تخرجها عن أن تكون اجتهاداً في أحكام دينية.

وقد صب كاتب المقال همته في الحديث عن اجتهاد النبي ﷺ، وأشار إلى جملة من الأحاديث والآيات التي يتشبث بها من يذهبون إلى أنه كان يجتهد، ونحن ننقل عبارات الكاتب، وننظر في وجوه الاستدلال بما استدل به، ونقرر ما ينبذه المنطق مما يتقبله.

ابتدأ كاتب المقال بثلاثة أحاديث اشتملت على أحكام مقرونة بضرب من التمثيل، فقال:

(فأفتى المرأة التي سألته عن حجّها لأبيها بقوله: «أرأيتِ لو كان على أبيك دَين، فقضيته، أما كان يقبل منك؟»، وأفتى السائل عن قُبلة الصائم بقوله: «أرأيت لو تمضمضت بماء، ثم مججته، أكان يضرك؟»، وأفتى السائل عمن لامسَ امرأته أيكتب له أجر وهو يقضي شهوته؟ فقال: «أرأيت لو وضعها في حرام، أيكتب عليه وزر؟»).

الذي يأتي بهذه الأحاديث مستشهداً بها على أن النبي ﷺ كان يجتهد، يريد: أنه أجاب السائل، وذكر مع الحكم القياس الذي هو أحد الأدلة الشرعية، وهذا شأن المجتهد.

ومن يقولون: إن الأحكام الشرعية لا تصدر إلا عن وحي، يذهبون في فهم هذه الأحاديث إلى أن ما ورد فيها من التمثيل إنما أتى به النبي ﷺ لتقريب الحكم وتثبيته في النفوس، وتقريب الحكم وتثبيته بهذا الطريق معروف في نصوص الشريعة؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: ١٢]، وكما جاء في قوله ﷺ حين سئل عن رؤية الله يوم القيامة: «هل تضامون في رؤية الشمس صحواً في الظهيرة ليس دونها سحاب؟»، قالوا: لا، فقال: «هل تضامون

في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس دونه سحاب؟»، قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك»[1]. وسألته ـ عليه الصلاة والسلام ـ امرأة، فقالت: إن لي ضرة، فهل عليَّ جُناح إن تشبَّعْت من زوجي غيرَ الذي يعطيني؟ فقال: «المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور».

فمن كمال الدعوة وحسن أسلوبها أن تقرَّب فيها الأحكام من النفوس، ويزاح فيها ما يحوم بالقلوب من الشبه، وتمثيلُ المعقول بالمحسوس، والمجهول بالمعلوم كثيراً ما يسلك لهذا الغرض النبيل، وأنظروا إلى قوله ﷺ حين سئل: كيف يحشر الكافر على وجهه؟: «أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجليه، قادراً على أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟».

ثم أشار كاتب المقال إلى أربعة أحاديث مستشهداً بها على أن النبي ﷺ نزل فيها على اجتهاد غيره، فقال: «ونزل على اجتهاد غيره، فاستثنى الإذخر[2] في تحريم شجر مكة حين استثناه العباس، ودعا للمقصرين كما دعا للمحلقين، وأذن في غسل القدور التي طبخت فيها لحوم الحمر الأهلية بعد أن أمر بكسرها، ونزل المنزل الذي أشار عليه أصحابه بأن ينزل فيه».

نزولُ النبي ﷺ على اجتهاد غيره: أن يجتهد في حكم واقعة، ويقرر حكمها، ثم يجتهد غيره فيها، فيرى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن اجتهاده خطأ، وأن اجتهاد غيره هو المصيب، ونحن نحدثك عن هذه الأحاديث التي أومأ إليها الكاتب، ونخرج منها على أن ليس في شيء منها ما ينبئ أنه نزل على

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) الإذخر ـ بكسر همزة الألف ـ: الحشيش الأخضر، وحشيش طيب الرائحة ـ «القاموس».

اجتهاد غيره في تقرير حكم شرعي.

أما حديث «إلا الإذخر»، فهو أن النبي ﷺ قال في شأن البلد الحرام ـ أعني: مكة ـ: «لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه»، فقال العباس: إلا الإذخر؛ فإنه لقَيْنهم وبيوتهم، قال: «إلا الإذخر».

وليس من المعقول أن يكون العباس قد فهم أن النبي ﷺ اجتهد، فرأى تحريم شجر البلد الأمين على سبيل العموم الشامل للإذخر، وقرر حكماً على خلاف ما رأى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقال مفصحاً عن اجتهاده: «إلا الإذخر»، ويكون النبي ـ صلوات الله عليه ـ قد ظهر له بعدُ أن اجتهاد العباس هو الصواب، فنزل عليه.

والموافق لحال الصحابة، وإجلالهم لمقام الرسالة: أن يكون العباس قاصداً بقوله: «إلا الإذخر» تذكيرَ النبي ﷺ بوجه الحاجة إلى الإذخر؛ لعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستثنيه من ذلك العموم على وجه الرخصة، ويسمى مثل هذا التذكير بالتلقين، وتلقين المخاطب الأدنى يأتي لعرضه على المتكلم الأعلى رغبته، أو حاجةَ قومه إلى إعطاء شيء حكم المعطوف عليه إن كان التلقين بالعطف، أو إلى استثناء شيء من حكم المستثنى منه إن كان التلقين بالاستثناء، وقد قرر الأصوليون أن التلقين ورد بالواو وغيرها من الحروف، وبالاستثناء، وساقوا هذا الحديث شاهداً على التلقين بالاستثناء.

فتلقين ابن عباس له ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطريق الاستثناء إنما هو تذكير بوجه الحاجة، راجياً أن تكون هذه الحاجة مقتضية للرخصة، وعرضُ الصحابة أمثالَ هذه الحاجات على النبي ﷺ مبني على أصل عرفوه في أصول

الشريعة، وهو «المشقة تجلب التيسير»، فهم يرجون أن تكون الواقعة ذات الحاجة التي عرضوها على وجه التلقين مما يصح أن تندرج تحت هذا الأصل.

ولا يصح أن يعد عرض الحاجات على الشارع رجاء التخفيف اجتهاداً في تقرير حكم شرعي، حتى إذا جاء حكم الشارع على وفق الحاجة، قيل: إن الشارع نزل على اجتهاد من عرض الحاجة عليه، وهذا موسى ـ عليه السلام ـ أخبره النبي ﷺ ليلة الإسراء بأن الله فرض على الأمة خمسين صلاة، فقال له: «فارجع إلى ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك»، وما زال النبي ﷺ يطلب من الله التخفيف إلى أن صارت خمساً.

وقول العباس: «إلا الإذخر؛ فإنه لقينهم وبيوتهم» كقول موسى ـ عليه السلام ـ: «فإن أمتك لا تطيق ذلك»، فلنفهم قصة العباس على الوجه الذي فهمنا عليه قصة موسى ـ عليه السلام ـ.

وإذا كان العباس قد قال: «إلا الإذخر» على وجه التلقين بالحاجة، ورجاء الرخصة، فإن قول النبي ﷺ بعد: «إلا الإذخر» تخصيص للعام في قوله: «ولا يختلى خلاه»، وهو محتمل لأن يكون عن وحي خاص، وليس من شرط الوحي أن يأتي بعد أن تمضي على الطلب مدة، ومحتمل لأن يكون عن اجتهاد بعد أن عرض عليه العباس وجه الحاجة إلى الإذخر. وورود الوحي باستثناء بعض أفراد العام عندما يعرض سبب للاستثناء، له نظير، ففي «صحيح البخاري» قال زيد بن ثابت: إن النبي ﷺ أملى عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون»، فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها عليَّ، قال: يا رسول الله! والله! لو أستطيع الجهاد معك، لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾[النساء: ٩٥].

وفي «صحيح البخاري»: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[الفرقان: ٦٨] الآية، قال مشركو أهل مكة: فقد قتلنا النفس التي حرم الله، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وقد أتينا الفواحش، فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾[الفرقان: ٧٠] الآية.

وأما حديث دعائه للمقصرين، فهو أن الإحلال من الحج يكون بتقصير الشعر، وبالتحليق، ولكن التحليق أفضل، وقد دعا النبي ﷺ للمحلقين؛ تنبيهاً على أن التحليق أفضل، فقال: «اللهم اغفر للمحلِّقين»، فقالوا: وللمقصرين، فقال: «اللهم اغفر للمحلقين»، قالوا: وللمقصرين، فقال: «وللمقصرين».

وليس في الحديث سوى أن النبي ﷺ دعا للمحلقين بالمغفرة أو الرحمة كما ورد في بعض الروايات، فقيل له: وللمقصرين على وجه التذكير بهم؛ ليطلب لهم المغفرة أو الرحمة كما طلب للمحلقين، فأعاد الدعاء للمحلقين مرتين، ثم قال: «وللمقصرين»، وليس في الحديث ما يدل على أن النبي ﷺ أراد أن يقتصر في الدعاء على المحلقين، ويترك المقصرين؛ لأنه لم يرهم يستحقون طلب المغفرة حتى اجتهد هؤلاء الذين قالوا له: «وللمقصرين»، فرأوهم يستحقون طلب المغفرة، فنزل على اجتهادهم، فقال: «وللمقصرين»، فقولهم: «وللمقصرين» لا يتجاوز أن يكون تلقيناً بطريق حرف العطف يراد به طلب الدعاء لهم، كما أن قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[البقرة: ١٢٤] بعد قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة: ١٢٤] لا يتجاوز أن يراد به: دعاء الله بأن يجعل من ذريته أئمة الناس، وكما أنك لا تسمي قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤] نقضاً لا جتهاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فلا تسمي قول النبي ﷺ: «وللمقصرين» نزولاً على اجتهاد أولئك القوم.

ويدلكم على أن الصحابة إذا استعملوا حرف التلقين بعد نطق النبي ﷺ بحكم شرعي، فإنما يريدون طلب الرخصة: أنهم يستعملونه بعد نطقه بوعد، وإنما يريدون تذكيره بما حرفه التلقين راجين أن يخبرهم بأن له حظاً من ذلك الوعد.

روى أبو سعيد: أن النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً، فوعظهن، فقال: «أيما امراة مات لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار». قالت امرأة: واثنان، قال: «واثنان»، وليس لأحد أن يدعي أن المرأة اجتهدت، وقررت أن الاثنين من الولد يكونان حجاباً من النار، فنزل النبي ﷺ على اجتهادها، فقال: «واثنان»، وإنما هي المرأة رغبت في أن يكون هذا الوعيد شاملاً لمن مات له والدان، فكان من رحمة الله أن أجاب رغبتها على لسان نبيه، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «واثنان».

وأما أحاديث القدور التي طبخت فيها لحوم الحمر الأهلية، فهو أن النبي ﷺ قال في غزوة خيبر: «أكفئوا القدور، واكسروها»، فقالوا: يا رسول الله! أو نغسلها؟ فقال: «أو ذاك»، فكان حكم الشارع في القدور هو الكسر، ولما أشار القوم بقولهم، أو نغسلها، إلى أنهم في حاجة إلى تلك القدور، وهذه الحاجة بلغت أن اقتضت الرخصة في الاكتفاء بغسلها، أجابهم النبي ﷺ بقوله: «أو ذاك».

فقول القوم: «أو نغسلها» تذكير منهم بالحاجة إلى تلك القدور؛ رجاء أن يرخص لهم في غسلها بدل كسرها، وعلى فرض أن يكون كل من الحكمين: حكم العزيمة، وحكم الرخصة، صادراً عن اجتهاد، فإن الصيغة التي صدرت من القوم لا تتجاوز أن تكون تذكيراً بوجه الحاجة، وطلباً للرخصة، والنبي ﷺ

هو الذي وقع منه الاجتهاد في تفصيل الحكم أولاً وآخراً.

وللشارع في الأمر بالكسر على وجه العزيمة، ثم الترخيص في الغسل، حِكَم يبدو لنا منها: أن الرخصة مظهر من مظاهر الرحمة، والعزيمة تبقي في النفوس ذكرى اهتمام الشارع باجتناب تلك اللحوم التي أصبحت رجساً، وذلك ما يدعو إلى شدة الابتعاد منها، والمبالغة في غسل ما طبخت فيه من القدور.

وهاهنا حكمة عامة في كل رخضة جاءت عزيمة، هي: تأسيس قاعدة عظيمة من أصول التشريع هي: أن المشقة تجلب التيسير، فإن الفقهاء إنما انتزعوها وقرروها من أمثال هذا الحديث.

ويدلكم على أن الشارع يراعي حاجات القوم في دائرة الحكمة: أنه قد ينهى القوم عن الشيء، فيعرضون عليه حاجتهم إلى استعمال ما نهى عنه في بعض الأحوال، فيريهم أن ليس هذا موضع الرخصة، ويردهم إلى الحظر بإطلاق، ومن أمثلة هذا: أنه ﷺ قال: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»، فقيل: يا رسول الله! أرأيت شحوم الميتة؛ فإنه يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ قال: «لا، هو حرام».

وأما حديث نزوله المنزل الذي أشار عليه أصحابه بأن ينزل فيه، فهو ما يروى من أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما نزل في غزوة بدر بأدنى مياه بدر، قال له الحباب بن المنذر: أهذا منزل أنزلك الله، ليس لنا أن نتقدمه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «لا، بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: ليس بمنزل، انهض بالناس حتى نأتي أدنى منزل من القوم.

هذه القصة حكاها ابن إسحاق في «السيرة» على هذا الوجه، وحكاها

ابن القيم في «زاد المعاد» على وجه آخر: هو أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سار حتى نزل عشاء أدنى مياه بدر، فقال: «أشيروا علي في المنزل»، فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله! أنا عالم بها وبقُلُبها، إن رأيت أن نسير إلى قُلُب قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فننزل عليها، ونسبق القوم إليها، ونغوِّر ما سواها من المياه.

وروى ابن سعد: أن الوحي نزل على وفق ما أشار به الحباب.

فلنصرف النظر عن البحث في سند هذه القصة التي قال ابن إسحاق في سندها: فحدثت عن رجال من بني سلمة: أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر ابن الجموح قال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل منزلاً أنزلكه الله... إلخ الرواية، ولنصرف النظر عن الوجه الذي أوردها عليه ابن القيم من أن النبي ﷺ قال: «أشيروا علي في المنزل»، ولنصرف النظر عن رواية ابن سعد من أن نزول النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأدنى منازل القوم كان اتباعاً للوحي، ولنأخذ بالوجه الذي أوردها عليه ابن إسحاق من أن النبي ﷺ بعد أن نزل بأدنى مياه بدر أشار عليه الحباب بأن النزول بأدنى منازل القوم هو الذي تقتضيه سياسة الحرب، ولكنا نقول: ليس في هذا الوجه أن النبي ﷺ نزل على اجتهاد غيره في تقرير حكم شرعي، وإنما هو أمر اختيار منازل الجيش، وقد أريناك قبل أن هذا من أمور الحرب التي ترجع إلى رئيس الجيش، ومن يثق بآرائهم من أعوانه في الحرب.

*** نزول الوحي بخلاف اجتهاده:**

قال كاتب المقال: «وكان يجتهد، ثم ينزل الوحي بخلاف اجتهاده، وقد يسكت عنه، فلا يعرض له بتصويب ولا تخطئه».

يقف القراء أمام هذه العبارة متسائلين: لماذا قال الكاتب: «وقد يسكت عنه، فلا يعرض له بتصويب ولا تخطئة»، فدل على أن الوحي يسكت عنه في بعض الأوقات، ولم يدل على حال النبي ﷺ عند هذا السكوت: أهو الإصابة في الاجتهاد أو الخطأ؟.

فإن قال الكاتب: أردت أن الوحي يسكت عنه في حال الإصابة، قلنا: حال الإصابة ليست في حاجة إلى أن يقال: إن الوحي يسكت عنها، ثم ما الذي دعا عضو جماعة كبار العلماء، وهو يتكلم باللغة العربية أن يعبر عن سكوت الوحي حال إصابة الاجتهاد بقوله: «وقد يسكت عنه الوحي، فلا يتعرض له بتصويب ولا تخطئة؟».

وإن قال: أردت أن الوحي قد يسكت عنه في حال الخطأ، قلنا: غير معقول أن يخطئ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويسكت عنه الوحي، وكيف يسكت عنه، وقد أمر باتباعه؟!.

والذين يقولون: إن النبي ﷺ قد يجتهد في الأحكام الشرعية فريقان: فريق يقولون: يجتهد، ولا يخطئ، ولا يكون اجتهاده إلا مصيباً لكبد الحقيقة، وفريق يقولون: يجتهد، وقد يخطئ ولكنه لايقَر على الخطأ، بل ينبهه الله لذلك، ولم يقل أحد: إنه يجتهد، وقد يخطئ، ويسكت عنه الوحي، بل عدم إقراره على الخطأ ـ لو صدر منه ـ مجمَع عليه.

قال الشهاب الخفاجي في «شرح الشفا» بعد أن حكى مذهب القائلين: إنه قد يخطئ، ولكنه لايقر: «وعدم الإقرار بالإجماع لوجوب اتباعه المقتضي لعصمته».

وتعرض ابن حجر لمذهب القائلين باجتهاده، واختلاف هؤلاء في أنه

يجوز عليه الخطأ، أو لا يجوز، ثم قال: «وقد اتفق الفريقان على أنه لو أخطأ في اجتهاده، لم يقر على الخطأ».

ثم أشار كاتب المقال إلى ثلاث آيات يستشهد بها على أن النبي ﷺ يجتهد، ثم ينزل الوحي بخلاف اجتهاده، فقال: «عاتبه الله على الإذن للمنافقين، وعلى أخذ الفداء من أسرى بدر، وعلى إعراضه عن الأعمى، فكان ذلك إيذاناً من الله بتخطئته في اجتهاده».

ونحن نحدثك عن هذه الآيات التي أشار إليها الكاتب، والوقائع التي نزلت الآيات في شأنها، ليتضح لك أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يجتهد في تقرير حكم شرعي، وجاء الوحي بخلاف اجتهاده، وإنما هي أفعال فعلها النبي ﷺ يظن أنها الأَولى، فجاء الوحي ببيان أنها خلاف الأولى، وفي هذه الوقائع والآيات حكمة أطلعنا الله على شيء منها هو: أن العصمة لله وحده، وأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ معصومون من المعاصي كبائرها وصغائرها، وأنهم بالغون في الكمال النفسي والعملي أقصى غاية، ولكنه قد يقع منهم ما شأنه أن يبعد النفوس مما وقعت فيه بعض الطوائف من اعتقاد إلهيتهم، وأنهم مظهر من مظاهر الإله الحق، وما صدر من النبي ﷺ في الوقائع الثلاث يصح حمله على هذا الوجه من الحكمة، وهو وجه ـ فيما أحسب ـ جدير بالقبول، والمجتهد يقرر أصولاً يرجع في تقرير كل أصل منها إلى مآخذ من الأدلة السمعية؛ نحو: القياس، وسد الذرائع، ومراعاة العرف، ومراعاة المصالح المرسلة، ويستنبط الأحكام من الأصول، وتسمى هذه الأحكام بالفروع، ويطبق الحكم على الحادثة الجزئية حين تعرض.

وقد يقع للمجتهد الخطأ في تقرير أصل، أو استنباط حكم، أو تطبيق

حكم على واقعة، والخطأ في تطبيق الحكم على واقعة جزئية أهون وأخف من الخطأ في استنباط حكم أو تقرير أصل، ونبني على هذا: أن الوقائع التي نسب إلى النبي ﷺ أنه اجتهد فيها وأخطأ، ليس في واحد منها خطأ في تقرير أصل، ولا استنباط حكم عام، إنما هي واقعة تعرض، فيطبق عليها حكم غير الحكم الذي هو أولى بها.

أما واقعة إذنه للمنافقين في التخلف، فهو أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُعطي الخيار في أن يأذن لمن شاء في التخلف، قال تعالى: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾[النور: ٦٢]، ومعنى هذا الخيار: أن يأذن لمن يبدي عذراً صحيحاً، أو يبدو له أن ليس في التحاقه بالجيش مصلحة، ومن هذا القبيل إذنه للمنافقين في التخلف؛ أخذاً بالظاهر من أعذارهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن خروجهم في جيش المسلمين مفسدة، قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[التوبة: ٤٧]، فالله لم يعاتبه على نفس الإذن للمنافقين، وإنما عاتبه على أنه أذن لهم في التخلف عندما اعتذروا، والأَولى تأخير الإذن لهم ريثما يتبين من كان له عذر حقيقي ممن كان اعتذاره غير صادق، ففي ظهور كذبهم في الاعتذار افتضاح أمرهم، وقطع لهم عن أن يتحدثوا فيما بينهم، أو يناجوا شياطينهم بأنهم استطاعوا أن يخادعوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويرضوه ببهرج أقوالهم، وقد أومأ إلى موضع العتاب: قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[التوبة: ٤٣].

وأما واقعة بدر، فمحمولة على أن النبي ﷺ كان مخيراً في الأسرى بين الفداء والقتل، فطرح مسألة أسرى بدر على بساط الشورى؛ ليتبين له

من آراء أصحابه ما هو الأقرب إلى مصلحة هذه الحرب: أهو الفداء، أم القتل؟ فرأى بعضهم القتل، وأبدى لرأيه وجهاً، ورأى بعضهم الفداء، وأبدى لرأيه وجهاً، وبدا للنبي ﷺ أن الفداء أرجح، فأقره، وأخذ به، ونزل عقب هذا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٧].

فالنبي ﷺ لم يستشر أصحابه في تقرير حكم شرعي، وإنما يكون استشارهم في تقرير حكم شرعي لو استطلع آراءهم في حكم أسرى الحرب، وهو إنما استشارهم في أسرى هذه الواقعة؛ ليستخلص من بين آرائهم ما هو الأرجح من الأمرين اللذين خيره الله فيهما، وتعيين أحد أمور جائزة له ﷺ لا يعد استنباطاً لحكم شرعي مجهول.

فالآية الكريمة وردت للتنبيه على أن الأَولى هو القتل، والعتاب فيها لم يوجه إلى النبي ﷺ خاصة؛ كما ورد في آية: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[التوبة: ٤٣]، بل ورد في أسلوب خطاب الجمع، فقال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ﴾، وأساليب المخاطبات العربية تسيغ أن تكون هذه الكلمة موجهة إلى طائفة ممن أشاروا بالفداء، وقد خطر في نفوسهم أن ينالهم شيء منه ينتفعون به في شؤونهم الخاصة، وليس من المعقول أن يكون هذا الخاطر قد وقع في نفس النبي ﷺ، أو في نفس مثل أبي بكر رضي الله عنه، فالنبي ﷺ، أو أبو بكر إذا رأى أن الفداء أصلح إنما يريد من ذلك الاستعانة به في أمور الدين، ومن البعيد أن يسمى صاحب هذه الإرادة مريداً للدنيا.

وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٨] لا يدل على أن أخذهم الفداء مخالفة تستحق العذاب

العظيم، ذلك أن استحقاق العذاب لا يتحقق إلا عند توافر أسبابه، وانتفاء موانعه، وقد دل قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾[الأنفال: ٦٨] على أن أسبابه لم تتحقق؛ إذ يفسر الكتاب السابق بأنه تعالى لا يعاقب على أمر إلا بعد أن يتقدمه نهي، والقوم لم يتلقوا قبل هذه الواقعة نهياً، وقصارى ما تدل عليه الآية: أن أخذ الفداء في هذه الواقعة بالغ في مخالفة ما هو الأولى إلى درجة ما لم يمنع من العقوبة عليه إلا عدم تقدم النهي عنه.

وأما واقعة عتابه على إعراضه عن الأعمى، فهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[عبس: ١ ـ ٢].

والآية الكريمة تضمنت عتابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إعراضه عن ابن أم مكتوم، ولم تدل قط على أنه أخطأ في تقرير حكم شرعي؛ إذ الحكم الشرعي في مثل هذا مقرر من قبل، وهو أن لقاء الناس بطلاقة وجه، والإقبال على من يسائل، موكولان له ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يأخذ بهما حسب ما تقتضيه الحال، ولكنه ﷺ كان يخاطب وجهاء مشركي قريش، وهو يرجو أن يجيبوا دعوته، وبينما هو مجد في دعوته، أخذ ابن أم مكتوم يجاذبه الحديث، ويسائله التعليم، فكان من رسول الله ﷺ أن أعرض عنه، وكره منه أن يقطع مواصلته الدعوة لأولئك المشركين، حتى بدا أثر الكراهة في وجهه، فعتابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان على أمر فعله ابتغاء الخير، وحرصاً على انتشار الدعوة، ولكن الله تعالى أراد أن يريه أن إقباله على نفس مستقيمة على الطريقة، حريصةٍ على أن تتفقه في دين الله، خيرٌ من إقباله على تلك النفوس الطافحة بالشرك، المصرة على باطلها، وأراد الله أن يذكره بهذا العتاب: أن واجبه دعوة أهل الكفر إلى الإسلام، وليس عليه أن يدخلوا فيه،

حتى لا يبلغ في دعوتهم أن يشتغل بها عن مجاملة ضعفاء المسلمين، وحفظ قلوبهم من أن تعبث بها أصابع الشيطان.

ومن حكمة هذه الآية: الدلالة على أن الخطأ في الاجتهاد معفو عنه.

*** رجوعه عن اجتهاد باجتهاد:**

قال كاتب المقال: (ورجع هو عن اجتهاد باجتهاد بمجرد النظر والتجربة، فقال: «هممت أن أنهى عن الغِيلة، فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، فلا يضر أولادهم شيئاً»، وقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لما سقت الهدي»).

أورد الكاتب حديثين مستشهداً بهما على أن النبي ﷺ يرجع عن اجتهاد باجتهاد.

أما حديث الغيلة، فقد ورد في الصحيح على نحو ما ذكره الكاتب، غير أنه فسر الغيلة بإرضاع المرأة ولدها وهي حامل، وهو تفسير ابن السِّكِّيت، أما الإمام مالك، فقد فسرها بوطء المرأة وهي مرضع، وتابع مالكاً على هذا التفسير الأصمعيُّ وغيره من أهل اللغة، ومالك أدرى بتفسير الحديث من ابن السكيت، ولا سيما تفسيراً وافقه عليه علماء اللغة، ويؤيده ما جاء في الصحيح: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني أعزل عن امرأتي، فقال: «لم تفعل ذلك؟»، فقال: إني أشفق على ولدها، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لو كان ذلك ضاراً، ضر فارس والروم[1]». ومما يزيدنا ثقة بضعف حمل الغيلة في هذا الحديث على إرضاع المرأة وهي حامل: أن الأطباء ما زالوا يقولون:

---

(١) «صحيح مسلم».

إن لبن المرأة يتغير أيام الحمل تغيراً يؤثر في صحة الرضيع، أما وطء المرأة وهي مرضع، فقد سألنا عنه بعض الأطباء في هذا العصر، فكانوا يجيبون بأنهم لا يعرفون لضرره وجهاً، وحملُ كلام رسول الله ﷺ على معنى لا شبهة فيه، أرجحُ من حمله على معنى تحوم عليه شبهة.

عرضت واقعة الغيلة للنبي ﷺ، ولم ينزل فيها وحي خاص، ولكن أمامه قواعد شرعية، منها: قاعدة: «الضرر يزال»، والشأن في تقرير حكم هذه الواقعة الرجوع إلى ما يقوله أهل التجارب من نحو الأطباء؛ لأن الضرر في مثلها لا يدرك بقوة الفكر ووفور العقل، وكان شائعاً عند العرب أن في الغيلة ضرراً على الرضيع، ولهذا جرت عادة المستطيعين منهم أن يتخذوا لأولادهم مراضع، وسبق إلى ظن النبي ﷺ أن ما شاع عند العرب من ضرر الغيلة قد يكون واقعاً، وبدا له أن ينهى عنها؛ إشفاقاً على الرضعاء، ثم نظر ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أمتين من غير العرب، وهما الفرس والروم يصنعون الغيلة، ولا تضر أولادهم؛ إذ لو ظهر منها ضرر، لتنبه له أطباؤهم، وعرفه أهل التجارب منهم، وشاع أمره فيما بينهم، وهذا ما عدل بالنبي ﷺ عن النهي عنها إلى العود بها إلى أصل الإباحة، وقد دل ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أنه لم يتكلم في الغيلة عن وحي، وإنما تكلم فيها على رعاية المضار والمصالح التي يؤخذ فيها بأقوال أهل التجارب؛ إذ قال: «ثم ذكرت أو نظرت أن فارس والروم يغيلون أولادهم، فلا يضر أولادهم شيئاً».

وقد أريناك أن النبي ﷺ قد يفعل شيئاً يظنه الأَولى، ثم يتبين له أنه خلاف الأَولى، وقد يقول قولاً يبنيه على ظن، ثم يتبين له أن الواقع على خلاف ما ظنه، ووقوع أشياء معدودة من هذا النوع لا تمس الرسالة بشيء، فإنها ـ على

قلتها ـ معروفة عند علماء الشريعة، ولا يبنون عليها شيئاً أكثر من أنها تزيد الناس تذكرة ببشرية الرسول، وتحميهم من أن يتجاوزوا به مقام الرسالة إلى مقام الربوبية.

وإذا استدل بها بعضهم على أنه يجتهد في تقرير الأحكام، فقد أريناك أن القائلين باجتهاده مجمعون على أن اجتهاده هو والوحي على سواء.

وأما حديث: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت»، فأصله أن النبي ﷺ أحرم بحج، أو بحج وعمرة، وساق الهدي، وأصحابه أحرموا كذلك، ولم يسوقوا هدايا، فلما قدموا مكة، وطافوا بالبيت، وسعوا بين الصفا والمروة، أمر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ الصحابة أن يحلوا من إحرامهم بعمل العمرة، وقال لهم: أقيموا حلالاً، حتى إذا كان يوم التروية، فأهلّوا بالحج، ولكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقي محرماً، وقال لهم: «فلولا أني سقت الهدي، لفعلت مثل الذي أمرتكم، ولكن لا يحل مني حرام حتى يبلغ الهدي محله».

وشق على الصحابة أن يحلوا وهو محرم، وترددوا في الإحلال، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ تطييباً لخواطرهم: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لما سقت الهدي».

أورد كاتب المقال هذا الحديث شاهداً على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرجع عن اجتهاده باجتهاد، ولم يبين ما هو الاجتهاد الذي رجع عنه، وليس في الحديث ما يدعو إلى فهمه على هذا المعنى، ذلك أنه ﷺ كان مخيراً بين أن يسوق الهدي، وأن لا يسوق، فسوقه الهدي كان من قبيل الأخذ بأحد أمرين جائزين، واختيار أحد أمرين جائزين لا يعد اجتهاداً في تقرير حكم شرعي، فقد يفعله من لم يبلغ رتبة الاجتهاد في الأحكام الشرعية، ولهذا نرى المنكرين

لاجتهاد النبي ﷺ في الأحكام الشرعية كابن حزم يسلمون أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد يختار أحد وجهين أجازهما الشارع، ويقولون: لا مانع من أن يختار غير الأولى منهما، ولكنه لا يقر على ذلك.

فإذا كان سوقه للهدي من قبيل اختيار العمل بأحد الجائزين، فإذا عرض حال يستدعي اختيار الجائز الآخر، وهو عدم سوق الهدي، كان له أن يختاره، ولا يعد هذا الاختيار اجتهاداً في تقرير حكم شرعي، فعدم سوقه الهدي حيث ينبني عليه موافقة أصحابه، وانشراح صدورهم لفعل ما يأمرهم به من الإحلال، يصح اختياره بدل سوق الهدي، فمعنى «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لما سقت الهدي»: لو كان هذا الوقت الذي ظهر فيه تحرج أصحابه من اختلاف حالهم عن حاله هو الوقت الذي كان قد أحرم فيه، لاختار عدم سوق الهدي.

*** قضاؤه ـ عليه الصلاة والسلام ـ:**

ما زال كاتب المقال يتحدث عما قام به النبي ﷺ بحق بشريته، حتى قال:

«وكان يحكم في الحوادث الجزئية التي ترفع إليه، ويعتمد في حكمه على البينات، وحجج الخصوم، ويقول: لعل أحدكم ألحن بحجته، فإنما أنا بشر».

جعل الكاتب قضاء النبي ﷺ مما قام به بحق بشريته، ونحن نعلم أن الله أمره بأن يحكم في الحوادث التي ترفع إليه، وأمره ان يحكم بين الناس بما أنزله عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[المائدة: ٤٩]، ولكونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحكم بما أنزله الله وأراه الله، كان عدم الرضا بحكمه خروجاً عن شرع الله، ونكثاً لليد من عروة

الإسلام، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥].

فقضاءُ رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ شطر من المهمة التي أرسل من أجلها، وهو طريق من طرق إبلاغه شريعة الله ـ جل شأنه ـ.

قال الكاتب: ويقول: «لعل أحدكم ألحن بحجته، فإنما أنا بشر»، وأصل هذا الحديث كما جاء في الصحيح[١]: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذن منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من نار».

ولإيضاح معنى الحديث نقول: إن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ لتكون سيرته المثل الأكمل في كل ناحية من نواحي الحياة الفردية أو الاجتماعية أو السياسية، ومما يدخل في ناحية السياسة: القضاء، وقد أمده الله في هذه الناحية ـ زيادة على ما فطر عليه من رصانة العقل وثقوب الفكر ـ بالأحكام والآداب التي تجعل قضاءه عادلاً، وموضع قدوة الحكام الراشدين من بعده.

ومما أمده الله به: أن جعل قضاءه على نحو ما يسمعه من الخصمين، وما يقيمونه من البينات، وما يلفظون به من أيمان، ولم يأخذ في صحة حكمه أن يكون الإقرار أو البينات أو الأيمان صادقة مطابقة للواقع؛ فإن بناء كل حكم على ما كان مطابقاً للواقع ـ وإن تيسر للنبي ﷺ ـ لا يتيسر لحكام ليس بينهم وبين الخالق ـ جل شأنه ـ صلة الوحي، وذلك معنى قوله ـ عليه

---

(١) «الموطأ» و«صحيح البخاري» و«صحيح مسلم».

الصلاة والسلام ـ: «فلعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع».

والقضاء ـ على ما يقتضيه الإقرار أو البينات أو الأيمان ـ حكم مطابق لما أمر الله أن يحكم به، فلو كان الإقرار في باطن الأمر كاذباً، أو البينات مزورة، أو الأيمان حانثة، كان حكم النبي ﷺ مصيباً ما دامت وسائل القضاء من الإقرار ونحوه قد استوفت شروطها المعتد بها في نظر الشارع.

وإنما يظهر خطأ الاجتهاد في تقرير حكم شرعي لم يوح إليه به، أو إجراء حكم على غير الوجه الذي وضعه الشارع الحكيم، وهذا ما اختلف العلماء في وقوعه، وأجمعوا على أنه متى وقع لا يقر عليه.

قال كاتب المقال: «وكان يكل الجهاد إلى أمرائه وقضاته دون أن يقيدهم بالرجوع إليه».

كان الكاتب يتحدث عن اجتهاد النبي ﷺ، ويأخذ في حديثه كل مأخذ، ولا ندري ما موقع هذه الجملة التي تتعلق بحال أصحابه عند غيبتهم وبعدهم عن موطن الوحي! حشرها هاهنا، ثم عاد إلى ما كان بصدده من اجتهاد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى انتهى إلى الغاية التي وضع من أجلها المقال.

يكل الجهاد إلى أمرائه وقضاته دون أن يقيدهم بالرجوع إليه؛ لأنه يكله إلى رجال تفقهوا في الدين بما سمعوا من القرآن الحكيم، وتلقوه من السنَّة المطهرة، وكانوا من مقاصد الشريعة على بصيرة، فهو على ثقة من أن أولئك الرجال سيسيرون في إمارتهم وقضائهم ونورُ علمهم وإيمانهم يسعى بين أيديهم، فإذا عرض لهم أمر لم يكن لديهم فيه كتاب أو سنة، تصرفوا فيه على

مقتضى اجتهادهم، وكثيراً ما كانوا يخبرون النبي ﷺ بما اجتهدوا، فإما أن يراهم مصيبين، فيقرهم، وإما أن يراهم قد أخطؤوا، فينبههم إلى وجه خطئهم، ومن شواهد هذا: قصة خالد بن الوليد إذ بعثه النبي ﷺ إلى بني جذيمة، وجعل فريق منهم يقولون: صبأنا صبأنا، فلم يفهم خالد أنهم يريدون الإسلام، وتعجل فأذن في قتلهم، وخالفه قوم فلم يقتلوا من كان تحت أيديهم من الأسرى، حتى قدموا على رسول الله ﷺ، وذكروا له ذلك، فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ـ مرتين»[1].

ويدلنا على أنهم كانوا إذا أشكل عليهم أمر، وكان في إمكانهم تأخير الفصل فيه إلى استرشاد النبي ﷺ، فعلوا: قصة الصحابة الذي رقوا بسورة الفاتحة سيد حي من أحياء العرب، فشفي، فأتاهم أهل الحي بقطيع من الشاء جُعلاً على الرقية، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فلما عادوا، سألوه، فأذن لهم في أخذها[2].

وكان ﷺ يزود الأمراء أو الوفود بوصايا فقهية، ويوجه إليهم بكتب تشتمل على أحكام شرعية؛ كالكتاب الذي أرسله إلى أمراء اليمن، وهو كتاب يشتمل على أحكام في الزكاة والديات والطلاق والعتاق، وغير ذلك[3].

قال كاتب المقال: «وكان يسارع أحياناً إلى الجواب عما يسأل عنه من غير أن ينتظر الوحي، وأحياناً ينتظر أمر الله، ويقول: لم ينزل علي فيه شيء؛ كما في حادثه المرأة التي جادلت زوجها، وكما في حادثة الرجل الذي قذف

(١) «صحيح البخاري».

(٢) «صحيح البخاري».

(٣) رواه الحاكم في «صحيحه»، والنسائي، وأبو داود.

زوجته، فقد نزل القرآن بتشريع كفارة الظهار، وشهادات اللعان».

جاء الكاتب بهذا التقسيم وهو يتحدث عن اجتهاد النبي ﷺ، وإنما يريد: أن ما أجاب عنه بسرعة يكون صادراً عن اجتهاد، والصواب أن فتاوى النبي ﷺ تروى لنا دون أن ينقل عنه أو عن الصحابي الراوي للفتوى أنها صدرت عن اجتهاد، أو عن وحي، وقد ثبت بالدليل القاطع أنه ﷺ كان يوحى إليه، ولم يقم دليل قاطع على أنه كان يجتهد في تقرير الأحكام الشرعية من نحو الإيجاب والتحليل والتحريم، وشاهد هذا: أن الوحي مجمع عليه، لا ينكره إلا جاحد بآيات الله، وأما اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تقرير حكم شرعي على النحو الذي وصفنا، فموضع اختلاف بين كبار أهل العلم، وثبت بالبحث أن الأحكام التي وقع في أذهان بعض العلماء أنها صدرت عن اجتهاد ليست بكثير، فإذا أجاب النبي ـ عليه الصلاة السلام ـ سائلاً عن حكم شرعي، حُمل على أنه كان عن وحي، حتى يقوم الدليل على أنه كان عن اجتهاد.

وسرعة الجواب ليست بدليل على أن الفتوى صادرة عن اجتهاد، فقد يسأل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن أمر كان قد أبلغه من قبل؛ كما نزلت الصلوات الخمس بمكة مبينة، ثم سأل سائل بالمدينة عن أوقاتها وأوائلها وأواخرها، فأجابه عن ذلك بطريق عملي.

وقد يستند في إفتائه إلى النصوص العامة؛ كما سئل عن قتل شخص يتشبه بالنساء، فقال: «إني نهيت عن قتل المصلين»، والاستدلال بالعام على بعض الحوادث من قبيل تطبيق النصوص الشرعية، وليس من الاجتهاد في شيء. ثم إن للوحي طرقاً، منها: أن يقذف الملَك في روعه ما أراد الله إيحاءه إليه، ولا يستطيع الكاتب أن يقدر المدة التي ينزل فيها الوحي، ويبين لنا كيف

تكون أطول من مدة النظر في تحصيل حكم شـرعي بطريق الاجتهـاد، قال الحافظ ابن حجـر في «الفتح»: «ومن ادّعى أن نزول الوحي يحتاج إلى أمد متسع، فقد وَهِم».

وكيف تدل سرعة الجواب على أن الفتوى صادرة عن اجتهاد، ونحن نجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجيب عقب السؤال في كثير من المسائل التي شأنها أن تكون عن وحي؛ كالمسائل المتعلقة بأحوال يوم القيامة، أو المقام في الدار الآخرة، وهذه جزئيات لا يجد المجتهدون طريقاً من الطرق التي يألفها الناس موصلاً إليها.

قال كاتب المقال: «ولعل الأمر فيما ينزل به الوحي، وفيما لا ينزل، وفيما يجتهد فيه الرسول، وفيما لا يجتهد، راجع إلى الفصل بين الشؤون التي تتعلق بأساس الدعوة، أو بالجانب الخلقي، أو بالعبادة، وبين ما تختلف فيه المصلحة باختلاف الظروف والأزمنة والأشخاص».

ذكر الكاتب فيما سلف أن هناك أموراً ينزل فيها الوحي، وأموراً يجتهد فيها النبي ﷺ، وقصد في هذه الجمل أن يضع ضابطاً للأمور التي ينزل فيها الوحي، ولا يجتهد فيها النبي ﷺ، والأمور التي يجتهد فيها، ولا ينزل فيها الوحي، فادعى أن ما ينزل فيه الوحي، ولا يجتهد فيه النبي ﷺ: الشؤون المتعلقة بأسـاس الدعوة، أو بالجانب الخلقي، أو بالعبادة، وما يجتهد فيه الرسـول ـ صلوات الله عليه ـ، ولا ينزل فيه الوحي: ما تختلف فيه المصلحة باختلاف الظروف والأزمنة والأشخاص.

أما أن الوحي لا ينزل إلا في أساس الدعوة، والجانب الخلقي، والعبادات، فقد قال الكاتب في صدر مقاله: «فلما تمت الهجرة، دخلت الدعوة في عهد

جديد تكونت به للمسلمين وحدة اقتضت معاملات ونظماً اجتماعية تمتاز بها عن سائر الجماعات، ومنذ ذلك الحين اتجه الوحي إلى جهة أخرى تسير مع مقتضيات الحالة الجديدة، وتلبي مطالب هذه الأمة الناشئة»، وكنا فهمنا من تلك العبارة: أن الكاتب معترف بأن الوحي ينزل في غير أساس الدعوة، والجانب الخلقي والعبادات.

أفلا تشعر أيها القارئ بأن ما قاله هنا ينافر ما قاله في صدر المقال، ولا يلتئم به؟ فالأمر إما أن يكون في المقال عبارات لا يأخذ بعضها برقاب بعض، وإما أن يكون فيه رجوع عن رأي برأي.

أشار الكاتب هنا إلى أن الوحي لا ينزل فيما تختلف فيه المصلحة باختلاف الظروف والأحوال، ووضْعه لهذا القسم في مقابلة أساس الدعوة والجانب الخلقي والعبادات، ظاهر في أنه أراد منه: المعاملات، وشؤون الاجتماع، ولا ندري ماذا يصنع الكاتب في آيات كثيرة نزلت في المعاملات والجنايات؛ كالرهن، وتحريم الربا، وجلد الزاني والقاذف، وقطع يد السارق، وثبوت الحق بشهادة رجلين، أو رجل وامراتين، ويضاف إلى هذا أحاديث كثيرة وردت في المعاملات وشؤون الاجتماع، وليس في الرواية، ولا ما يحيط بها ما يدل على أنها صادرة عن اجتهاد.

وأشار الكاتب هنا أيضاً إلى أن النبي ﷺ لا يجتهد إلا فيما تختلف فيه المصلحة باختلاف الظروف والأحوال، ولا يجتهد فيما يرجع إلى أساس الدعوة والجانب الخلقي والعبادات، وقد نسي الكاتب أنه أورد أحاديث في العبادات مستشهداً بها على اجتهاد النبي ﷺ؛ مثل: إفتاء المرأة في الحج لأبيها، وإفتائه السائل عن قُبلة الصائم، وإفتائه السائل عن أجر من باشر امرأته.

خص كاتب المقال في الجمل السابقة اجتهاد النبي ﷺ بما تختلف فيه المصلحة باختلاف الأحوال، وخص الوحي بالشؤون المتعلقة بأساس الدعوة والجانب الخلقي والعبادة، ثم قال:

«وقد حدد الفقهاء مواضع الاجتهاد، ومواضع النص».

إيراد الكاتب لهذه الجملة عقب ذكره لما ينزل به الوحي وما لا ينزل، وما يجتهد فيه النبي ـ صلوات الله عليه ـ، وما لا يجتهد، ظاهر في أنه يريد من النص: الوحي، ومعنى هذا: أن الفقهاء حددوا مواضع الوحي، ومواضع الاجتهاد.

وهل حدد الفقهاء مواضع الوحي؟

ليس من المعقول أن يحدد الفقهاء وهم يبحثون عن الأحكام الشرعية مواضع الوحي، فهم لا يختلفون في أن الوحي يرد في العقائد، والجانب الخلقي، والعبادات، وفي كل ناحية من نواحي الحياة.

وهل حدد الفقهاء مواضع الاجتهاد؟

لا نعرف للاجتهاد في الأحكام الشرعية مواضع محددة سوى ما يذكره علماء الأصول في كتاب القياس من نحو قولهم: إن القياس لا يجري في الأسباب والحدود والكفارات والرخص، على اختلاف بينهم فيما كان من هذا القبيل.

وكيفما كان تحديدهم لمواضع الاجتهاد، فإنه لا يجدي الكاتب في هذا المقام نفعاً؛ لأن الذي يهمه أن تكون مواضع الوحي محدودة حتى يمكنه متى وجد حديثاً شرعياً أن يقول: هذا صادر عن اجتهاد؛ لأنه خارج عن المواضع المحدودة للوحي.

* شخصياته الأربع :

قال كاتب المقال : «نستطيع بعد هذا أن نستخلص للنبي ﷺ شخصيات متعددة : شخصية الرسول، وشخصية الإمام العام، وشخصية المفتي، وشخصية القاضي».

قال شهاب الدين القرافي في كتاب «الفروق»، وكتاب «الأحكام» في الفرق بين الفتاوى والأحكام : إن النبي ﷺ يتصرف بالتبليغ، وبالفتوى، وبالقضاء، وبالإمامة، وفرق بين الأربعة في التعريف، فقال : الرسالة : أن يوصل إلى الناس ما أمره الله تعالى بإبلاغه، والفتوى : إخباره عن الله تعالى بما يجده في الأدلة من حكم الله تعالى، فهو كالمترجم عن الله ﷻ، والقضاء : إلزام من قبله ﷺ بحسب ما نتج من الأسباب والحجاج، والإمامة : ولاية أمر السياسة العامة في الناس، وضبط معاقد المصالح، ودرء المفاسد، وقمع الجناة، وقتل الطغاة، وتوطين العباد في البلاد.

وحقق العلامة ابن الشاط في «حواشيه على الفروق» هذا التقسيم، فقال : إن المتصرف في الحكم الشرعي إما أن يكون تصرفه فيه بتعريفه، وإما أن يكون تصرفه بتنفيذه، فإن تصرف فيه بتعريفه، فذلك هو الرسول إن كان هو المبلغ عن الله تعالى، وتصرفه هو الرسالة، وإلا، فهو المفتي، وتصرفه هو الفتوى، وإن كان تصرفه فيه بتنفيذه، فإما أن يكون تنفيذه ذلك بفصل وقضاء، فهو القاضي، وتصرفه هو القضاء، وإن لم يكن بفصل وقضاء، فهو الإمام، وتصرفه الإمامة.

وسترى فيما يأتي الفرق بين قصد الكاتب ووجهته من ذكر هذا التقسيم، وقصد هؤلاء العلماء ووجهتهم.

* رسالته:

قال كاتب المقال: «فهو بشخصية الرسول مبلغ عن الله، لا يخرج فيما أوحى إليه عن حدود ما أمر به، أو نهى عنه، والمسلمون مكلفون به كما تلقوه عنه في عمومه أو خصوصه، وفي دوامه أو توقيته، وهذا يغلب فيما هو من العقائد وأصول الأخلاق والعبادات، ولا يعد النبي ﷺ بذلك فقيهاً، وإنما هو أعلى شأناً، وأجل مكانة من الفقيه».

ذهب الكاتب في الجمل السابقة إلى أن ما ينزل به الوحي، ولا يجتهد فيه النبي ﷺ راجع إلى الشؤون التي تتعلق بأساس الدعوة، أو الجانب الخلقي، أو العبادة، وعاد هنا فجعل ما ينزل به الوحي يغلب فيما هو من العقائد، وأصول الأخلاق، والعبادات، فهل يعد مثل هذا تخادلاً في الإنشاء، أو هو رجوع عن رأي برأي؟

يقول كاتب المقال: إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشخصيته مبلغاً أعلى شأناً، وأجل مكانة من الفقيه، ونحن نرى اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ في استنباط حكم شرعي متى وقع، فإنما هو مستمد من نصوص الوحي أو أصوله، فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم ينزل عند اجتهاده عن مرتبة التبليغ، ومن هنا نقول كما قال أهل العلم من قبلنا: إن أوامره تتبع على الوجه الذي وردت فيه من وجوب أو ندب، لا فرق بين ما يكون صادراً عن وحي، وما يكون صادراً عن اجتهاد.

* إمامته:

قال صاحب المقال: «وهو بشخصيته الإمام الأعظم رئيس المسلمين، وزعيم قوميتهم، يعمل على تركيز أمته، وطبعها بطابع تتميز به عن سائر

الأمم. ويلحق بذلك كل ما ورد عنه مما يتعلق باللباس والأزياء، والتشبه بقوم، ومخالفة اليهود والنصارى والمجوس والمشركين، وما إلى ذلك مما لا يمس ناحية من العقيدة، ولا يعقل فيه معنى التعبد، وإنما هو في الشؤون الاجتماعية البحتة التي تعرفها الأمم في كل العصور والأجيال، وينزع إليها الزعماء والقادة في القديم والحديث، والأمر فيها راجع إلى ما تراه الأمم، وتقدر فيه قوميتها ومصلحتها وسيادتها».

إمامة النبي ﷺ تقررت بالوحي، فالوحي هو الذي أنشأها، واستمر يمدها بأوامر ونـواه حتى قامت على قدم راسـخ، وأصبحت المثل الأكمـل الذي أقامه الله للأئمة من بعده، وأمرهم بأن يكونوا على آثاره مقتدين.

وكان الوحي ينزل في كثير من التصرفات العائدة إلى الإمامة؛ كإعداد القوة، وإعلان الحرب، والدعوة إلى الخروج إليها، والإذن في التخلف عنها، وأخذ البيعة على المناصرة فيها، والأخذ فيها بالحذر والحزم، والزجر عن الفرار من مواقعها، ومعاملة الأسرى، وإعطاء الأمان للمحاربين، وتقرير السلم، وعقد المعاهدات، وقسمة الغنائم، وضرب الجزية، وعقاب الذين يقطعون السبيل ويسعون في الأرض فساداً، والأخذ بالشورى.

فإمامة النبي ﷺ وليدة الوحي، وهي ـ وإن كانت تصرفاً «في الشؤون الاجتماعية التي تعرفها الأمم في كل العصور والأجيال» ـ قد رسم لها الشارع محجة غير الطرق التي تمشي فيها أمم لا دينية، فيعترضها من الأشواك والعثرات ما يعوقها عن إدراك الغاية المنشودة من الأمن وسعادة الحياة.

فإمامة النبي ﷺ خلافة عن الله فيما اختاره لسياسة الأمم، ومن هنا كان جزاء الذين يخرجون عليها عذاب الهون في الدار الآخرة، ولولا أنهم خرجوا

على سياسة رسم الوحي دائرتها، وفرض على الناس طاعتها، ما كان جزاء من يخالفها إلا جزاء من يخالف سلطاناً تقوم سياسته على آراء لا تتصل بالوحي في أصل ولا فرع، وهو عقوبة السلطان، أما عقوبة الله، فإنما يستحقها من كان لله عليه حجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥].

وسمَّى كاتب المقال النبي ﷺ في هذه الجمل: رئيس المسلمين، وزعيم قوميتهم؛ ليقرر في نفس القارئ أن ما يصدر عنه بصفة الإمامة لا علاقة له بالرسالة، وإنما هو بمنزلة ما يصدر عن غيره من الزعماء والقادة في القديم والحديث.

وقال كاتب المقال في هذه الجمل: «يعمل على تركيز أمته، وطبعها بطابع تتميز به عن سائر الأمم»، وهذا كلام صحيح متى فهمنا أن أمته كل من دخلوا في دينه من العرب والعجم، وأن ما يقوله لتركيزها وطبعها بطابع تتميز به عن غيرها من الأمم، لا يختص بخطابه قوم دون قوم، ولا عنصر دون عنصر، ذلك أن ما يقوله في هذا الصدد إما أن يكون عن وحي، وإما أن يكون عن اجتهاد يتصل بالوحي.

وقال الكاتب في هذه الجمل: «ويلحق بذلك كل ما ورد عنه مما يتعلق باللباس والأزياء والتشبه بقوم، ومخالفة اليهود والنصارى والمجوس والمشركين».

ترك الشارع أمر اللباس إلى العادات، ولكن التشريع دخل في اللباس من بعض الجهات؛ كأن يكون طاهراً نظيفاً ساتراً لما يجب أو يحسن ستره، ولا أظن أحداً يستطيع أن يقول: إن نهي النبي ﷺ عن لبس الحرير والذهب إنما هو من قبيل ما يصدر عنه بصفته رئيس المسلمين، وزعيم قوميتهم، فقد

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «حُرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي»، ولا شبهة في أن الذي حرم لباسهما هو الله تعالى، وقال: «ومن لبس الحرير، في الدنيا، فلن يلبسه في الآخرة»، وإن لم يكن مثل هذا الحديث وحياً، فمن أين علم النبي ﷺ أن من لبس الحرير في الدنيا لا يلبسه في الآخرة؟

يقول كاتب المقال في هذه الجمل: «إن كل ما ورد عنه مما يتعلق بالتشبه بقوم، ومخالفة اليهود والنصارى والمجوس والمشركين، صادر عنه ﷺ بصفته رئيس المسلمين، وزعيم قوميتهم».

ونقول: وردت أحاديث في النهي عن التشبه بالمخالفين، وبلغت هذه الأحاديث أن تقررت بها قاعدة يرجع إليها الفقهاء في بعض ما يتجدد من الحوادث العائدة إلى هذا القبيل.

وكل أحد يتفقه في هذه الأحاديث، ويبحث عن أسرارها، يرى رأي الحق: أن شريعة الإسلام تكره للمسلمين أن يتشبهوا بغيرهم من أهل الملل والمذاهب الأخرى، ولا يرتاب في أن النهي عن هذا التشبه داخل في دائرة أحكامها.

والأحاديث الواردة في كراهة التشبه بالمخالفين نوعان:

أولهما: أحاديث وردت في النهي عن أشياء تشتمل على وجوه من الفساد، ويقول فيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ: هذا من فعل المشركين، أو اليهود ـ مثلاً ـ، أو يقول فيها: وخالفوا اليهود أو المجوس. فالمقتضي الأول للنهي عنها: هو ما في الفعل من مفسدة، والإخبار بأنها من أفعال أهل ملة باطلة يراد منه: زيادة التنفير منه، وتأكيد كراهة الشارع له، ومثال هذا: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى

الجاهلية»، فالنياحة والندبة عند المصيبة هي المعبر عنها بدعوى الجاهلية.
والنياحة والندبة ينهى عنها ولو لم تكن من شأن الجاهلية، ولكن النبي ﷺ أضافها إلى الجاهلية؛ لزيادة التنفير منها؛ حيث إن المتقين يتحامون أن يتشبهوا بالضالين والمبتدعين، وقد ورد هذا النوع في كثير من الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب: ٣٣].

ثانيهما: أحاديث وردت في النهي عن التشبه بالمشركين، أو غيرهم من أهل الملل الباطلة في أشياء لا يظهر فيها وجه مفسدة، ولا وجه مصلحة، فيكون المقتضي للنهي هو مجرد التشبه، ويساق مثلاً لهذا حديث: كان رسول الله ﷺ إذا اتبع جنازة، لم يقعد حتى توضع في اللحد، فتعرض له حبر[١]، فقال: هكذا نصنع يا محمد، فجلس رسول الله ﷺ وقال: «خالفوهم[٢]».

ومن حقق النظر فيما يترتب على نفس التشبه بالمخالفين من آثار، ودخل إلى هذا التحقيق من باب دراسة علم النفس، أدرك وهو على بصبرة أن النهي عنه يقوم على مراعاة مفاسد هي من نوع المفاسد التي تشتد عناية الشارع بإزالتها، ومن ذا الذي يرى شخصاً يترك زياً من أزياء إخوانه المسلمين، ويتزيا بزي يهودي أو نصراني، ولا يتبادر إلى ذهنه أنه ضعيف الإيمان، أو منحل العقيدة؟!

يقول كاتب المقال في هذه الجمل: «وما إلى ذلك مما لا يمس ناحية العقيدة، ولا يعقل فيه معنى التعبد، وإنما هو في الشؤون الاجتماعية البحتة التي تعرفها الأمم في كل العصور... إلخ».

---

(١) من أحبار اليهود.

(٢) «صحيح البخاري».

إذا ورد عن النبي ﷺ حديث يتضمن أمراً أو نهياً، حُمل أمره أو نهيه على أنه شريعة، سواء أكان الأمر أو النهي فيما يعقل فيه معنى التعبد، أم كان في الشؤون الاجتماعية، فإذا ورد حديث يتضمن النهي عن لباس أو زي، أو يتضمن النهي عن التشبه بقوم في زي أو عادة، إلى غير هذا من الشؤون الاجتماعية، عد هذا الأمر أو النهي في الأحكام الشرعية، ولا نبحث عن مصدر هذا الحكم: أهو الوحي، أم الاجتهاد؟.

وتصرف النبي ﷺ بصفة الإمامة لا يخرج عن أنه تصرف يرتبط بالشريعة، فإنه تصرف في شؤون أذن له الشارع في التصرف فيها على حسب المصلحة، فتصرفه مستند إلى إذن من الشارع، ومقيد بالمصلحة الملائمة لمقاصد الشارع في الإصلاح، وهو بعد هذا تحت رعاية منزل الوحي، فإن جاء التصرف على الوجه الأولى، أقره، وإن جاء على غير الوجه الأولى، نبهه لما هو الأولى. أما تصرفات الزعماء والقادة في الشؤون الاجتماعية، فإنما تستند إلى آراء بشرية بحتة، وكثيراً ما تخطئ في تقدير المصلحة، ويبقى خطؤها بلاء على الناس إلى أمد بعيد، فما كان لنا أن نسمي إمامة رسول الله ﷺ زعامة، ونلحقها بقبيل زعامات لا تستضيء بحكمة الله، ولا تبالي في سياستها أن تقع فيما لا يوافق هداه.

*** تصرفه بالفتوى:**

قال كاتب المقال: «وهو بشخصية المفتي إما مجيب بلسان الوحي، فليس له اجتهاد في ذلك إلا في تطبيق النصوص على جزئيات الحوادث، وإما فقيه يجتهد ويقدر ويلاحظ أحوال السائلين، فيجيبهم بما يراه، كما يفعل سائر المجتهدين، وبالطرق التي يأتيها الناس في استنباط المجهولات، وقد علم له

من هذا النوع كثير».

سبق لكاتب المقال أن قال في حديثه عن اجتهاد النبي ﷺ: وكان يسارع أحياناً إلى الجواب عما يسأل عنه، وأحياناً ينتظر الوحي.

وكان قصده هنالك: أن الفتاوى التي تصدر عن سرعة هي من قبيل الاجتهاد، فيكون مراده من تقسيم الفتاوى هنا إلى: ما يجيب عنه بلسان الوحي، وما يجيب عنه باجتهاد: أن ما يجيب عنه بلسان الوحي: ما كان ينتظر فيه الوحي، وما يجيب عنه باجتهاد: ما يجيب عنه بسرعة، وقد نبهنا فيما سبق لعدم دلالة السرعة في الجواب على أن الفتوى كانت عن اجتهاد.

وقد علم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ من نوع الفتاوى في الأحكام الشرعية كثيرة، ولكنا لا نستطيع أن نضع أيدينا على فتوى في حكم شرعي، ونقول ونحن على حجة: هذه فتوى أجاب فيها بما يراه كما يفعل سائر المجتهدين.

*** تصرفه بالقضاء:**

قال كاتب المقال: «وهو بشخصية القاضي حكم بين المتخاصمين، يسمع دعاواهم، ويتعرف الحق بما يسمع من شهادة الشهود، وما يرى من وجوه التثبت، ويقدر ظروف القضية وأحوال المتقاضين؛ كما يفعل سائر القضاء، وأحكامه في هذه الدائرة لا عموم لها في الأشخاص ولا في الأحوال، كما يقول علماء الأصول، فليس لها صفة التشريع العام».

يتوجه النظر في القضاء إلى ناحيتين:

أولاهما: الوسائل التي تتقدم الحكم؛ من نحو: البينات، والأيمان، وتزكية الشهود، والطعن في البينات، وضرب الآجال والأعذار، وبعث الحكمين.

ثانيتهما: الأحكام التي يرجع إليها القاضي في الفصل بين المتخاصمين؛ كاستحقاق الشريك للشفعة، والأم للحضانة، ووجوب نفقة الرجل على أبيه، وبطلان بيع ما فيه غرر، ونكاح الشغار، وصحة البيع بمعاطاة، والنكاح على أن يكون الصداق منافع.

أما وسائل الحكم، فمنها ما قرره القرآن الكريم؛ كقبول شهادة عدلين، أو رجل وامرأتين، وعدم قبول الشهادة على الزنا متى كان الشهود أدنى من أربعة، ومنها ما قررته السنة؛ كمطالبة المدعي بالبينة، والمدعى عليه باليمين متى أنكر، وقبول شهادة عدل مع اليمين.

وما ثبت بالقرآن أو السنة من أمثال هذه المقدمات التي ينبني عليها القضاء يعد شرعاً دائماً لا يسوغ لأحد من القضاة إهماله إلا إذا فقد الوصف الذي راعاه الشارع عند تقرير الحكم.

وأما الأحكام التي يأخذ بها النبي ﷺ في قضائه، فإما مقررة بالقرآن الكريم؛ كجملة من أحكام النكاح والطلاق، والنفقات والوصية والمواريث، أو أحكام الجنايات؛ كحد السارق والقاذف والزاني والقاتل، وأحكام المعاملات؛ كالرهن وإنظار المعسر ورد الربا، وإما مقرر بالسَّنة، وأمثلة هذه الأحكام غير المنصوص عليها في القرآن مبثوثة في كتب السنة.

فالأحكام التي يفصل بها النبي ﷺ بين الخصوم، لابد أن تكون متلقاة من الشارع، إما على طريق النص بوجه خاص أو عام، وإما على طريق الاجتهاد المستمد من الوحي.

فإذا قضى النبي ﷺ في نازلة، فالحكم الذي يفصل به القضية شريعة دائمة، إلا أن يكون مربوطاً بسبب أو صفة، فإذا زال السبب، أو فقدت الصفة،

صح للمجتهد أن يرجع بالواقعة المتجددة إلى نصوص أو أصول أخرى، ويقرر لها حكماً يلائم مقاصد الشارع في الإصلاح.

فالقاضي يسمع الدعاوى، ويسمع شهادة الشهود، ويتثبت في الدعاوى والشهادات، ويقدر ظروف القضية وأحوال المتقاضين، وله عمل آخر بعد هذا هو تطبيق الحكم الذي قرره الشارع لأمثال هذه القضية، فإذا رفعت إليه قضية ادعى فيها أحد على آخر أنه باع له ثمراً قبل بدو صلاحه، أو باع له ما ليس عنده، سمع القاضي الدعوى، وسمع شهادة الشهود بأنه باع له ثمراً لم يبد صلاحه، أو باع له شيئاً لا يملكه، وتثبت في الدعوى والشهادة، فكان كل منهما مستوفياً لما يشترطه القضاء، ونظر إلى ظروف القضية، وأحوال المتقاضين ما شاء أن ينظر، ولكن هذا كله لا يكفيه في إصدار حكم عادل إلا بعد أن يرجع إلى حكم الشريعة في مثل هذا البيع من صحة أو بطلان، ولا يكون قاضياً عادلاً في نظر الإسلام إلا أن يجري في فصل القضية على هذا الحكم.

أما المسألة الأصولية التي أشار إليها الكاتب مستشهداً بها على أن أحكامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في دائرة القضاء غير عامة، فقد سيقت على وجه غير الوجه الذي ينبغي أن تساق عليه.

ذلك أن الأصوليين لا يختلفون في أن أحكامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولو كانت على أشخاص معينين، هي عامة؛ أي: يجب اتباعها في كل قضية تشابه القضية التي قضى فيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وإنما الخلاف في طريق عمومها، فقال بعضهم: هي عامة بالصيغة التي صدرت منه ﷺ، وهذا القول معدود في الأقوال الضعيفة بينهم. وقال آخرون: هي عامة بمعناها لا بصيغتها؛ أي: إن حكمه ـ صلوات الله عليه ـ في قضية يكون شرعاً متبعاً في كل قضية

من صنف القضية التي حكم فيها، فلو رفع إليه شريك قضية طالباً الشفعة، فقضى له بها، علمنا أن كل شريك مستحق للشفعة، فمن لم يحكم من القضاة للشريك بالشفعة، كان حاكماً بغير شريعة الإسلام، فهؤلاء ينكرون أن يكون الحكم عاماً بالصيغة، ويقولون: إن قضايا الأعيان لا عموم لها في الأشخاص، ولكنهم يتمسكون بأن الحكم عام من جهة ارتباطه بسبب أو وصف، فمتى وجد الوصف أو السبب في أي شخص، أو في أي وقت، لزم الحكم لا محالة.

وهذا الذي قرره الراسخون في علم الشريعة يجري في الفتاوى والأقضية على سواء، وإن شئت أن نعرض عليك نصوصاً لبعض هؤلاء المحققين صاغوها في هذا البحث، فإليك بعض نصوصهم:

قال إمام الحرمين في كتاب «البرهان»: «إذا خصَّ رسول الله ﷺ واحداً من أمته بخطاب، فهذا مما عده الأصوليون من مسائل الخلاف»، وبعد أن حكى الخلاف قال: «والقول هذا عندي مردود إلى كلام وجيز، فإن وقع النظر في مقتضى اللفظ، فلا شك أنه للتخصيص، وإن وقع فيما استمر الشرع عليه، فلا شك أن خطاب رسول الله ﷺ وإن كان مختصاً بآحاد الأمة، فإن الكافة يلزمون في مقتضاه ما يلتزمه المخاطب، وكذلك القول فيما خص به أهل عصره، وكون الناس شَرْعاً في الشرع، استبانة ذلك من عهد الصحابة ومن بعدهم، لاشك فيه، وكون مقتضى اللفظ مختصاً بالمخاطب من جهة اللسان لاشك فيه، فلا معنى لعد هذه المسألة من المختلفات، والشقان جميعاً متفق عليهما».

فانظر كيف جعل الحكم الشرعي الذي يتضمنه خطابه ﷺ لواحد حكماً عاماً باتفاق.

وقال أبو إسحاق الشاطبي في كتاب «الموافقات»: «الشريعة بحسب المكلفين كلية عامة، بمعنى: أنه لا يختص بحكم من أحكامها الطلبية بعض دون بعض، ولا يحاشى من الدخول تحت أحكامها مكلف البتة». وأخذ في الاستدلال على عموم الشريعة حتى قال: «الثالث: إجماع العلماء المتقدمين على ذلك من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولذلك صَيَّروا أفعال رسول الله ﷺ حجة للجميع في أمثالها، وحاولوا فيما وقع من الأحكام على قضايا معينة، وليس لها صيغ عامة، أن تجري على العموم، إما بالقياس، أو بالرد إلى الصيغة، أو تجري على العموم المعنوي، أو غير ذلك من المحاولات؛ بحيث لا يكون الحكم على الخصوص في النازلة الأولى مختصاً بها، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٧]، فقرر الحكم في مخصوص؛ ليكون عاماً في الناس، وتقرير حجة الإجماع لا يحتاج إلى مزيد؛ لوضوحه عند من زاول أحكام الشريعة».

فحمل الأحكام في الأحاديث الواردة في قضايا معينة على العموم هو الحق لا شبهة فيه، وهو العقيدة المعروفة عند أهل العلم، حتى من ينكرون القياس منهم، ويبالغون في إنكاره من أهل الظاهر، وهذا ابن حزم، وهو من أشد خصوم القائلين بالقياس، يقول بعموم الحكم في قضايا الأعيان، وإليك بعض ما يقول في كتاب «الأحكام»:

«فإن اعترضوا (أي: أصحاب القياس) بأحاديث وردت في أناس بأعيانهم، فليس ذلك مما ظنوا، ولكن جميع تلك الأحاديث فيها أحكام وأصول توجب الأخذ بذلك الحكم في أنواع تلك الأحوال اتباعاً للفظ الحكم

المعلق على المعنى المحكوم فيه».

ثم قال: «وقد بينا أن رسول الله ﷺ لم يبعث ليحكم على أهل عصره فقط، لكن على كل من يأتي إلى يوم القيامة».

ثم قال: «كل خطاب منه ﷺ لواحد فيما يفتيه فيه، ويعلمه إياه، هو خطاب لجميع الأمة إلى يوم القيامة، وتعليم منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكل من يأتي إلى انقضاء الدنيا».

ثم قال: «ومما يبين قولنا قوله ﷺ لأبي بردة في الأضحية بعنَاق جذعة: «تجزئك، ولا تجزىء أحداً بعدك»، فبين ﷺ أن هذا الحكم خصوصي لأبي بردة، ولو كان فتياه لواحد لا يكون فتيا في نوع تلك الحال، لما احتاج ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى بيان تخصيصه، ومثله قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ولا فرق في عموم أحكامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين أن يقول الراوي: قضى لفلان على فلان بكذا، وأن يأتي بصيغة عموم نحو: «قضى رسول الله ﷺ ألا يقتل الوالد بولده[١]»، و«قضى أن الحامل إذا قتلت عمداً، لم تقتل حتى تضع ما في بطنها، وحتى تكفل ولدها»، و«قضى باليمين مع الشاهد».

هذا ما يقرره علماء الإسلام في قضايا الأعيان من أنها عامة بحكمها، وأدلتهم في هذا قاطعة، ومما يعززها قوله ﷺ: «إني لا أصافح النساء، وما قولي لامرأة واحدة، إلا قولي لمئة امرأة»، وهذا من الأحاديث التي ألزم

---

(١) الترمذي.

الدارقطني الشيخين بإخراجها؛ لثبوته على شرطهما.

وإذا قالوا: إن الحكم في الواقعة جزئي لا يتعدى إلى أمثالها من الوقائع، فللمجتهد أن ينظر في واقعة صدر فيها حكم مجتهد من قبل، فإنما يريدون: حكم من قد يخطئون، ولا ينبهون من قبل الشارع لخطئهم، أما إذا حكم رسول الله ﷺ في واقعة، فليس لمجتهد بعده أن يعيد النظر في أمثالها إلا من جهة التحقق من الأسباب والشروط التي وقع عليها قضاؤه، وهذا أمر جرى عليه علماء الإسلام باتفاق، ودليله واضح لا تحوم عليه شبهة، قال ابن حزم في كتاب «الأحكام»: «اتفق العلماء على أن القرآن، وما حكم به رسول الله ﷺ، أو قاله، أو فعله، أو أقره وقد علمه ـ مواضع لوجود أحكام النوازل».

*** ماذا يترتب على الشخصيات الأربع؟**

قال كاتب المقال: «هذه شخصيات أربع صارت إليه ﷺ أثراً من آثار تلك الهجرة الميمونة، وإنا لنلمح هذه الشخصيات في جميع ما أثر عنه، ودوِّن في الكتب، ومنه ما تظهر الشخصية التي صدر عنها دون أن يخالف فيه أحد، ومنه ما تخفى شخصيته خفاء تتفاوت الأنظار، وتختلف الآراء في تقديره».

ذكرنا سابقاً أن بعض الأصوليين نبهوا لهذه الجهات الأربع في تصرفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ونذكر هنا: أنهم أشاروا إلى أن من تصرفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما اتفق العلماء على الجهة التي يرجع إليها من الإمامة أو الفتوى أو القضاء، ومنه ما اختلفت فيه الآراء والأنظار.

قال الشهاب القرافي: «إن تصرفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينقسم أربعة أقسام:

قسم اتفق العلماء على أنه تصرف بالإمامة؛ كالإقطاع، وإقامة الحدود،

وإرسال الجيوش، ونحوها.

وقسم اتفق العلماء على أنه تصرف بالقضاء؛ كإلزام أداء الدين، وتسليم الودائع، وفسخ الأنكحة، ونحو ذلك.

وقسم اتفق العلماء على أنه تصرف بالفتيا؛ كإبلاغ الصلاة وإقامتها، وإقامة المناسك، ونحوها.

وقسم وقع منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ متردداً بين هذه الأقسام، فاختلف العلماء فيه على أنحاء».

وذكر لهذا القسم المختلف فيه أمثلة، منها: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من أحيا أرضاً ميتة، فهي له»، وقوله: «من قتل قتيلاً، فله سلبه».

فقول الكاتب: ومنه ما تظهر الشخصية التي صدر عنها... إلخ يشابه هذا التقسيم الذي نقلناه عن القرافي، غير أن القرافي يجعل الفتوى والتبليغ ـ من جهة ما يترتب عليهما من الآثار ـ متساويين، ولهذا نراه عندما جعل الأقسام أربعة، اكتفى بذكر الفتوى عن التبليغ، وقد قال في أثناء بحث هذا التقسيم: «وأما تصرفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالفتوى أو الرسالة والتبليغ، فذلك شرع يتقرر على الخلائق إلى يوم الدين».

قال كاتب المقال: «ولو أننا تتبعنا المروي عن رسول الله ﷺ، وأعطيناه نظرة فاحصة يتميز بها ما كان صادراً عن كل شخصية من هذه الشخصيات، ولم نخلط بعضه ببعض، ورتبنا على كل منها آثاره، وأعطيناه حقه، لسهل على المسلمين أن يتفاهموا فيما شجر بينهم من خلاف، ولتصافح المتخالفون، ولما رمى أحد سواه بالكفر والزندقة، ولعلم الجميع ما هو شرع دائم عام لا سبيل إلى مخالفته أو الخروج عنه، وما هو تشريع خاص أو مؤقت لهم أن

يتصرفوا فيه بما تقضي به المصلحة، وبما توحي به الظروف والأحوال».

يريد الكاتب أن يضع في ذهن القارئ أن علماء الإسلام لم يتتبعوا المروي عن رسول الله ﷺ، ولم يعطوه نظرة فاحصة يتميز بها ما كان صادراً عن كل شخصية من هذه الشخصيات، وخلطوا بعضه ببعض، فنقول له: قد قلت في صدر مقالك تذكر عناية المسلمين بأقوال النبي ﷺ وأفعاله وتصرفاته: «دونوها، وشرحوها، وضبطوا ألفاظها، وألفوا المعاجم في شرح غريبها، واهتموا بتفهم أسرارها، وتبين أغراضها، حتى كان من آثار ذلك أن نشأت علوم خاصة تعرف بعلوم السنة».

وكيف يشرحون أقواله وأفعاله وتصرفاته، ويهتمون بتفهم أسرارها وتبين أغراضها، وهم لم يعطوها نظرة فاحصة تميز بين تلك الشخصيات، ويخلطون بعضها ببعض؟

ينسب الكاتب إلى المسلمين أنهم لم يتتبعوا المروي عن رسول الله ﷺ، ولم يعطوه نظرة فاحصة... إلخ ما قال، وكذلك قال الدكتور زكي مبارك في مقاله المشار إليه فيما سلف: «إن شخصية النبي ﷺ لم تدرس حق الدراسة إلى اليوم في البيئات الإسلامية؛ لأن المسلمين يجعلونه رسولاً في جميع الأحوال».

والحق أن علماء السلف قد تتبعوا المروي عن النبي ﷺ، وأعطوه نظرة فاحصة، وميزوا ما كان صادراً عن تبليغ، وما كان صادراً عن فتوى، وما كان صادراً عن قضاء، وما كان صادراً عن الإمامة، ورتبوا على كل منها آثاره، غير أن آثار الإفتاء هي آثار التبليغ، فما كان صادراً عن إفتاء أو تبليغ، فهو شريعة دائمة، وينفذ على النحو الذي ورد عن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ،

سواء أكان الإفتاء عن وحي، أم عن اجتهاد.

وما كان صادراً عن صفة الإمامة يصير الحق فيه إلى الإمام؛ أي: إن الله تعالى قد جعل ذلك إلى الإمام؛ ليجري فيه على ما تراءى له من المصلحة، فليس لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الإمام؛ كإحياء الموات، وحوز القاتل سلبَ القتيل في الحرب على مذهب من يرى أن النبي ﷺ تصرف في ذلك بصفة الإمامة.

وما تصرف فيه النبي ﷺ بالقضاء، فإنما هو تنفيذ لحكم شرعي على وجه الإلزام، وقالوا: ليس لأحد أن يقدم على مثل ما حكم فيه النبي ﷺ إلا بحكم حاكم، ومعنى هذا: أنه لا يجوز لأحد يدعي حقاً على شخص أن يقدم على أخذ حقه من ذلك الشخص بقوة، وإن سبق أن كان رسول الله ﷺ قد حكم بمثل ذلك الحق لمثله، يقولون هذا وهم لا يريدون أن حق المدعي لا يثبت شرعاً إلا باجتهاد يتجدد من القاضي في الواقعة التي هي من نوع ما حكم فيه النبي ﷺ، وإنما ينحون نحواً آخر هو: أن إطلاق أيدي مدعي الحقوق ينتزعونها من أيدي المستولين عليها، يفضي إلى فتنة واختلال أمر، ويفتح للبغاة باب انتزاع الأموال من أيدي أربابها بدعوى أنها حقوق لهم. وما أدق عبارة ابن الشاط التي سقناها إليك من قبل؛ إذ جعل القضاء والإمامة من قبيل تنفيذ الحكم الشرعي، والفتوى من قبيل تعريف الحكم الشرعي.

يقول الكاتب: «لو أعطينا المروي عن رسول الله ﷺ نظرة فاحصة يتميز بها ما كان صادراً عن كل شخصية من هذه الشخصيات، لما رمى أحد سواه بالكفر والزندقة».

يرى الكاتب أن عدم إعطاء المروي عن رسول الله ﷺ نظرة تتمايز بها

هذه الشخصيات، هو السبب في رمي الأشخاص بالكفر والزندقة، والواقع أن الرمي بالكفر والزندقة قد ينشأ عن الضعف في العلم، وقد ينشأ عن هوى وضغن في النفس، وقد يقضي به الرسوخ في العلم، وقوة البصر بالحد الفاصل بين الإيمان والكفر، فالرمي بالكفر والزندقة قد يكون ظلماً، وقد يكون حقاً، وقد نظر العلماء فيما يسميه الكاتب: «شخصيات الرسول»، وميزوا ما كان صادراً عن كل شخصية منها، وما زال الناس يرمون الأشخاص بالكفر والزندقة، مرة بالحق، ومرة بالباطل، وإذا أراد الكاتب من إلقاء نظرة على المروي عن رسول الله ﷺ تمييزاً لتلك الشخصيات غير تمييز أهل العلم، وترتيب آثار غير الآثار التي رتبوها عليها، فما يدرينا أن باب الرمي بالكفر والزندقة سيغلق، أو سيفتح بجانبه باب آخر أو أبواب؟.

وقال كاتب المقال في هذه الجمل: «لو ميزنا ما كان صادراً عن كل شخصية، لعلم الجميع ما هو شرع دائم عام لا سبيل إلى مخالفته أو الخروج عنه، وما هو تشريع خاص أو مؤقت لهم أن يتصرفوا فيه بما تقضي به المصلحة».

لعلك أيها القارئ الكريم تذكر أن الكاتب قال في حديثه عما يصدر عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشخصية الرسول: «والمسلمون مكلفون به كما تلقوه عنه في عمومه أو خصوصه، وفي دوامه أو توقيته»، ولكنه هنا رتب معرفة ما هو شرع دائم عام، وما هو تشريع خاص أو مؤقت على تمييز ما كان صادراً عن كل شخصية! وظاهر من كلامه هنا أنه يريد بالشرع الدائم: ما كان صادراً عن وحي، ولهذا قال: لا سبيل إلى مخالفته، أو الخروج عنه، ويريد بما هو تشريع خاص أو مؤقت: ما كان صادراً عن الإمامة أو الفتوى أو القضاء؛ لأن

التصرف بالشخصيات الثلاثة في رأيه من قبيل الاجتهاد الذي قام به بحق بشريته، وهو على ما قاله قد يجتهد، ويسكت عنه الوحي فلا يتعرض له بتصويب، ولا تخطئة، فلغيره من الناس أن يتصرفوا فيما اجتهد فيه بما تقضي به المصلحة، وبما توحي به الظروف والأحوال.

والصواب ما حررناه فيما سلف من أن النبي ﷺ إذا أمر بشيء، أو نهى عن شيء، أو قال: هذا حلال، أو هذا حرام، سواء أكان هذا القول صادراً على وجه التبليغ أو الفتوى أو القضاء، فهو شرع دائم عام ما دامت أسباب الحكم قائمة، وشروطه متوفرة، فإن فقد السبب أو الشرط الذي ربط به الحكم، صار مناط الحكم واقعة أخرى، فيصبح للمجتهد الراسخ في أصول الشريعة، المتفقه في مقاصدها أن يستنبط للواقعة حكماً يناسبها، وقد حدثناك عن الإمامة، وأريناك وجه ارتباطها بالشريعة، وأن التصرف بها تنفيذ للسياسة التي رسم الوحي حدودها، وأقام قواعدها.

ورأى كاتب المقال في هذه الجمل أن إعطاء المروي عن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ نظرة فاحصة يتميز بها ما كان صادراً عن كل شخصية من هذه الشخصيات، يسهل على المسلمين أن يتفاهموا فيما شجر بينهم من خلاف، ثم قال:

«لو فعلنا ذلك، لما أبقينا على أسباب هذا الخلاف والتناكر بين أفراد الأمة وطوائفها، ولرجعنا إلى كلمة سواء في العبادات والمعاملات، والآداب والنظم الاجتماعية، وسائر شؤون الحياة، ولانتفع الناس بشرع الله ودينه، ولكنّا كما يريد خير أمة أخرجت للناس».

ادعى الكاتب أن التمييز بين الشخصيات الأربع يقضي على أسباب

الخلاف والتناكر بين أفراد الأمة وطوائفها، ويرجع بها إلى كلمة سواء في العبادات وسائر شؤون الحياة، ونحن نقول: قد فعل أهل العلم ذلك، ونظروا في المروي عن رسول الله ﷺ، وميزوا على ضوء العلم الراسخ ما كان صادراً عن كل شخصية من هذه الشخصيات، ورتبوا على كل شخصية أثرها، ولم يقضوا بما فعلوا على أسباب الخلاف والتناكر، ولم يرجعوا إلى كلمة سواء في العبادات والمعاملات، ذلك أن أسباب الخلاف في الأصول والفروع لا تنحصر في عدم تمييز نواحي تصرفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد بحث الفقهاء عن أسباب الخلاف، وكشفوا عنها الغطاء، فذكروا أشياء غير عدم تمييز ما كان صادراً عن كل شخصية من تلك الشخصيات؛ كالاشتراك الواقع في الألفاظ، واختلاف الرواية، ودعوى النسخ، وتعدد الصفات المحتملة لأن تكون علة مناسبة للحكم.

ولو ذكر لنا الكاتب في صراحة وتفصيل وجوه تمييز ما كان صادراً عن كل شخصية من هذه الشخصيات، لعلنا نرى الرمي بالكفر والزندقة: كيف شمر أذياله، ولاذ بالفرار، ونرى الناس على تفاوت أنظارهم، واختلاف مذاهبهم يتصافحون، ويُجمعون في كل مسألة تعرض لهم على قول واحد.

ولكن الذي فعله الكاتب هو أنه أقبل يخوض في اجتهاد النبي ﷺ، وقال: إنه اجتهد بحق بشريته، وأخذ يقول: إنه يرجع إلى اجتهاد غيره، وإنه يرجع عن اجتهاد باجتهاد، وإن الوحي يأتي بخلاف اجتهاده، وقد يسكت فلا يعرض له بتخطئة ولا تصويب، وإنه يحكم بين الناس، وقال: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم، . . . إلخ».

جمع هذه الأشياء، وضم بعضها إلى بعض؛ ليؤكد أن النبي ﷺ كان

يخطىء في الاجتهاد، ولم يقل للناس عندما تحدث عن خطأ اجتهاده: إنه لا يقر على الخطأ.

وبعد أن وضع في أذهان قراء مقاله أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخطىء في الاجتهاد، تخلص إلى أن له أربع شخصيات: الرسالة، والفتوى، والإمامة، والقضاء، وذكر أن إمامته من قبيل رياسة المسلمين، وزعامة قوميتهم، فهو يعمل من ناحية هذه الشخصية لطبع المسلمين بطابع يمتازون به على غيرهم من الأمم كما يفعل سائر الزعماء والقواد، ورأيتم كيف حاول أن يفتح في هذه الناحية باباً لإخراج جانب كبير من أحكام الشريعة، وذكر أن القضاء وما يجيب عنه بسرعة من الفتاوى إنما هو عن اجتهاد.

ثم إن الكاتب ذكر النبي ﷺ بشخصية الرسول المبلغ عن الله، وقال هنالك: إن المسلمين مكلفون بما بلغه كما تلقوه عنه في عمومه وخصومه، وفي دوامه وتوقيته، ثم ذكره بشخصية الإمام، وشخصية المفتي، وشخصية القاضي، ولم يقل كما قال في شخصية التبليغ: والمسلمون مكلفون بما صدر عنه في حال الإمامة أو الفتوى أو القضاء، بل دل على أن هذه الوظائف جاءت من ناحية اجتهاده الذي قام به بحق بشريته، وقد رأيتموه كيف قال عند حديثه عن اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كما هو الشأن في المجتهدين والحكام»، وقال عند حديثه عن إمامته: «إنما هو في الشؤون البحتة التي تعرفها الأمم في كل العصور والأجيال، وينزع إليها الزعماء والقادة في القديم والحديث». وقال عند حديثه عن إفتائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كما يفعل سائر المجتهدين، وبالطرق التي يألفها الناس في استنباط المجهولات»، وقال عند حديثه عن قضائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كما يفعل سائر القضاة».

فالمسلمون إذاً غير مكلفين بما أفتى به، أو قضى به كما تلقوه عنه، ومن هنا قال صديقه العالم في الكلمة التي صدرنا بها هذا البحث: «وخلاصة ما يرمي إليه المقال (يعني مقال الشيخ محمود شلتوت): أن الذي يعد شرعاً دائماً هو ما يرجع إلى شخصيات الرسول من العقائد وأصول الأخلاق والعبادات، وما عدا ذلك مما يرجع إلى شخصيات الإمام، أو المفتي، أو القاضي، فليس بشرع دائم، وإنما هو شرع مؤقت يمكن أن يتأثر بالاجتهاد، وأن يترك العمل به لسبب من الأسباب».

أحكام الوقائع الواردة في الكتاب والسنة دائمة ما دامت الواقعة على الوصف الذي تعلق به الحكم، أما ما لم يدل عليه لفظ قرآن أو حديث، فذلك موضع الاجتهاد، والرجوع إلى ما تقتضيه أصول الشريعة والقواعد المستمدة من نصوصها.

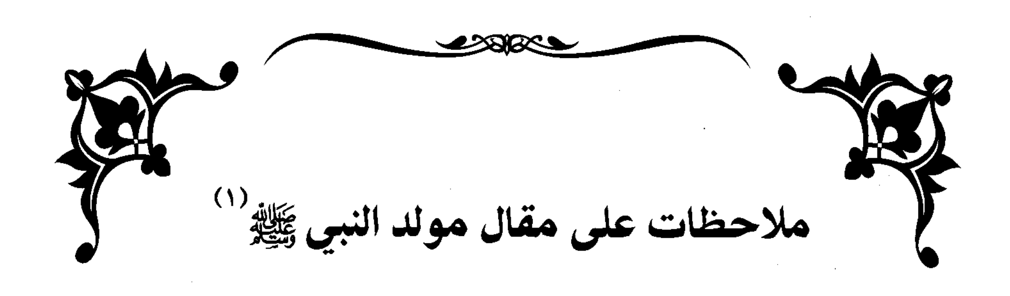
ولم يأت صديق الشيخ شلتوت ولو بشبهة على هذا الغرض الذي كان أصْرح فيه من غيره، وهو أن الشرع الدائم ما يرجع إلى العقائد والأخلاق والعبادات، وما عدا ذلك، فإنما هو شرع مؤقت يمكن ترك العمل به لسبب من الأسباب.

وما رأي صديق الشيخ في آيات القرآن المجيد التي نزلت في إقامة الحدود، وأحكام المعاملات؟ أهي من قبيل الشرع الدائم، أو من قبيل الشرع المؤقت؟ فإن قال: هي من قبيل الشرع الدائم، قلنا: لماذا لا تكون أحكام المعاملات التي تجيء في حديث رسول الله ﷺ شرعاً دائماً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]؟ فإن قال: لأنه يجتهد، قلنا: قد أقمنا الدليل على أنه لا يقرر حكماً شرعياً عن اجتهاد خطأ،

ويقر على هذا الخطأ. وإن قال: إن تلك الآيات من قبيل الشرع المؤقت، قلنا له: لم يقل منزل القرآن، وهو علام الغيوب، أو من وكل إليه بيان القرآن، وهو الرسول الأمين: إنها أحكام مؤقتة، وعموم الشريعة وخلودها يقتضي أنها دائمة، وعلى ذلك انعقد إجماع المسلمين بعد أن فحصوا عن أسرارها، واستبانوا حكمتها.

وقد اعترف صديق الشيخ في مقاله بأن تقسيم التشريع إلى دائم ومؤقت «أمر جديد لم يظهر إلا في عصرنا»، وإذا صرفنا النظر عن الأهواء الطائشة، والأذواق السقيمة، والنفوس المتسرعة إلى التقليد في غير رشد، لم يعترضنا في التشريع الإسلامي مشاكل، ولم تقم أمامنا عقبة كبيرة ولا صغيرة في سبيل العمل لسد حاجات المسلمين في هذا العصر، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

❐ ❐ ❐



ملاحظات على مقال مولد النبي ﷺ (١)

نشر الأستاذ علي عبد الرازق في جريدة «الأخبار» يوم المولد الشريف مقالاً عنوانه: مولد النبي(٢)، واطلعت على هذا المقال، ولا حظت فيه أشياء

(١) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد الثامن من السنة الثامنة الصادرة في ربيع الثاني ١٣٧٤ ـ ديسمبر ١٩٥٤.

(٢) كتب علي عبد الرازق رداً على هذه الملاحظات في مجلة «لواء الإسلام» العدد العاشر من السنة الثامنة. وقد اطلع الإمام محمد الخضر حسين على الرد، فأعقبه بالكلمة التالية: «كتب الأستاذ علي عبد الرازق مقالاً عنوانه: مولد النبي، ونشره في جريدة «الأخبار» يوم المولد، وهو الذي يتذكر فيه المسلمون عظمة رسول الله ﷺ، وسيرته المنقطعة النظير، بانياً على ما قاله في كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وزاد عليه الحديث في معجزات النبي ﷺ، فكتبنا على المقال ملاحظات كنا نحسب أن الأستاذ يدفع الملاحظات التي أوردناها بنصوص شرعية، أو أصول علمية، فيكفينا الله عاقبة الخلاف، أو يقر ما ذكرناه في الملاحظات، والرجوع إلى الحق فضيلة، أو يسكت، فيكون كل منا أبدى رأيه، والناس ينظرون ماذا يروون. ولكنه كتب مقالاً أظهر به أنه رد الملاحظات التي أورناها في «لواء الإسلام»، وخرج فيه إلى أشياء غير علمية، وليس من شأننا أن نخوض فيها مع الخائضين، فيضيع الحق بيننا، والقراء المنتبهون يعرفون الواقع، والتاريخ الصحيح من ورائهم شهيد بذلك». =

أردت أن أنبه القارئ عليها لتتم الفائدة المقصودة من المقال، واخترت أن أنفل العبارة التي أبدي عليها الملاحظة بنصها؛ ليشاركنا القارئ في النظر فيها، ونكون للأستاذ صاحب المقال من المنصفين.

قال الأستاذ في صدر مقاله: «قد يلاحظ بعض الباحثين أن ميلاد محمد ﷺ قد تم على وفق السنن الطبيعية التي بنى الله عليها هذا الكون، وأجرى عليها نظام الحياة بين جميع البشر، فلم يقترن ميلاده بالمعجزات الصادعة التي اقترن بها ميلاد عدد من إخوانه السابقين من الرسل، ولاسيما موسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ».

أراد الأستاذ من بعض الملاحظين: نفسَه؛ فإنه حكم في هذه الدعوى الخطيرة في أسلوب جديد؛ ليقبل الناس على سماعها، وإن لم يعقبها بدليل معقول.

حُفّ ﷺ في مولده إلى بعثته بألطاف إلهية، وهذا المظهر المشمول بالعناية كافٍ في سماع دعوى الرسالة. على أن المحدِّثين رووا أحاديث منها ما هو صحيح فيما وقع قبل الرسالة من إرهاصات، وإذا لم تتواتر، فلعدم الحاجة الملحة إلى روايتها بالتواتر. فالمدار على أن يكون دليل صدق الرسالة قاطعاً، وهو المعجزة المقارنة للدعوى.

= وإن الإطلاع على رد علي عبد الرازق، وما تضمنه من كلمات خارجة عن نطاق البحث العلمي، ورد الشيخ الخضر ـ رضوان الله عليه ـ يعطي صورة رائعة للأخلاق النبوية التي يتحلى بها الإمام الشيخ الخضر، ويوضح الفرق الشاسع بين أهل العلم والمعرفة والاتزان، وبين غيرهم. علماً أن هذا البحث للإمام نشر في كتاب (دراسات في الشريعة الإسلامية) الذي تضمن جميع مقالات الإمام في مجلة «لواء الإسلام».

قال الأستاذ: «هنالك روايات آحاد تروى عن إرهاصات صحبت مولد محمد ـ عليه السلام ـ، وسواء أصحّت هذه الروايات كلها، أو بعضها، أو لم يصح شيء منها، فإنها لم تبلغ من قوة السند، ولا من قوة الإعجاز ما بلغته الروايات عن مولد عيسى وموسى».

المدققون في فهم عبارات المؤلفين يرون أن الأستاذ تكلم على الأحاديث التي رويت في إرهاصات مولد محمد ـ عليه السلام ـ، وذكر لها ثلاثة احتمالات: إما أن تصح كلها، أو يصح بعضها، أو لم يصح منها شيء، وربط هذه الاحتمالات الثلاثة بأنها لم تبلغ في قوة السند وقوة الإعجاز ما بلغته الروايات عن مولد عيسى وموسى، مع أنه على الاحتمال الثالث، وهو أنه لم يصح منها شيء، لا يقال: إنها لم تبلغ في قوة السند ما بلغته الروايات عن مولد عيسى وموسى.

قال الأستاذ: «وإذا نحن جاوزنا فترة الميلاد إلى ما بعدها من أطوار حياة محمد كلها، وجدنا أن حياته كانت أيضاً في هذه الأطوار تسير على وفق السنن الطبيعية التي بنى الله عليها هذا الكون، وأجرى عليها نظام الحياة البشرية، فلم تقترن بالمعجزات الصادعة التي اقترنت بها حياة عدد من إخوانه السابقين من الرسل، ولا سيما موسى وعيسى»..

ثم ذكر الأستاذ ما قصه القرآن الكريم من معجزات موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ، وقال: «لم يجئ محمد أصحابه بمثل تلك المعجزات الصادعة التي تدهش العقول، وترج القلوب، وتزعج النفوس».

ذكر القرآن معجزة انشقاق القمر في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ١ ـ ٢].

فالتعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر: ١]، وتعقيبه بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ٢] دليل على أن المراد: ما روي في الصحيح من انشقاق القمر عندما سأل المشركون النبي ﷺ آية على صدقه في دعوى الرسالة.

وقال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء.

وقال السبكي: انشقاق القمر متواتر لا يجوز إنكاره..

وذكر القرآن معجزة الإسراء المشار إليها بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١].

ومعجزة المعراج الثابتة في الصحيح المشار إليها بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[النجم: ١١ - ١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[النجم: ١٧ - ١٨].

وفي الصحيح معجزات وقعت بمحضر الصحابة؛ كتكثير الماء القليل، حتى قال النووي: «وتكثير الماء بلغ مرتبة التواتر»، وتكثير الطعام، وغير ذلك، وعبّر عنها الإمام البخاري بعلامات النبوة، وعبر غيره بآيات النبوة.

والمعجزات تثبت بصحة السند، وصلاح القدرة الإلهية لها، ولا يكفي في نفيها استبعاد الذهن لها؛ إذ هي خارقة للعادة، فلا بد أن يستبعدها الذهن أول بدء، فإذا تامل في صحة سندها، وصلاح القدرة لها، اعترف بها.

قال الأستاذ: «وقد طالبه قومه، وألحوا عليه في الطلب بأن يأتيهم بمثل ما جاء به الرسل من قبله من تلك المعجزات، فكان ـ عليه السلام ـ يدفعهم

بالحجة البسيطة الواضحة التي لا تكد العقل، ولا تخفي على أي ناظر». ثم أورد الأستاذ ثلاث آيات: الأولى قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾[الإسراء: ٥٩]. والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٠٩].

وقد اطلع على هذه الآيات، وتلاها حقَّ تلاوتها المحدِّثون الذين رووا أحاديث المعجزات؛ كالبخاري، ومسلم، وغيرهما من أصحاب السنن، والأئمة؛ كمالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، ورأوها لا تنافي إجراء المعجزات على يد النبي ﷺ، وقصارى ما تدل عليه: أن النبي ﷺ لا يملك المعجزات، وأن الله هو الذي يجريها على أيدي الرسل - عليهم السلام - عندما يرى إجراءها مناسباً لعظمته، وعلم أن الحال يقتضي إجراءها، لا بمجرد اقتراح المشتركين؛ فإن منهم من يقترح المعجزات، وفيه جفاء طبيعة، وعدم استعداد للإيمان بها، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ٢]. ودل بالآية: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ على أنهم يقسمون، ولا يراعون للأيمان عهداً، قال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٠٩].

وقال الأستاذ: «هكذا كان في مولده وفي حياته مستقيماً على قواعد البشرية، منسجماً مع أنظمة الطبيعة، خاضعاً لسنن الكون».

كان محمد ﷺ في ميلاده وحياته كلها كما قال الأستاذ، وهذا لا ينافي أن الله يصونه بألطافه، ويكرمه بالمعجزات؛ ليعلم أنه رسول من الله، فيبطل

انحراف الناس عن البشرية إلى جانب البهيمية، وانسجامهم مع دواعي الطبيعة غير الفطرية، وخضوعهم لمن لا يتعظ بسنن الله الكونية.

قال الأستاذ: «فالصلاة كتاب على المؤمنين موقوت، ولكن ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا».

الآية أصلها: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾[النساء: ١٠١].

فذكر الأستاذ السبب الثاني للقصر من الصلاة، وهو خوف فتنة الذين كفروا، وتركَ السبب الأول لقصرها، وهو الضرب في الأرض؛ أعني: السفر إلى بلد آخر.

قال الأستاذ: «والصيام مكتوب على المسلمين، ولكن على الذين يطيقونه فدية طعام مساكين».

لا أعلم أحداً من المسلمين يقول: إن يطيقونه بمعنى: يستطيعونه، وتبقى عنده الآية باقية على حكمها. وأكثر العلماء على أن الآية منسوخة بالآية بعدها؛ أعني: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة: ١٨٥].

كما روى الإمام البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أصحاب النبي ذلك، ومن لا يقول بنسخ الآية يفسر يطيقونه على وجه يلتئم بما هو مقرر في الشريعة من أن صيام رمضان فرض على كل مسلم ومسلمة، إلا من استثنتهم الشريعة ناظرة إلى المشقة التي تلحقهم بالصيام.

ذكر الأستاذ هنا الصلاة والصيام والحج، ولم يذكر الزكاة؛ لأنه لا يراها من الدين، فقال في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، وهو يتحدث عن الزكاة والجزية والغنائم: «ولا شك أن تدبير المال عمل ملكي، بل هو أهم مقومات

الحكومة على أنه خارج عن وظيفة الرسالة من حيث هي، وبعيد عن عمل الرسل باعتبارهم رسلاً فحسب».

والزكاة وردت في القرآن غالباً مع الصلاة، والفقهاء يجعلون للزكاة باباً مستقلاً، ويذكرون الجزية والغنائم في باب الجهاد.

وعلماء الإسلام المنبثون في الشرق الغرب من عهد النبوة إلى عصرنا هذا المجتهدون يستندون في تقرير الأحكام العملية إلى الكتاب، أو السنّة، أو الأصول المستمدة منهما، والتابعون لمذهب إمام يعرفون أن إمامهم يستند في الأحكام العملية إلى الأصول الثلاثة. فالمجتهدون وتابعوهم يعلمون أن الأحكام تستند إلى الشريعة نصاً، أو استنباطاً، والمرجع في أمور الدين إلى علمائه الذين يدرسونه بحق، ويخلصون لله في دراسته. وليذكر لنا الأستاذ واحداً من العلماء قال: إن الخلافة والقضاء ونحوهما ليست من الدين في شيء.

واقتصر الأستاذ في ذكر مطالب الشريعة على الصلاة والصيام والحج، ولم يذكر أحكام المعاملات؛ لأنه أخرج الأحكام العملية من نظر الوحي، فقال في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»: «والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية، كلا، ولا القضاء، ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها، ولم ينكرها، ولا أمر بها، ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا، نرجع فيها إلى أحكام العقل، وتجارب الأمم، وقواعد السياسة».

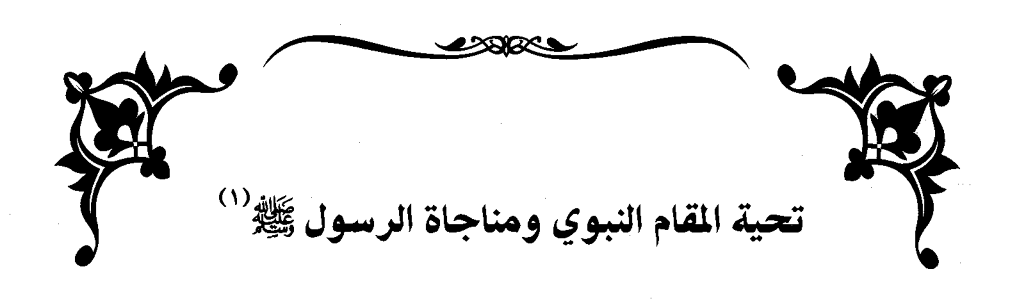
وقد كتبنا في رد هذا الرأي وما قبله في كتاب «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم».

واستدل الأستاذ بالآيات القرآنية، ولم يذكر أن القرآن معجزة؛ لأنه بسبيل نفي المعجزة عن النبي ﷺ، وقد أجمع المسلمون على أنه معجز للخلق كافة، وقد صرح القرآن نفسه بأنه معجز، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣].

وتحدث الأستاذ من المنهج الجديد، وقال: «بطلت الحاجة إلى المعجزات، وقام مقامها حكم العقل، وسلطان العلم والنظر، وبذلك تمت الآية الكبرى لمحمد بن عبدالله».

إن الإسلام انتشر، وقبلته الطبائع البشرية الصافية، وهم يطالعون في كتب الأئمة المحدثين والفقهاء والمتكلمين معجزات النبي ﷺ، والأحكام التي جاء بها، فلا تزيدهم إلا إيماناً واطمئناناً. وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩] قد يراد بالآيات: الزلازل، والرعد القاصف، والبرق الخاطف؛ لأنه يذكر بحوادث الساعة، وقد يراد بالآيات: المعجزات؛ لأنه ينشأ عن مشاهدتها إنذار بأن عذاب الله في الآخرة لمن لم يذعن بها.

❐ ❐ ❐



تحية المقام النبوي ومناجاة الرسول ﷺ[1]

«من قصيدة ألقاها أمام المقام النبوي سنة ١٣٣١هـ»

أُحَيِّيكَ والآماقُ تُرْسِلُ مَدْمَعا ... كأنِّيَ أَحْدو بالسَّلامِ مُوَدِّعا[2]

وما أَدْمُعُ البُشْرى تَلوحُ بِوَجْنَةٍ ... سِوى ثَغْرِ صَبٍّ بالوِصالِ تَمتَّعا

وَقَفْتُ بِمَغنًى كانَ يا أشْرَفَ الوَرى ... لِطَلْعَتِكَ الحُسْنى مَصيفاً ومَرْبَعا[3]

فَذا مَوْقِفٌ لا مَسْتُ فيهِ بأَخْمُصي ... أَجَلَّ مِنَ الدُّرِّ النَّضيدِ وأرْفَعا[4]

وذلِكَ مَرْقًى كُنْتَ تَصْدَعُ فَوْقَهُ ... بِما حازَ في أقْصى البَلاغَةِ مَوْقِعا

وذاكَ مُصَلًّى طالَما قُمْتَ قانِتاً ... بِهِ، ويَقومُ الصَّحْبُ خَلْفَكَ خُشَّعا[5]

وذي حُجْرَةٌ كانَ الأمينُ يَؤُمُّها ... بِوَحْيٍ فَكانَتْ للشَّريعَةِ مَنْبَعا

---

(١) ديوان الإمام محمد الخضر حسين «خواطر الحياة».

(٢) الآماق: جمع المأق: مجرى الدمع من العين.

(٣) المغنى: المنزل. المصيف: المكان يقيمون فيه صيفاً. المربع: الموضع يُقام فيه فصل الربيع.

(٤) الأخمص: القدم، أو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

(٥) القانت: القائم بالطاعة، الدائم عليها، والمصلي.

وَأَرْوَعُ مـا شَـقَّ الْفُـؤادَ بِحَـسْرَةٍ ... وَهاجَ بِهِ الأشْـجانَ حَتّـى تَقَطَّعـا

تَخاذُلُ حالِ المُسْلِمينَ وما أتـى ... مِنَ الخَطْبِ في أرْجائِهِمْ وَتَجمَّعا

ومـا شـأْنُنا إلاّ كَعِقْـدٍ تَنـاثَرَتْ ... جَواهِرُهُ في سَطْحِ أحدَبَ أَنْزَعا[١]

فَهـذا يُحـاذي فـي قَـضاياهُ نَزْعـةً ... تَخُطُّ وَراءَ الحَقِّ للنّاسِ مَرْتَعـا[٢]

وهذا يَصوغُ الْقَوْلَ في قالَبٍ يُرى ... بِجانِبِـهِ قَـوْلُ الـشَّريعَةِ أوْسَـعا

وذاكَ يُنـادي بالـضَّلالَةِ مـا سِـحاً ... بِـصَبْغَةِ ديـنٍ كَـيْ يَغُـرَّ ويَخْـدَعا

ونِمْنـا علـى الآذانِ نَوْمَـةَ جاهِـلٍ ... بِمـا يَـضَعُ المُـسْتَيْقِظونَ لِنُـصْرَعا

ولَمْ نَسْتَفِقْ للْقَـومِ حتّـى تَحَفَّـزوا ... وأوْجَسَ كُـلٌّ بَـيْنَ جَنْبَيْـهِ مَطْمَعـا

ولَمْ نَسْتَفِقْ للْقَومِ إذْ كُـلٌّ انتَـضى ... لِيَظْفَرَ باسْـتِعْبادِنا الـسَّيْفَ مَقْرَعـا

ولَمْ نَسْتَفِقْ للقارِعاتِ وقَـدْ دَنَـتْ ... إلى مُهْجَةِ الإسْلامِ حتّـى تَـصَدَّعا

وفي النّاسِ مَنْ حاكَ الأياسُ بِصَدْرِهِ ... فَجَـرَّدَ أفْـراسَ الجِهـادِ وأقْلَعـا

ونَدْبٌ دَرى صَرْفَ اللَّيالي وأنَّهـا ... تُـزَلُّ بِـأعْلامٍ وتُـونِسُ بَلْقَعـا[٣]

فَقـامَ عَلـى جِـدٍّ يُهيـبُ بِقَوْمِـهِ ... لِيَرْفَـأ فَتْقـاً أوْ يُـشَيِّدَ مَـصْنَعا[٤]

---

(١) الأنزع: الذي انحسر الشعر عن جانبي جبهته، والمقصود: الأملس.

(٢) النزعة: نزع إلى الشيء: ذهب إليه، يقال: له نزعة إلى كذا. المرتع: الموضع الذي يتنعم فيه.

(٣) الندب: السريع إلى الفضائل. تونس: أي: تؤنس، يقال: أنس به: ألفه، وسكن قلبه به. البلقع: الأرض القفر التي لا شيء فيها.

(٤) رفأ: أصلح.

يَقـولُ أنـاسٌ إنَّمـا الـدِّينُ عَثْـرَةٌ   بسابِلَةِ العُمْرانِ تَهْوي بِمَنْ سَعى[1]

رمَى بِهِمُ التَّقْليـدُ فـي إثْـرِ مُلْحِـدٍ   ولم يكْشِفوا عن مِيسَم الحَقِّ بُرْقُعا[2]

تجَلَّيْتَ في شَعْبٍ جَرى في عُروقِهِ   دَمُ الكِبْـرِ وارْتـادَ الغَوايَـةَ إمَّعـا[3]

تَجَلَّيْتَ والبَغْضاءُ تَشْوي صُدورَهُمْ   بنـارٍ فَأَصْـلَتْها قُلوبـاً وأضْـلُعا

فَلَقَّنْتَهُمْ كَيْفَ الطُّموحُ إلـى العُـلا   إلى أنْ عَلَوا فَوْقَ السِّماكَيْنِ مَطْلَعا[4]

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ ما انْـسَجَمَ الحَيَـا   وحَيَّـا صَـباحٌ بالـضِّياءِ وَوَدَّعـا

□ □ □

(١) السابلة: الطريق المسلوكة.

(٢) الميسم: أثر الجمال، يقال: امرأة ذات مِيْسَم؛ أي: ذات حسن وجمال. البرقع: ما تستر به المرأة وجهها.

(٣) الإمَّع والإمَّعَة: الرجل يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت على شيء.

(٤) السماكان: كوكبان نيران يقال لأحدهما: السماك الرامح، والآخر: السماك الأعزل.



ذكرى المولد[1]

«قيلت في احتفال جمعية الهداية الاسلامية بذكرى المولد النبوي سنة ١٣٥٩هـ»

أَمِــنْ خَفَقَــانِ أفْئِــدَةٍ رِقــاقِ ... تألَّقَــتِ المَـدامِعُ فـي المَـآقي[2]

إذا أهْـدَتْ يَـدُ الإقْبـالِ بُـشْرى ... تَلَقَّتْهــا الــضَّمائِرُ باخْتفــاقِ[3]

كمـا اهْتَـزَّتْ غُـصونٌ لاعَبَتْهـا ... جَنــوبٌ باعْتِنــاقِ وانْطِــلاقِ[4]

وأرْشَـفَها الرَّبيـعُ نَـدًى فَطابَـتْ ... رُباهــا لاصْـطِباحٍ واغْتِبــاقِ[5]

لِلَيْلَتِنــا الفَخــارُ إذا اللَّيــالي ... تَباهَـتْ بالمَحاسِـنِ والمَراقـي[6]

أشـارَتْ بالمَغيـبِ عَلـى ذُكـاءٍ ... وجاءَتْ بالكَواكِبِ في اتِّـساقِ[7]

---

(١) ديوان الإمام محمد الخضر حسين «خواطر الحياة».

(٢) تألقت: لمعت. المآقي: جمع مأق: مجرى الدمع من العين.

(٣) الضمائر: القلوب والبواطن. اختفاق: خفقان.

(٤) الجنوب: الريح المقابلة للشمال.

(٥) الاصطباح: شرب الصبوح. الاغتباق: شرب الغبوق.

(٦) المراقي: جمع المرقى، والمرقاة: الدرجة.

(٧) ذكاء: الشمس.

ومَـدَّتْ فـي الـسَّماءِ البَـدْرَ كَفَّـاً — تُديرُ الأُنْسَ بالكَـأْس الـدِّهاقِ[1]

ولَـــوْ أرْخَـــتْ ذُؤابَتَهـــا لَقُلْنـــا — خُذوا هذا السَّوادَ إلى الحِـداقِ[2]

ذَكَرنْـــا إذْ تَقَلَّـــدَتِ المَعـــالي — حُـساماً قَـدْ تَهَيّـأَ لامِتـشاقِ[3]

ذَكَرْنـــا كَيْـفَ لاحَ جَبِـينُ طـه — وَهَــبَّ الفَجْــرُ يُـؤذِنُ بِانْبِـثاقِ

كــأَنَّ الفَجْــرَ والمِــيلادَ جــاءا — لإجْــلاءِ الظَّــلامِ علــى اتِّفــاقِ

ألا مَـــنْ مُبْلِـــغٌ قَمَـــراً تَـــوارى — وَسـاطِعُ نـورِهِ فـي النَّـاسِ بـاقِ

سَـــلاماً كالــصَّبا مَــرَّتْ بِــرَوْضٍ — وَلاقَتْهـــا الكَمـــائِمُ بانْفِتـــاقِ[4]

أرومُ مَديحَـــــهُ وَإخـــالُ أَنِّـــي — سَأَحْظى مِنْـهُ بالـسَّيْلِ الـدُّفاقِ[5]

فَيَبْهَرُنـــي عُـــلاهُ كـــأَنَّ فِكْـــري — تَوَثَّــبَ وَهُــوَ مَـشْدودُ الوَثـاقِ

تَملَّـــى نـــورَهُ صَـــحْبٌ فـــأَغْنَوْا — غَناءَ النَّجْمِ في الظُّلَمِ الـصِّفاقِ[6]

نُفُــوسٌ أَخْـصَبَتْ هَـدْياً وَأَدْنَـتْ — إلى الـدُّنْيا جَنًى عَـذْبَ المـذاقِ

تَحَلَّــتْ بالَمكــارِمِ وَهِــيَ أَغْلــى — مِنْ الحُلْي المُخَبَّأ في الحِقـاقِ[7]

---

(١) الكأس الدهاق: الممتلئة.

(٢) الذؤابة: الضفيرة من الشعر. الحداق: جمع حدقة: سواد العين الأعظم.

(٣) الامتشاق: امتشق السيف: استله؛ أي: أخرجه من غمده.

(٤) الصّبا: ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.

(٥) السيل الدفاق: الذي يملأ جنبي الوادي.

(٦) الظُّلم: جمع ظلمة: ذهاب النور. الصفاق: جمع الصفيقة: الكثيفة.

(٧) الحقاق: جمع الحق: الوعاء.

وتُـؤْثِرُ غَيْرَهـا بـالزَّادِ زُهْـداً ... وتَقْنَـعُ فـي المَعيـشَةِ بالرِّمـاقِ
ولا تَرْضى إذا خُطِبَتْ خِصالُ الْـ ... ـعُلا إلاَّ بِغالِيَـةِ الـصَّداقِ
سَراةٌ أحْكَموا الإصْلاحَ عِلْماً ... وَهَبُّوا لِلْجِهادِ على وِفاقِ[1]
دَعَوْا والحجَّةُ الغَرَّاءُ تَهْدي ... إلى سُبُلِ الحَقائِقِ مَنْ تُلاقي
وناصَبَهُمْ خُصومُ الحَقِّ حَرْباً ... فَلاذوا بالمُثَقَّفَةِ الرِّقاقِ[2]
وَهَلْ يُجْدِي الأصَمَّ بَيانُ قُسٍّ ... وَهَلْ يَشْفي أَخا الأَمْواتِ راقِ[3]
فَكَمْ شَرَعُوا الأَسِنَّةَ في كِفاحٍ ... وَكَمْ مَلَؤُوا الأعِنَّةَ في سِباقِ[4]
وإنْ قاموا قُنوتاً لَمْ يُقاسُوا ... بِغَيْرِ مَلائِكِ السَّبْعِ الطِّباقِ
هُمُ الأعْلامُ إنْ طَمَحَتْ نُفوسٌ ... إلى عَلْياءَ واسِعَةِ النِّطاقِ
ولا أدْري أقَوْمِيَ في سُباتٍ ... فَأَرْجو صَحْوَهُمْ أمْ في سِياقِ[5]
فَأَشْياعُ الضَّلالِ اليَوْمَ صالوا ... بِأَلْسِنَةٍ وأقْلامٍ حِماقِ[6]

---

(١) السراة: سادة القوم ورؤساؤهم، جمع السريّ.

(٢) المثقفة: الرماح.

(٣) قس: (. . . ـ نحو ٢٣ ق. هـ) قس بن ساعدة من بني إياد، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، يقال: إنه أول عربي خطب متوكئاً على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه: «أما بعد».

(٤) الأعنة: جمع عنان: سير اللجام الذي تُمْسَك به الدابة.

(٥) السبات: النوم. السياق: نزع الروح.

(٦) الأشياع: الأتباع والأنصار. حماق: جمع أحمق.

وَهُـمْ مـا بَـيْنَ إلْحـادٍ وَقـاحٍ وإلْحـادٍ تَقَنَّـعَ بالنِّفـاقِ[١]

وإنْ شَـؤُمَ النُّعـاقُ فَمـا أزاغُـوا بـهِ الْفَتيـاتِ أشْـأَمُ مِـنْ نُعـاقِ[٢]

فَمِـنْ قِـصَصٍ تُعـاطي قارئيهـا شَـراباً ديـفَ بالـسُّمِّ الزُّعـاقِ[٣]

ومِنْ صُـوَرٍ تُثيـرُ هَـوًى وتَحْـدو نُفوسـاً كالبُـدورِ إلـى مُحـاقِ[٤]

أمـا لِـشَبابِ أحْمَـدَ أنْ يَـذودوا خُطوباً كالمَطاعِنِ في التَّراقـي[٥]

ويَرْمـوا لِلـسِّيادَةِ عَـنْ قِـسِيٍّ مِنَ الإيمـانِ والتَّقْـوى رِشـاقِ[٦]

كَفَى ما قَـدْ خَـسِرْنا مِـنْ شَـبابٍ رَأَوْا سُوقَ الخلاعَةِ فـي نَفـاقِ[٧]

فَغادَوْهـا، وكيـفَ تـرى فَراشـاً تهافَتَ في لَظى النّـارِ الحِـراقِ[٨]

ومـا لِلـنَّفْسِ إنْ رَكِبَـتْ هَواهـا وحَطَّتْ في المجانَةِ من خَـلاقِ[٩]

هـي الـشَّكوى يُرَدِّدُهـا لِـسانٌ ومـا بـينَ الجـوانِحِ فـي احْتِـراقِ

---

(١) الوقاح: ذو الوقاحة للذكر والأنثى.

(٢) النعاق: صياح الغراب. أزاغوا الشيء: أمالوه.

(٣) ديف: خُلط. الزّعاق: المر الغليظ.

(٤) المحاق: آخر الشهر القمري، أو ثلاث ليال من آخره.

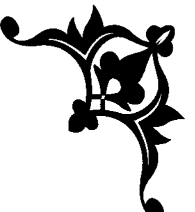
(٥) التراقي: جمع الترقوة: العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، أو أعلى الصدر.

(٦) القسي: جمع القوس.

(٧) نفاق: يقال: نفقت السلعة: أي: كثر طلبها.

(٨) فغادوها: باكروها. نار حراق: لا تبقي شيئاً.

(٩) المجانة: الهزل. الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

ذكرى المولد النبوي[1]

«قيلت في الاحتفال بالمولد النبوي سنة ١٣٤٨هـ»

حَـيِّ ذاكَ الْبَـدْرَ بـالزَّهْرِ النَّظـيمِ ... وامْــلإِ الجَفْــنَ بِمَــرْآهُ الوَسـيمِ

إنَّــهُ يَحْكـي مُحَّيـا المُـصْطَفَى ... إذْ بَدا بَيْنَ المُـصَلَّى والحَطـيمِ[2]

إنْ تكُــنْ يــا بَــدْرُ تَزْهــو بِـسَناً ... يُرْشِدُ السَّاريَ في اللَّيْلِ الْبَهيمِ[3]

فَــسَنا أحْمَــدَ يَهْــدي أُممــاً ... ويُريهــا سَــنَنَ العِــزِّ المُقـيمِ

عُــجْ بِــرَوْضٍ بــاكَرَ الطَّــلُّ بِــهِ ... دَوْحَ وَرْدٍ هَـزَّهُ كَـفُّ النَّـسيمِ[4]

تَلْقَ في الرَّوْضِ شَـذاً يُـشْبِهُ ما ... لِنَبِــيِّ اللهِ مِــنْ خُلْــقٍ كَـريمِ

إنْ تَكُنْ يـا رَوْضُ يَزْهـوكَ جَنًـى ... هُوَ زَهْوُ الْعَـيْنِ أوْ عِطْـرُ الـشَّميمِ

فَلِطَــــهَ كَلِـــمٌ يَـــسْلو بِهـــا ... عاشِـقُ الحِكْمَـةِ عَـنْ كُـلِّ نَعـيمِ

---

(١) ديوان الإمام محمد الخضر حسين «خواطر الحياة».

(٢) الحطيم: جدار حِجْر الكعبة.

(٣) الساري: الذي يسير عامة الليل. البهيم: الأسود.

(٤) عجْ: يقال عاج بالمكان: أقام به.

إنْ تَـرَ العَـضْبَ بِيُمْنـى بَطَـلٍ ... هَـزَّهُ بَـيْنَ قَتيـلٍ وَكَلـيمِ[١]

فَـاذْكُرِ العَـزْمَ الَّـذي لاقـى بِـهِ ... خـاتَمُ الرُّسْـلِ أَذى كُـلِّ زَنـيمِ[٢]

غَيْرَ أَنَّ العَـضْبَ يَقْـضي مُرْغماً ... في الوَغى حاجَـةَ جَبَّـارٍ نَهـيمِ[٣]

يـا خَـصيماً لِهُـدى أَحْمَـدَ مـا ... لِخَصيمِ الحَـقِّ مِـنْ قَلْـبٍ سَـليمِ

دُونَـكَ التَّـاريخُ لا تُبْقـي مَـدًى ... في حَديث إنْ تَـشَأْ أَوْ فـي قَـديمِ

هَـلْ رَأى النَّـاسُ كِتابـاً عَجَبـاً ... مِثْلَ ما يُتْلى مِنَ الذِّكْرِ الحَكـيمِ؟

وَيْـحَ قَـوْمٍ سَـحَرَتْ أَعْيُـنَهُمْ ... هـذِهِ الـدُّنيا بِمَرْعاهـا الـوَخِيمِ[٤]

غَرِقـوا فـي لَهْوِهـا واتَّخَـذوا ... مِنْ مُـوالاةِ الهَـوى أَشْـقى نَـديمِ

نَكَـروا القُـرآنَ بالـذَّوْقِ الَّـذي ... يُـؤْثِرُ الـذَّرَّ علـى الـدُّرِّ اليَتـيمِ[٥]

دَعَـوُا الإلْحـادَ إصْـلاحاً وَهَـلْ ... يَعْرِفُ الإصْـلاحَ ذُو ذَوْقٍ سَـقيمِ

ورَسُـولُ اللهِ هـادٍ لِلْعُـلا ... مُنْـذِرٌ عاقِبَـةَ الفِعْـلِ الـذَّميم

مَثَـلٌ أَعْلـى لِـنَفْسٍ جَمَعَـتْ ... سَطْوَةَ العادِلِ فـي أُنْسِ الحَلـيمِ

عِـزَّةٌ قَعْـساءُ فـي أَسْـنى تُقًـى ... هِمَّـةٌ شَـمَّاءُ فـي قَلْـبٍ رَحـيمِ[٦]

---

(١) العضب: السيف القاطع. الكليم: الجريح.

(٢) الزنيم: الدعي اللئيم.

(٣) النهيم: ذو النهم: وهو إفراط الشهوة في الطعام.

(٤) ويح: كلمة ترحم وتوجع، وقيل: هي بمعنى: ويل. الوخيم: غير موافق.

(٥) الذر: صغار النمل.

(٦) عزة قعساء: أي: ثابتة منيعة.

هُـــوَ إذْ يُرْهِـــفُ حَـــدّاً لِلَّـــذي | عاثَ أَوْ يَأذَنُ في حَرْبِ الخَصيمِ[1]
لَـــم يُـــرِدْ إلاَّ سَـــلاماً ســـائِداً | واعْتِـزازاً لِـذَوي الـدِّينِ القَـويمِ
إنْ تَكُـنْ تَعْجَـبُ فَاعْجَـبْ لِيَـدِ | لَبِـسَتْ قُفَّـازَ أَفَّـاكٍ أثـيمِ[2]
كَتَبَـــتْ تَـــزْعُمُ مِـــنْ شَـــقْوَتِها | أنَّـهُ لَـمْ يَـكُ بالـشَّخْصِ العَظـيمِ
عَلِّموهـــا أنَّـــهُ أعْظَـــمُ مَـــنْ | سَارَ في النَّاسِ على هذا الأديمِ[3]
صـاحبَ الرَّوْضَـةِ فـي طَيْبَـةَ نَـمْ | آمِناً طُغْيانَ ذا الخَطْبِ الجَسيمِ[4]
إنَّ فـي الـشَّرْقِ رِجـالاً نَهَـضوا | يَقْرَعُونَ الخَطْبَ بالعَزْمِ الـصَّميمِ
لا يُبـــالونَ إذا مـــا جاهَـــدوا | غَـضَبَ الغاشِـمِ أوْ كَيْـدَ اللَّـئيمِ
قَـــدَّسَ اللهُ ثَـــرى قَبْـــرِكَ مـــا | نَفَـحَ القُـرآنُ بِالْهَـدْيِ العَمـيمِ
وأقـــامَ العِلْـــمُ آيـــاتٍ عَلـــى | أنَّـــهُ تَنْزيـــلُ خـــلاَّقٍ حَكـــيمِ

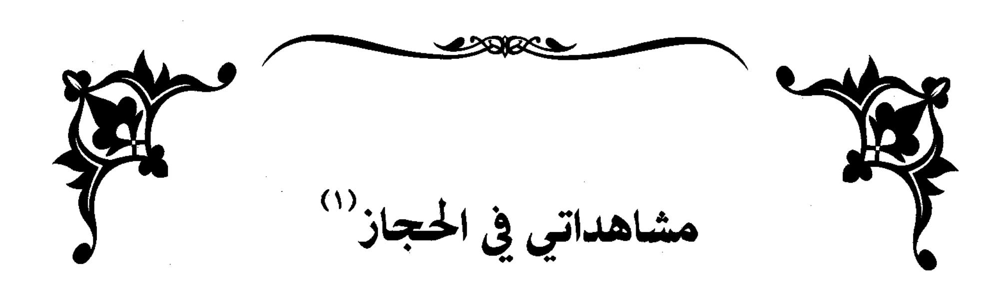
❒ ❒ ❒

(١) عاث في الشيء: أفسده. الخصيم: المخاصم.

(٢) اليد: يريد بذلك ما كتبه علي عبد الرازق في جريدة «السياسة» بالقاهرة يوم ١٢ ربيع الأول ١٣٤٦هـ. وقد رد عليه صاحب الديوان بمحاضرة تحت عنوان: «العظمة». انظر الرد في هذا الكتاب.

(٣) الأديم: الأرض.

(٤) طيبة: اسم المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ.



مشاهداتي في الحجاز[1]

أَلمَجــدِ لا يَنــالُ الْقــاطِنينْ وَدِّعَ الصَّحْبَ وحَيَّا الظَّاعِنينْ[2]

شــامَ فــي وِجْهَتِــهِ يُمْنــاً وَلَـوْ زَجَـرَ الطَّيْـرَ لَمَـرَّتْ بـاليَمينْ[3]

لا تَلومـا فـي النَّـوى مَـنْ هاجَـهُ لِلنَّوى لا عِجُ شَوْقٍ في الْكَنينْ[4]

شـاقَهُ الْبَيْـتُ وَقَبْـرُ المُـصْطَفى ورُبــوعُ الخُلَفــاءِ الرَّاشِــدينْ[5]

سارَ شَوْطاً وَهْـوَ لا يَـدْري أفـي حُلُـمٍ أمْ فـي زَمـانٍ لا يَخـونْ

ذَكَرَ «الخِضْرَ» و«موسى» إذْ أتـى مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ مُرْتادَ السَّفين[6]

---

(١) ديوان الإمام محمد الخضر حسين «خواطر الحياة».

(٢) الظاعن: السائر.

(٣) شام البرق: نظر إليه أين يقصد، وأين يمطر. اليمن: البركة. زجر الطير: تفاءل به، يقال: فلان يزجر الطير: أي: يعافها، وهي أن يرمي الطائر بحصاة، أو أن يصيح به، فإن ولاه في طيرانه ميامنة، تفاءل به، وإن ولاه مياسرة، تطير منه. والشاعر يقول: لو زجر الطير، فهو لم يزجرها؛ لأن ذلك ضرب من الطيرة المنهي عنه.

(٤) النوى: البعد. الكنين: المستور، ويراد به: القلب والضمير.

(٥) شاقه الحب: شوقه إليه. البيت: الكعبة المشرفة بيت الله الحرام.

(٦) الخضر: صاحب النبي موسى ـ عليه السلام ـ. موسى: النبي موسى ـ عليه =

رَكِبَ «الطائِفَ» يَطْوي الْبَحْرَ في جَذَلٍ والبَحْرُ كالشَّيْخِ الرَّزينْ[1]

وإذا هَبَّتْ جَنوبٌ طَرَدَتْ ما يُلاقيهِ النَّدامى مِنْ شُجونْ[2]

هُمْ سُكارى ما احْتَسَتْ آذانُهُمْ حِكْمَةَ الْقُرآنِ في نُطْقٍ رَصينْ

وَدَنَوْا مِنْ «رابِغٍ» فَاسْتَبَقوا يَذْكُرونَ اللهَ جَهْراً مُحْرِمينْ[3]

في بَياضٍ ناصِعٍ تَحْسَبُهُمْ بادِئَ الرَّأْيِ زُهوراً في الْغُصونْ

رَسَتِ الطَّائِفُ في «جُدَّةَ» لا بَرِحَتْ «جُدَّةُ» في حِصْنٍ حَصينْ[4]

رَحَلوا في جُنْحِ لَيْلٍ وَأَتَوْا مَكَّةَ الْغَرَّاءَ مِنْ نَحْوِ الحَجونْ[5]

في رضا اللهِ خُطاً خاضوا بِها في حَصًى يَغْبِطُهُ الدُّرُّ المَصونْ

دَخَلوا بَيْتاً حَراماً يَسْتَوي فيهِ ذو التَّاجِ ومُغْبَرُّ الجَبينْ

شاهَدوا الكَعْبَةَ وَهْناً فَجَرَتْ عَبَراتُ الْبِشْرِ مِنْ بَعْضِ الجُفونْ[6]

= السلام ـ. مجمع البحرين: ملتقى بحري فارس والروم.

(١) الطائف: اسم الباخرة التي ركبها الإمام من السويس إلى جدة.

(٢) الجنوب: ريح تقابل الشمال، ومنه: «إذا جاءت الجنوب، جاء معها خير وتلقيح».

(٣) رابغ: بلدة على البحر الأحمر في الطريق بين جدة والمدينة المنورة، يحرم منها الحجاج القادمون من الشام ومصر والمغرب. المحرم: أحرم الحاج أو المعتمر: دخل في عمل حرم عليه به ما كان حلالاً.

(٤) جدة: مدينة على البحر الأحمر، وهي ميناء مكة المكرمة، وباب الحجاج إليها بحراً، وقد أسسها سيدنا عثمان بن عفان، وفيها قبر ينسب إلى حواء أم البشر.

(٥) الحجون: جبل بأعلى مكة المكرمة، عليه مدافن أهلها.

(٦) الوهن: نحو نصف الليل، أو بعد ساعة منه.

مُقْلَــةُ الــدُّنْيا فَــإِنْ أَبْــصَرْتَها	في سَوادٍ فَعُيـونُ الْغِيـدِ جُـونْ[١]
لَثَمـوا مِـنْ رُكْنِهـا الأَيْمـنِ مـا	لَثَمَنْــهُ شَــفَتا طَــهَ الأمــينْ[٢]
هِــيَ بَيْــتُ اللهِ إنْ طـافوا بِهــا	وَهُــمُ أضْـيافُ رَبِّ الْعــالَمينْ
وَرَدوا «زَمْــزَمَ» يَــشْفونَ بهــا	ظَمَأَ الأَكْبـادِ حيناً بَعْـدَ حـينْ[٣]
لَوْ شَفى «عَمْرُو بْـنُ كُلْثـومٍ» بِهـا	غُلَّـهُ عـافَ خُمـورَ الأَنْـدَرِينْ[٤]
صَعِدوا «المَرْوَةَ» مِنْ بعْدِ «الصَّفا»	وَسَــعَوْا للهِ سَــبْعاً راجِلــينْ[٥]
وَقَفــوا فــي «عَرَفــاتٍ» مَوْقِفــاً	يَطْرَحُ الآثامَ مِنْ ماضي السِّنينْ[٦]
إنَّ دَهْــراً طــافَ ســاقيهِ بِمــا	تَــشْتَهي أنفُــسُهُمْ غَيْـرُ ضَـنينْ

(١) مقلة الدنيا: الكعبة المشرفة وهي مجللة بالسواد، شبهها الإمام بعين الدنيا. الجون: جمع الجوْن: السود.

(٢) الركن الأيمن: الركن اليماني من أركان الكعبة، وهو إلى جهة المغرب.

(٣) زمزم: هي البئر المعروفة داخل الحرم المكي، قيل: سميت بها لكثرة مائها، يقال: ماء زمزم وزمزام، وقيل: هو اسم علم لها.

(٤) عمرو بن كلثوم: (. . . ـ نحو ٤٠ ق هـ) شاعر جاهلي، ولد في شمال جزيرة العرب، ومات في الجزيرة الفراتية. وكان عزيز النفس فاتكاً شجاعاً.

(٥) الصفا والمروة: يمتد المسعى بين الصفا والمروة إلى الجهتين الشرقية والغربية من المسجد الحرام، وكل منهما عبارة عن سطح مرتفع يصعد إليه بمدرجات قليلة العدد، وبه الميلان الأخضران. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[البقرة: ١٥٨].

(٦) عرفات: مكان اجتماع الحجيج، ويبعد عن مكة المكرمة نحو خمسة وعشرين ميلاً.

هَبَطوا «جَمْعاً» وَقَدْ سادَ الـدُّجى ... وَحَدَوْا مِنْها المَطايا مُـصْبحينْ[١]

هَلْ دَرَى المَـشْعَرُ إذْ عـاجُوا بـهِ ... أنَّهُـمْ جُنْـدُ إمـامِ المُرْسَـلينْ[٢]

نزلوا «خَيْفَ مِنًـى» حَيْـثُ رَمَـوْا ... بالحَصى سَبْعاً عَلى وَجْهِ اللَّعينْ[٣]

وَأتَـوْا «أُمَّ الْقُـرى» فَـاطَّوَّفُوا ... ثُمَّ عادوا «لمنًى» في الْعائِـدينْ[٤]

رَكَعوا في مَسْجِدِ الخَيْـفِ وَهَـلْ ... أحْرَزوا فيهِ ثَـوابَ الخاشِـعينْ[٥]

وَقَـضَوْا حَـقَّ «مِنـىً» وارْتَحَلـوا ... بَعْـدَ أنْ أذَّنَ بالعَـصْرِ أذيـنْ[٦]

سَـلْ «ثَبـيراً» مـا لَـهُ ظَـلَّ بهـا ... مُلْقِيَ الرَّحْلِ وقَد بـانَ القَطـينْ[٧]

أفـلا يَحْمِـلُ مـا نَحْمِلُـهُ ... لِرُبـى طَيْبَـةَ مِـنْ شَـوْقٍ مَكـينْ

دَعْ «ثَبيـراً» قاسِيَ الْقَلْـبِ فَهَـلْ ... تَلْفَـحُ الأشْـواقُ صَـخْراً فَيَلـينْ

هـذِهِ مَكَّـةُ مـا لِلـشَّمْسِ فـي ... صُفْرَةٍ تَحْكي بِهـا وَجْـهَ الحَـزينْ

---

(١) جمع: هي المزدلفة: وسمي جمعاً؛ لاجتماع الناس فيه. الدجى: الظلمة.

(٢) المشعر: المشعر الحرام، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[البقرة: ١٩٨]، وقيل: إن المزدلفة كلها المشعر الحرام. ومعنى المشعر: معلم للعبادة.

(٣) خيف منى: سفح الجبل فيها. اللعين: إبليس.

(٤) أم القرى: من أسماء مكة المكرمة.

(٥) مسجد الخيف: مسجد في منى، وفي الحديث الشريف: «صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً، منهم موسى»، وبه المحراب والمنبر الذي خطب عليه النبي ﷺ.

(٦) الأذين: المؤذن.

(٧) ثبير: جبل بمكة المكرمة، سمي كذلك باسم رجل من هذيل مات فيه، فعرف به، وكان فيه سوق في الجاهلية كسوق عكاظ. القطين: القاطن.

أتُرينـــا والنَّـــوى قَـــدْ أزِفَـــتْ ... كَيْـفَ تَـصْفَرُّ وُجـوهُ النَّـازحينْ

بَلْـــدَةٌ عُظْمـــى وَفـــي آثارِهـــا ... أنْفَـعُ الـذكرى لِقَـوْمٍ يَعْقِلـونْ

شَبَّ فـي بَطْحائِهـا خَيْرُ الـورى ... وشَـبا فـي أُفْقِهـا أسْـمَحُ ديـنْ[١]

إنْ عَزَمْنـا النَّـأيَ عَنْهـا فالـضَّرو ... راتُ قَدْ تُنْئي خَديناً عَنْ خَدينْ[٢]

سـائِقَ الـسَّيَّارَةِ انْهَـضْ نَغْتَـنِمْ ... فُرْصَـــةً نَرْقُبُهـــا منْـــذُ سِـــنينْ

خُضْ بها الْبِيدَ إلـى سَلْعٍ فَلي ... حاجَةٌ في أرْضِ سَلْعٍ وشُـؤونْ[٣]

بَـيْنَ لَيْـلٍ مِثْـلِ أحْـداقِ المَهـا ... ونَهــارٍ مِثْـلِ نَـوْرِ الياسَـمينْ[٤]

أحْمَـــدُ الإدْلاجَ والتَّأوِيـــبَ إذ ... أرَيَاني خيْرَ مـا تَهْـوى الْعُيـونْ[٥]

أمْتَعـا طَرْفـي بِمَـرْأى رَوْضَـةٍ ... أوْدَعــوا تُرْبَتَهـــا خَيْــرَ دَفــينْ

رَوْضَـــةٌ يَـصْبو إلَيْهـا كُـلُّ مَـنْ ... عَـرَفَ الحَـقَّ وبِـالحَقِّ يَـدينْ

شادَها الهـادي عَلـى أُسِّ التُّقـى ... وَتَــلا القُــرآنَ فيهـا جِبْـرَئينْ[٦]

---

(١) بطحاء مكة: ما بين جبليها المسميين بالأخشبين، وهما: أبو قبيس، والأحمر، وذلك صميم مكة، ومن كان يسكن البطحاء هم المحض واللباب من قريش، وكان دونهم من يسكن الظواهر من مكة. شبا: أضاء. أسمح دين: الإسلام.

(٢) الخدين: الصاحب والصديق.

(٣) سَلْع: جبل في ظاهر المدينة.

(٤) المها: جمع المهاة: البقرة الوحشية.

(٥) الإدلاج: السير أول الليل، وربما استعمل للسير آخر الليل. التأويب: السير جميع النهار.

(٦) جبرئين: جبريل ـ عليه السلام ـ.

حَــرَمٌ كَــمْ سُــقِيَتْ حَــصْباؤُهُ ... في دُجى اللَّيْلِ دُمـوعَ القـانِتينْ[١]

فَاسْأَلوا المِحْرابَ عَنْ بَدْرِ الهُدى ... إذْ هَوى يَسْجُدُ في ماءٍ وَطـينْ[٢]

مَعْهَــدُ الحكْمَــةِ لا يَنْبُــتُ فــي ... دَوْحِــهِ إلاَّ الــدُّعاةُ المُــصْلِحونْ

مِـدْرَسٌ لِلْحَـرْبِ لَـمْ يَـرْمِ الْعِـدا ... قَــطُّ إلاَّ بالكُمــاةِ الْفــاتِحينْ[٣]

ثُكْنَــةٌ لِلْجُنْــدِ والقَــضْبِ إذا ... لَم يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الحَرْبِ الزَّبـونْ[٤]

حُجُــراتٌ مُلِئَــتْ طُهْــراً أَمــا ... عَمَّرَتْهــا أُمَّهــاتُ المُــؤْمِنينْ

لُقِّنَــتْ فيهــا حُقــوقٌ أنْقَــذَتْ ... رَبَّــةَ المَنْــزِلِ مِــنْ أَسْــرٍ يَـشينْ

هأنَــذَا فـــي مُقـــامٍ مُــؤْنِسٍ ... كَـسَنا الْبَـدْرِ مَهيـبٍ كـالعَرينْ[٥]

---

(١) الحرم: الحرم النبوي الشريف، ومعنى الحرم: ما لا يحل انتهاكه. الحصباء: الحصى، والواحد حصبة. القانت: القائم بالطاعة والدائم عليها، والمصلي.

(٢) يسجد في ماء وطين: في هذا البيت يلمح الإمام لما ورد في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد ﷺ، قال: اعتكفنا مع النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان، فخرج صبيحة عشرين، فخطبنا وقال: «... إني رأيت أني أسجد في ماء وطين، فمن كان اعتكف مع رسول الله ﷺ، فليرجع»، فرجعنا وما في السماء قزعة (قطعة من سحاب) فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين في جبهته ﷺ.

(٣) المدرس: الموضع الذي يدرس فيه. الكماة جمع الكمي: الشجاع.

(٤) القضب: ما قطعت من الأغصان للسهام والقسي، ويقصد بها: السلاح والعتاد الحربي. حرب زبون: يدفع بعضها بعضاً من الكثرة.

(٥) مهيب: يخافه الناس. العرين: مأوى الأسد.

فَسَلاماً فـي حُضورِ بَعْـدَما ... كـادَ يُزْجيـهِ علـى البُعْـدِ حَنـينْ
جِئْـتَ يـا مُخْتـارُ والْعـالَمُ فـي ... لَيْـلِ جَهْـلٍ وضَـلالٍ ومُجـونْ[1]
فَمَحَـوْتَ الهـزْلَ بالجِـدِّ كمـا ... ذُدْتَ لَيْلَ الْغَيِّ عَنْ صُبْحِ الْيقـينْ
وَأَقَمْـتَ الْعِلْـمَ صَـرْحاً شـامخاً ... وصَرَعْتَ الجَهْلَ طَعْناً في الوَتينْ[2]
سُـسْتَ أقْوامـاً فَـساسُوا أَممـاً ... بيَـدِ الإنْـصافِ فـي حَـزْمٍ وَلِـينْ
وقَــضَوْا فيهـا بِــشَرْعٍ قَـيِّمٍ ... فأَرَوْهـا كَيْـفَ يَقْـضي الْعـادِلونْ
«خـاتَمَ الرُّسْـلِ» أَلَـم يَأْتِـكَ مـا ... حَـلَّ بالأُمَّـةِ مِـنْ خَطْـب مُهـينْ
وَيْلَهـا مِـنْ مُرْهِـقٍ فـي عَلَـنٍ ... وَخَؤونٍ في ثِيـابِ النَّاصِـحينْ[3]
لَيْـتَ قَوْمـاً وَرِثـوا هَـدْيَكَ لَـمْ ... يُغْمِضوا عَنْ مُوبِقاتِ المْتَرَفينْ[4]
لَيْـتَ قَوْمـاً وَرِثـوا الرَّايَـةَ قَـدْ ... فَطِنـوا لِلـدَّاءِ والـدَّاءُ كَمـينْ[5]
دِينُـكَ الوَضَّـاءُ ثـارَتْ حَوْلَـهُ ... غُبْـرَةٌ مـن شُـبُهاتِ المُبْطِلـينْ[6]
مِـنْ يَـدٍ تَرْميـهِ فـي رَأْدِ الـضُّحَى ... ويَدٍ تَرْميهِ مِنْ خَلْـفِ الـدُّجونْ[7]

---

(١) المجون: الهزل، يقال: مجن الرجل مجوناً: كان لا يبالي قولاً وفعلاً.

(٢) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(٣) المرهق: الحاكم الظالم الجائر الذي يحمل الأمة ما لا تطيق. الخؤون: الخائن.

(٤) الموبقات: المعاصي.

(٥) الكمين: الداخل في الأمر لا يفطن له.

(٦) الغبرة: الغبار.

(٧) رأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء في الخمس الأول، وذلك شباب=

وَلَهُمْ في كُلِّ وادٍ قَلَمٌ ... ولِسانٌ لاصْطِيادِ الْغافِلينْ

كَمْ أزاغوا عَنْ عَفافٍ وهُدًى ... مِنْ بَناتٍ طاهِراتٍ وَبَنينْ

لَمْ يَرُعْنا يا أبا القاسِمِ مِنْ ... جَوْلَةِ الغَيِّ دَوِيٌّ وَطَنينْ[1]

إنَّ في الشَّرْقِ شَباباً أيْقَنوا ... أنَّكَ الدَّاعي إلى الحَقِّ المُبينْ

إنَّ أَسْنى المَجْدِ في شَعْبٍ إذا ... سامَهُ الخَصْمُ أَذًى لا يَسْتَكينْ

وَقَفوا يَرْمونَ أعْداءَ الهُدى ... بِنبالٍ قَوْسُها الْعِلْمُ المَتينْ

يَعْشَقونَ الْبَذْلَ في الخَيْرِ إذا ... عَشِقَ المالَ طَغامٌ مُوسِرونْ[2]

يُؤْثِرونَ المَوْتَ في عِزٍّ عَلى ... أنْ يَعيشوا تَحْتَ إرْهاقٍ وهُونْ[3]

وإلى الحَضْرَةِ ما حُمِّلْتُهُ ... مِنْ تَحِيّاتِ شَبابٍ ناهِضينْ

أيُّ وِرْدٍ لَم يُكَدِّرْ صَفْوَهُ ... صَدَرٌ ما الدَّهْرُ إلاَّ مِنْجَنونْ[4]

أزمعَ الركبُ رحيلاً لم يكنْ ... منه بُدٌّ والضَّرورات فُنونْ

فَوَقَفْنا لِوَداعٍ، والأسى ... يَلْذَعُ الآماقَ بالدَّمْعِ السَّخينْ[5]

= النهار. الدجون: جمع الدجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء، ويقصد بذلك: الظلمات.

(١) أبو القاسم: النبي ﷺ.

(٢) الطغام: أوغاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء.

(٣) الهون: الخزي.

(٤) الورد: الإشراف على الماء، والماء الذي يورد. الصَّدَر: الرجوع عن الماء. المنجنون: الدولاب الذي يستقى عليها، وهي مؤنثة.

(٥) السخين: الحار.

أفَـلا نَـأسى عَلـى عَهْـدٍ أتـى ... وَتَـوَلّى وَهْـوَ مَقْطـوعُ القَـرينْ[1]

نَـضِـرٌ كـالرَّوْضِ حَـلاَّهُ النَّـدى ... بِجُمـانٍ صِـيغَ مِـنْ مـاءٍ مَعـينْ[2]

يـا حمًـى وَدَّعْتُـهُ والـشَّمْسُ قَـدْ ... وَدَّعَــتْ وَالْتَحَقَــتْ بـالرَّاحِلينْ

هَلْ لنَا عَوْدٌ كَعَـودِ الـشَّمْسِ مِـنْ ... قَبْلِ أنْ يَـصْرِفَنا عَنْـكَ المَنـونْ[3]

وسَــلاماً كُلَّمـا رتَّلْتُــهُ ... قالَتِ الدُّنْيا وَمَنْ فيهـا: أَمـينْ[4]

❐ ❐ ❐

(١) القرين: المقارن.

(٢) الجمان: اللؤلؤ، الواحد جمانة. المعين: الجاري.

(٣) المنون: الموت.

(٤) أمين: اسم فعل معناه: استجب.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

